

سامي محمد عبد الحميد

الناشر مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الاوبرا - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

القدس

فى اليهودية والمسيحية والإسلام

سامى محمد عبد الحميد

الناشر


البريد الإلكترونى : email: adabook@hotmail. com



الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م

مكتبة الآداب (على حسن)

مقدمة

ظهر الإسلام منذ فجره الأول نوراً ورحمةً للعاملين، وكانت فتوحاته خدمةً للإنسانية لا وبالاً عليها؛ حيث لم يرغم أحداً على اعتناقه، بل إنه سمح بتعدد العقائد والأديان فى دولته، وعامل أهل الكتاب - وهم المسيحيون واليهود - معاملةً خاصة ومتميزة؛ لأنهم أصحاب كتبٍ سماوية ورسالات روحية تقوم على الوحدانية فى أساسها الأول.

لم يعرف الإسلامُ الهدمَ ولا الإبادة؛ فلم يهدم معابد الآخرين ولا هياكلهم، ولم يستأصل شأفة المخالفين له فى العقيدة كما فعل الأوروبيون حين فتحوا القارة الأمريكية.

ومعاملةُ الإسلام للآخرين مقررة منذ البداية فى الوحى القرآنى، وفى التطبيق العملى فى عهد النبى ﷺ وخلفائه على مدى الأيام. إذ لم يكُن فهم الإسلام للآخرين وتسامحه معهم نتاج التجاربِ فقط، ولكنه منصوص عليه فى الكتاب والسنة النبوية، فلطالما دعا القرآن الكريم إلى حُسن معاملة أهل الكتاب قائلاً: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾، وحيث أن الأفراد فى أى طائفة دينية أو جماعة قومية ليسوا سواءً فى أخلاقهم وضمائرهم واستقامتهم؛ فإن القرآن ينظر إلى أهل الكتاب هذه النظرة المنصفة القائلة: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]. ثم يقول: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٥]. فالطبائع الإنسانية مختلفة، والسلوكُ يختلف تبعًا لذلك داخل الملّة الواحدة والجماعة الواحدة. ويقول القرآن الكريم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وبذلك لم يشأ الإسلام أن يكون حكمه على أهل الكتاب عامًا ومطلقًا لا تمييز فيه بين المحسنين منهم والمسيئين.

وهذه هى واقعية الإسلام التى تعد مثاليةً جداً؛ لأنها تعالج الواقع بما يناسبه.

ومعروفٌ أن النبى ﷺ عاهد نصارى نجران الذين دعاهم إلى المباهلة حين قدموا إليه

فى المدينة المنورة، فأبوا، وذلك هو العهد الأول بين الإسلام والمسيحية، ويُعدُّ نموذجًا للتعايش السلمى بين أتباع الأديان المختلفة.

كما أن النبى ﷺ عاهد اليهود الذين عاشوا معه فى المدينة المنورة، لكنهم خانوا العهود، بل إنهم ألَّبوا عليه قريشًا وحلفاءها، وحرضوهم على مقاتلة النبى عليه الصلاة السلام فيما عُرف بغزوة الأحزاب أو الخندق، وادَّعوا - رغم أنهم أهل كتاب يؤمنون بالوحدانية - أن دين قريش - وهو الشركُ وعبادةُ الأصنام - أفضل من دين محمد وهو الوحدانية والإيمانُ بالله، وقد أشار إلى تلك الواقعة الغريبة التى تدل على انتكاسٍ فى الطبيعة الإنسانية الكاتب اليهودى المعاصر إسرائيل ولفنسون فى رسالته «تاريخ اليهود فى بلاد العرب» التى نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية تحت إشراف د. طه حسين.

وإن دلَّ ذلك على شيء فإنه يدل على مدى العداء القديم الذى أضمره اليهود للإسلام رغم أنه كفل لهم الحرية بقوله: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣].

وانتشر الإسلامُ وأصبح المسلمون قوة عالمية يحسبُ لها ألفُ حساب، فلم تكن لذلك نتيجة غير التسامح مع الآخرين حتى من غير أهل الكتاب مثل الصابئة.. وهذه هى أخلاق القوة.. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ أحمد أمين فى كتابه «يومُ الإسلام» الصادر عام ١٩٥٢، حيث عجب لأمر المسلمين يُحسنون وهم أقوياء إلى الآخرين، أما إذا رجحت كفةُ هؤلاء الآخرين حينًا من الدهر فإنهم يسيئون إلى المسلمين ويضطهدونهم وينكِّلون بهم أشدَّ التنكيل، ولم يكن أحمد أمين - وهو الباحث المدقق المتعمق - ليلقى القول جزافًا فى مسألة من أهم مسائل التاريخ وهى العلاقات بين الثقافات والحضارات والأديان المختلفة.

وعاش اليهود فى عصور ازدهار الإسلام مواطنين محترمين، ولم يتمتعوا بهذه المواطنة إلا فى دولة الإسلام، وذلك باعتراف كاتب يهودى فرنسى هو مكسيم رودنسون. بل إن علومهم ازدهرت، حيث تأثروا بالإسلام، وكان التأثير الأول للمعتزلة مما أدى إلى ظهور مذهب «القَرَّائين» فى العهد العباسى على يد عنان بن داود. وقد أشار إلى ذلك أكبر فيلسوف يهودى فى العصر الوسيط وهو موسى بن ميمون فى كتابه

الهام: «دلالة الحائرين» ولكنه انتقد اليهود لأنهم وقفوا عند تأثرهم بالمعتزلة فى علم الكلام ولم يستفيدوا من المذاهب الأخرى التى تلت مذهب المعتزلة مثل المذهب الأشعرى.

وقام سعديا الفيومى فى القرن العاشر الميلادى بترجمة التوراة إلى العربية، وتأثر كثيراً بالثقافة الإسلامية.. بل إن النحو العبرى لم يوضع إلا اقتداءً بالنحو العربى.

وعندما كتب الباحث والمؤرخ الفرنسى إرنست رينان رسالته عن «ابن رشد» - وهى مرجع فلسفى هام - أفرد فيها بابًا للفلسفة اليهودية بوصفها قبسًا من الفلسفة الإسلامية.. ومعروفٌ تأثر موسى بن ميمون بالفيلسوف العربى أبى الوليد بن رشد خاصةً فى التوفيق بين الدين والحكمة... وابن رشد هو صاحب كتاب« فَصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال». وهذا ما حاوله ابن ميمون فى «دلالة الحائرين».

ومن أكبر فلاسفة العصر العباسى أبو البركات البغدادى هبة الله بن ملكا الذى اعتنق الإسلام.

وفى الأندلس كانت قرطبة مثالاً للتعايش بين الأديان السماوية الثلاثة؛ فأضاءت لأوروبا الطريق إلى النهضة، وكان ملك الأسبان ألفونسو الحكيم شغوفًا بالعلوم والمعارف الإسلامية، وجعل من بلاطه ملاذًا للمترجمين والعلماء من المسلمين واليهود والمسيحيين.

وكذلك فعل الامبراطور فريدريك الثانى امبراطور ألمانيا وصقلية فى بلاطه، وكان فريدريك هذا صديقًا للملك الكامل الأيوبى، وغضب عليه البابا وعزله من الحكم، وقد قضى نحبه سنة ١٢٥٠م.

وعندما طُرد المسلمون واليهود من أسبانيا بعد سيطرة الملوك الكاثوليك عليها سنة ١٤٩٢م، رفضت أوروبا إيواء اليهود، ولم يجدوا لهم ملاذاً إلا فى دولة الإسلام الكبرى - آنذاك - وهى الدولة العثمانية التى عملوا على هدمها فيما بعد.

ولما تمكن اليهود من إقامة دويلتهم فى فلسطين ارتكبوا المذابح واقترفوا أبشع الفظائع؛ مثلما فعلوا فى دير ياسين وكفر قاسم، فتجلى ضعفهم بصورة مزرية ومخجلة

حتى أن فيلسوفًا إسرائيليًا صهيونيًا معاصرًا مات فى التسعينيات وهو البروفسور «ليبوفيتز» تحدث عن «النازية اليهودية»[1] خاصة بعد احتلال الأراضى العربية عام ١٩٦٧.

وهنا يمكن لمن شاء أن يقارن كيف شاء بين «أخلاق القوة» عند المسلمين وبين «أخلاق الضعف» عند اليهود الذين لم يحسنوا حتى تطبيق ما فى التوراة من تعاليم. بل إن اليهود الغربيين اضطهدوا اليهود الشرقيين، ولا يسمح يهودى غربى متدين لابنته بالزواج من يهودى شرقى متدين، وكل ذلك فى دويلة أنشئت لحماية اليهود من اضطهاد الآخرين، ولكنها لم تنجح فى حماية اليهود من اضطهاد بعضهم لبعض!!.

وحديثنا عن «أخلاق الضعف» عند اليهود يستند إلى بحوث كتبها يهود إسرائيليون ومنها مقالات فى كتاب صدر بالفرنسية عنوانه «الأخلاق والسياسة فى الدولة اليهودية».

وأصبح التساؤل اليوم عن شرعية إقامة دولة فلسطينية!!

ويشير المؤرخ الإسرائيلى «زئيف شترنيل» إلى وجود إجماع شبه تام داخل إسرائيل على رفض «الشرعية المزدوجة» التى تعنى السماح بقيام دولة فلسطينية، وأوضح أن هناك قبولاً لفكرة السماح للفلسطينيين بالحياة كأفراد ولكن دون دولة.. وهذا هو مغزى الإصرار على أن يكون للفلسطينيين حكم ذاتى كأفراد دون أن تكون لهم سيادة على الأرض التى تمزق أوصالها المستوطنات فى كل مكان.

وبعد أن كان اليهود ينتحبون هلعًا وخوفًا بسبب اضطهاد أوروبا لهم، وبعد أن ظلوا يطالبون بملاذ لهم فى أى مكان فى الدنيا، نجحوا فى الحصول على وعد بلفور الذى اقترح وايزمان فى البداية أن ينص على «فلسطين كوطن قومى لليهود» ثم عدلت هذه الصيغة إلى «وطن قومى فى فلسطين» وهى صيغة أقل طموحًا من الأولى لأنها لا تجعل فلسطين كلها لليهود، وهذا ما أشار إليه الكاتب اليهودى الأمريكى ألفريد ليلنتال فى كتابه «(What Price Israel?) «ماذا تساوى إسرائيل؟»».

(١) انظر: حديث مع ليبوفيتز فى كتاب «الأخلاق والسياسة فى الدولة اليهودية» الصادر بالفرنسية فى سبتمبر ١٩٩٣.

وقد استقصى ليلنتال فى كتابه الأصول الأولى للصهيونية، ولأهمية ما جاء فى رسالته رأينا أن نبدأ هذا البحث عن «القدس فى اليهودية والمسيحية والإسلام» باستعراض آرائه فى الصهيونية والدولة اليهودية. ورغم صدور كتابه منذ أكثر من أربعين عامًا إلا أنه لا يخلو من الفائدة لما يتسم به من عمق ودقة فى التحليل.

ونود أن نشير إلى أن اليهود عاشوا فى ظل الإسلام أفضل حياة، رغم ادعائهم نقيض ذلك، ولهذا فإن جناية الصهيونية على اليهود تكمن فى أنها أشعلت الصراع بينهم وبين العرب، رغم أن العرب لم يسيئوا إلى اليهود، ورغم أنهم الأمة الوحيدة التى أحسنت إليهم، ولكن الصهيونية فعلت ذلك فى ظل الاستعمار، وراهنت على الضعف العربى وكأنه حتمية دائمة.. وهنا أيضًا تتجلى «أخلاق الضعف» اليهودية مرة أخرى .. وهنا أيضًا تظهر الحكمة الإلهية فى الآية القرآنية القائلة: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ونستطيع أن نقول إن الصهيونية سُلِّطت على اليهود لتضعهم فى مأزق تاريخى؛ هو الصراع مع العرب والإسلام، وهو مأزق لن تخرج الصهيونية منه إلا وهى محطمة مهزومة رغم كل الظواهر الخادعة.. وكما قيل فإن «الشيطان سيؤدى دوره فى الخطة الإلهية للكون وهو لا يدرى»، حتى ولو توهم أنه المنتصر وأنه صاحب اليد العليا.

وعندما تتحد القوى العربية والإسلامية فى مواجهة الخطر الماثل أمامها وهو خطر يهدد وجودها نفسه، فإن التاريخ سيقول كلمته.. وعندئذ ﴿سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾.

***

الباب الأول

بداية الصهيونية .. المزمور ١٣٧

صراع بين تيار الانعزال وتيار الاندماج

يقول ألفريد ليلنتال في الفصل الأول من كتابه « ماذا تساوى إسرائيل؟ » وعنوانه «الازدواجية التاريخية»: «إنه لولا الشاعر المجهول الذى كتب المزمور ١٣٧ لما كانت هناك «دولة يهودية» اليوم»، وأوضح أن هذا النص تكمن فيه البذرة الأولى للتفكير القومى الصهيونى.

ويشير هذا المزمور إلى سقوط أورشليم سنة ٥٨٧ قبل الميلاد عندما احتلها الملك البابلى نبوخذ نصر وهدم الهيكل وساق اليهود إلى المنفى، وهو ما يُعرف بالجلاء إلى بابل. ويُفهم من هذا المزمور أن عبادة الله لا تتم إلا فى أورشليم؛ حيث جاء فيه:

كيف نُنشد نشيد الرب ونحن فى أرض الغربة؟!

يقول المزمور ١٣٧:

«على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عند صهيون تذكّرْنا
على الصفصاف فى وسطها علّقنا كناراتنا
هناك سألَنا الذين أسَرونا نشيدًا والذين عذّبونا طربًا:
«أنشِدوا لنا من صهيون نشيدًا»
كيف ننشد نشيد الرب ونحن فى أرض الغربة؟!
إن نَسيتُكِ يا أورشليم فلتُشَلّ يمينى
وليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك
إن لم أرفع أورشليم إلى أوجِ فرحى»

هذا هو النص العربى الذى قامت بترجمته الرهبانية اليسوعية.. وقد أشارت الترجمة إلى أن كلمة «فلتُشَلّ يمينى» كانت فى الأصل العبرى «فلتنسنى يمينى» ولكن أدخل عليها تعديل طفيف.

ويمثل **الدعوة إلى انعزال اليهود** عزرا ونحميا. و«**عزرا**» كاتب وكاهن كلفه ملك الفرس بعد السماح لبنى إسرائيل بالعودة من المنفى البابلى بمهمة رسمية، فوصل إلى أورشليم وسخط كثيراً لما رأى كثرة الزيجات بين اليهود وبين الشعوب الأخرى (الوثنيين)، وقد طرد عزرا الغرباء، وأمر اليهود بتطليق زوجاتهم الغريبات.

أما «نحميا» فقد حصل على إذنٍ من ملك الفرس لإعادة بناء سور أورشليم، وتم هذا البناء فى ٥٢ يومًا.

ويتحدث سفرُ عزرا فى الفصل التاسع عن «فسخ الزواج مع الغريبات» وهو تعبير واضح عن الميلَ إلى الانعزال عن الشعوب الأخرى؛ حيث جاء فيه: «إن شعب إسرائيل والكهنة واللاويين لم ينفصلوا عن شعوب الأرض فى شأن قبائحهم، أى عن الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والأموريين؛ لأنهم اتخذوا من بناتهم لهم ولبنيهم، فاختلط النسل المقدس بشعوب البلاد، بل يدُ الرؤساء والعظماء كانت الأولى فى هذه المخالفة».

وعندئذ قال عزرا: «فلمًا سمعت هذا الكلام مزقت ثوبى وردائى ونتفت شعر رأسى ولحيتى وجلست متحيراً»، ثم أمر عزرا أبناء شعبه بالانعزال قائلا: «والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم، ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم، ولا تطلبوا سلمهم ولا خيرهم للأبد».

ثم صدر أمر إلى الشعب اليهودى بالاجتماع، فلما اجتمعوا قام عزرا الكاهن وقال لهم: «إنكم قد خالفتم واتخذتم نساءً غريبات لتزيدوا فى إثم إسرائيل، فاحمدوا الآن الرب إله آبائكم واعملوا بما يرضيه، وانفصلوا عن شعوب الأرض والنساء الغريبات».

وانتهى سفر عزرا بتقديم «لائحة المذنبين» وفيها أسماء أبناء الكهنة الذين اتخذوا نساءً غريبات.

أما سفر **نحميا** فإنه يتحدث عن محاولات إعادة بناء سور أورشليم، وكأن هذا السور أيضًا رمزٌ للانعزال. وقد جاء فيه:

«ولما أظلمت أبوابُ أورشليم قبل السبت أمرتُ بإغلاق المصاريع، وأوصيتُ بألاّ تُفتح إلا بعد السبت، وأقمتُ بعض رجالى على الأبواب لئلا يدخل بحمل يوم السبت». ثم يقول: «وأمرتُ اللاويين بأن يتطهروا ويأتوا ويحرسوا الأبواب؛ ليقدسوا يوم السبت».

كما يتحدث نحميا بلهجة الأسف عن ظاهرة الزواج بالأجنبيات والتحدث بلغات أجنبية فيقول: «وفى تلك الأيام أيضًا، رأيت يهوداً قد تزوجوا نساءً أُشدوديات وعمونيات وموآبيات، وكان نصف أولادهم يتكلمون بلغة أشدود». ومن المرجح أن لغة أشدود لهجة آرامية؛ حيث كانت الآرامية هى اللغة الشائعة.

ثم يقول نحميا: «ولم يكونوا يحسنون التكلم باليهودية، بل بلسان هذا أو ذاك الشعب، فوبختهم ولعنتهم وضربت منهم رجالاً ونتفت شعرهم».

* * *

وإذا كان عزرا الكاتب ونحميا يمثلان تيار الانعزال، فإن هناك **تيارا آخر كان يدعو إلى الاندماج** في الشعوب والتعايش معها، ويمثله الأنبياء إرميا وأشعيا وهوشع وعاموس الذين لم تكن تعنيهم فكرة إقامة سلطة سياسية(١).

والنبي **إرميا** هو الذي دعا اليهود إلى الاندماج في بابل عندما أسرهم «نبوخذ نصر» وساقهم إلى بلاده .. كان إرميا معاصراً للهجوم البابلي على فلسطين، ونصح قومه بالاستسلام لإرادة الله الذي يريد التفوق البابلي، ولا يريد دولة مستقلة لليهود.

وقد ولد إرميا في قرية عناتوت قرب أورشليم وكان عضواً في أسرة كهنوتية، لكنه عاش مضطهداً وسُجن وسيق مكرهًا إلى مصر حيث انتهت حياته هناك. وقرية عناتوت هي اليوم قرية «عناتة» وتقع على مسافة ٦ كم إلى الشمال الشرقي من القدس.

ومن آراء إرميا الهامة في «هيكل» اليهود الذي كان في أورشليم: أن الله يمكن أن يهجر هذا الهيكل. وقد تعرض للتهديدات بسبب آرائه وانتقاداته اللاذعة في شأن الهيكل في أوائل عهد يوياقيم سنة ٦٠٨ ق.م حيث يقول «أَفَصَارَ هذا البيت الذي دعي باسمي مغارة لصوص أمام عيونكم؟! بل هذا ما رأيت أنا، يقول الرب».

أما دعوة إرميا إلى التعايش مع الشعوب فإنها تتجلى في كتابه إلى المُجْلَيْنَ إلى بابل حيث جاء فيه: «هذا نص الكتاب الذي أرسل به إرميا النبي من أورشليم إلى بقية شيوخ الجلاء وإلى الكهنة والأنبياء وإلى كل الشعب الذي جلاه نبوكد نصر من أورشليم إلى بابل، هكذا قال رب القوات إله إسرائيل: لجميع المجلوين الذين جلوتهم من أورشليم إلى بابل.. ابنوا بيوتًا واسكنوا واغرسوا جنائن وكلوا من ثمرها. اتخذوا نساءً ولدوا بنين وبنات»، ثم يقول: «وتكاثروا هناك ولا تقلوا، واطلبوا سلام المدينة التي جلوتكم إليها، وصلوا من أجلها إلى الرب؛ فإنه بسلامها يكون لكم سلام».

وهكذا فإن إرميا كان يرى أن سلام اليهود مرتبط بسلام الشعوب التي يتعايشون معها، لا كما يرى تيار الانعزال الذي يريد السلام لليهود وحدهم دون النظر بعين الاعتبار إلى مصالح الشعوب الأخرى. والحق أن نظرة إرميا نظرة إنسانية واسعة الأفق، وهي تتفق مع روح الأديان السماوية؛ فالتوراة نفسها توصي بحسن معاملة الآخرين ولو كانوا غرباء.. والهيكل الذي أقامه سليمان عليه السلام لعبادة الله – وهو المعروف

(١) ص ٢ من كتاب ليلنتال: ماذا تساوي إسرائيل؟.

بالهيكل الأول - كان فيه «رواقٌ للأمم» مما ينطوى على معنى هام وهو التعايش مع سائر الشعوب. بل إن اسم سليمان نفسه مشتقٌ من السلام حيث إن اسمه بالعبرية «شلومو» وهو قريب جداً من كلمة «شالوم» العبرية أى السلام ومعنى «شلومو»: «المُسالم». وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدلُّ على أن الهيكل الذى بناه سليمان كان مسجداً للّه ولم يكن من الهياكل التى تقام لإظهار العظمة القومية، ومن شروط إقامة ذلك الهيكل أن المدينة التى أقيم فيها تصبح مركزاً روحيًا للجماعة الدينية، ولا يمكن لهذا المركز الروحى إلا أن يكون مثابة للناس وأمنًا ورمزاً للسلام والوئام لا سببًا للشقاق والصراع والخصام.. ولا بد لهذا المركز أن يبث إشعاعه الروحى كالنور لا أن يكون قلعة تحشد فيها الأسلحة للاعتداء على الآخرين كما تفعل الدويلة اليهودية اليوم. ولا يمكن لمثل هذا المركز الروحى أن يقوم على الظلم والاعتداء على الآخرين، بل إنه يكفل العدل والسلام للجميع؛ لأن هذا المركز الروحى صورة «لدار السلام» فى عالم الروح، مثلما أن البيت الحرام فى مكة المكرمة يقع تحت «البيت المعمور» فى السماء، فإذا لم يكن المركز الدينى الروحى فى الأرض مطابقًا للمركز الروحى الذى فى السماء فإنه لا يمكن بأى حال أن يكون دينيًا أو روحيًا.

ولم يتحقق السلام والتسامح فى القدس إلا فى ظل الإسلام، وسرُّ ذلك أن الإسلام يؤمن بجميع الأنبياء، ومن هنا فإنه يكفل الحرية الدينية لليهودية والمسيحية معًا، ولم يكن ذلك من الناحية النظرية فحسب، بل شهد بذلك الواقع التاريخى... ومن الطريف فى هذا السياق أن شاعراً إسبانيًا كبيراً هو «خوان دل إنسينا» مؤسس المسرح الإسبانى العلمانى زار القدس فى مطلع القرن السادس عشر للميلاد وكتب قصيدته «الرحلة المقدسة» التى شهد فيها بتسامح المسلمين الذين كانوا قد طُردوا من بلاده قبيل ذلك بأقل من عشرين عامًا. بل إن الشاعر الأسبانى تساءل وهو يشعر بالدهشة من هذا التسامح الإسلامى: «ماذا كان عسانا أن نفعل لو أن مكة وقعت تحت أيدينا؟»..

والغريب أن اليهود المتطرفين أو المعتدلين الذين يريدون إقامة «الهيكل الثالث» اليوم ينظرون إلى ذلك نظرة قومية، وهم ينسون أن الهيكل الذى بناه سليمان عليه السلام -وهو نبى وابن نبى فى تراثنا الإسلامى، ولكن اليهود يعتبرونه مَلكًا لا نبيا - كان مسجداً لله الذى تعبده كل الشعوب، ومن هنا كان «رواق الأمم». ويلاحظ هنا أن هذه المراكز الروحية لا تتكون إلا فى عصر ظهور النبوات؛ فالهيكل الأول بدأت فكرته مع داود، ثم أقامه سليمان، ولما خالف اليهودُ تعاليمَ التوراة وعبدوا آلهة الشعوب الأخرى، سلَّط اللّه عليهم البابليين، فهدموا القدس والهيكل، وساقوا الشعب اليهودى أسيراً إلى

بابل، ومعنى ذلك أن الهيكل نفسه لا يجدى شيئًا عند الانحراف عن التعاليم الإلهية، وهذا هو مغزى «تنديد» النبى إرميا بالهيكل.

ثم أقيم الهيكل الثانى قبيل ظهور المسيح عليه السلام، فلماً كفر اليهود برسالته أنذرهم المسيح بأن القدس ستهدم ولن يبقى فيها حجر على حجر. وهذا ما فعله طيطوس القائد الرومانى الذى كان نائبًا لأبيه الإمبراطور سنة ٧٠ للميلاد.

ثم لما ظهر الإسلام.. وكان الإسراء من مكة إلى القدس ثم المعراج إلى السماء، كان لذلك مغزًى هامٌ وهو ربط المراكز الروحية فيما بينها، واعتبار القدس مركزًا روحيًا للإسلام دين الوحدانية النقية بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة.. ثم أقيم المسجد الأقصى الذى بناه الوليد بن عبد الملك لتستمر رسالة التوحيد فى هذه الأرض المقدسة التى فتحها عمر بن الخطاب الذى تحدثت عنه بعض «الأسفار الخفية» لليهود بوصفه «الملك الثانى» أى الخليفة الثانى.

ولنا أن نتساءل عن الحكمة فى سعيهم إلى بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى الذى يُعبد فيه اللّه الواحد الأحد!! وهذا المسجد الأقصى ليس فيه أصنامٌ ولا مظاهر للوثنية مثلما كانت عليه الحال عند الشعوب الوثنية القديمة التى حاربها اليهود عندما كانوا يؤدون دورهم فى نشر الوحدانية قديمًا، ويتجلى هذا التناقض اليوم فى أن اليهودية المعاصرة المتأثرة جداً بالحضارة الغربية المادية تريد إزالة «المسجد الأقصى» الذى يسميه حاخاماتهم «الشناعة»، وهى كلمة أطلقت قديمًا على تمثال وضعه أنطيوخس أبيفانس فى الهيكل نكايةً فى اليهود! ولكن المسلمين ليسوا من البطالمة ولا من الفينيقيين الذين عبدوا البعل، ولا من الرومان، وإنما هم دعاةُ الوحدانية النقية، ولهذا سيكون من الغريب أن يدّعى اليهود أنهم يريدون إقامة هيكل لعبادة اللّه مكان المسجد الأقصى وهو أيضًا لعبادة الله!

وقد يكون من الغريب والمثير أن الهيكل الأول نشأ مع ظهور اليهودية واستقرارها فى عهد داود وسليمان؛ حيث انقسم اليهود على أنفسهم بعد سليمان، وأن الهيكل الثانى قد أقيم مع ظهور المسيحية، وأن المسجد الأقصى قد أقيم مع ظهور الإسلام وذلك بعد فتح فلسطين وبيت المقدس فى عهد عمر بن الخطاب. وبذلك تكون هذه الهياكل الدينية الثلاثة المتوالية رمزًا لظهور أديان التوحيد الثلاثة فى التاريخ؛ اليهودية، والمسيحية، والإسلام. ومن الغريب أيضًا أن اليهود عاشوا فى ظل التسامح الإسلامى أزهى عصورهم، فإذا كان فى كتبهم «الخفية» ما يشير إلى إنصافهم بعد ظهور حاكم عادل يفتح بيت المقدس ويدخلها متواضعًا ويقيم «مسجدًا»، وهو ما فعله الفاروق عمر، مع

ملاحظة أن «المساجد لله»، فإن اليهـود يتناقضون مع أنفسهم؛ لأنهم عندئذ يريدون هدم «البناء» الذى بشـرتهم به بعض كتـبهم مـثلما بشـرتهم بنبـوة المسيح ونبـوة محـمد ﷺ ولكنهم أَبَوْا إلا الكفر والإنكار.

ونعود إلى فكرة الـسلام وارتباطهـا بالقدس، وكيف أن عـدم تحقـيق السلام فى ظل الدولة اليهودية اليوم إنما يدل على أن «القدس» لا تكون «قدسًا» وأنها تفقد طابعها تحت حكمهم، وأن «تهـويدها» إنما يعنى نزع صفـتها المقدسـة. وقد سبـقت الإشارة إلى اسم سليمان وأنه مـشتق من السلام. وقد جـاء فى الفصل ٤٧ من سفر يشـوع بن سيراخ فى «العهد القديم: «ملَكَ سليمانُ أيّامَ سلام».

كما جاء فيه:

«بلغَ اسمُك إلى الجزر البعيدة، وأحَبَّكَ الناسُ لأجل سلامك».

أما النبى أشعيا الذى يمثل تيار الاندماج فى الشـعوب مثل إرميا، فقـد جاء فى الفصل ٥٦ من سفره تحت عنوان «وعد للغرباء»:

«لأن بيتى بيتُ صلاة يُدْعَى لجميع الشعوب».

كما أن أشعيا هو الذى تنبـأ بظهور المسيح عليه السلام، وأوضح أن الذئب يسكن مع الحـمل فى زمانه، وأن الأسـد يأكل التبن كـالثور، وذلك فى الـفصل الحـادى عشـر من سفره.

وينتقد أشعيا اهتمام بنى إسرائيل بأداء الشعائر فقط دون تحقيق مقاصدها؛ حيث جاء فى سفره فى الفصل الأول:

«ما فائدتى من كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب قد شـبعتُ من مُحرقات الكباش وشحم المسمنات وأصبح دم الحملان والثيران والتيوس لا يرضينى».

كما جاء فى سفر أشعيا فى الفصل الأول أيضًا:

«فحين تبسطون أيديكم أحجب عينىَّ عنكم، وإن أكـثرتـم من الصلاة لا أستمع لكم؛ لأن أيديكم مملوءةٌ من الدماء، فـاغتسلوا وتطهّـروا وأزيلوا شر أعمالكم من أمـام عينىّ، وكفُّوا عن الإساءة، تعلَّموا الإحسان والتمسوا الحق، قوِّموا الظالم، وأنصفوا اليتيم».

ويذكرنا هذا بالآية القرآنية التى تقول: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

كمـا ورد فى سفر أشعـيا استنكارٌ لإعادة بنـاء الهيكل بعد العودة من الجـلاء؛ حيث جاء فى الفصل ٦٦:

«هكذا قال الرب: السماءُ عرشي والأرض موطئُ قدمى، فأى بيت تبنون لى؟!!».

وواضح أن سبب هذا الاستنكار هو عدم تحقيق المقصد من بناء الهيكل؛ وهو العبادة والتقوى والإحسان.

وإذا كان أشعيا قد تنبأ بظهور المسيح عليه السلام، فإنه تنبأ أيضًا بظهور الإسلام؛ وقد تضمن الفصل ٢١ من سفره بدءاً من الآية ١٣ حتى الآية ١٧ نبوءةً عن الهجرة النبوية ومعركة بدر التى هُزم فيها المشركون من قريش، وجاء فى تلك الآيات: «قول على العربة»:

فى الغابة فى العربة تبيتون

يا قوافل الددانيين

هاتوا الماء للقاء العطشان

يا سكانْ أرض تيماء

استقبلوا الهارب بالخبز

فإنهم قد هربوا من أمام السيف المسلول والقوس المشدودة وشدة القتال.

لأنه هكذا قال لى السيد: «بعد سنة كَسنيِّ الأجير يفنى كل مجد قيدار، وباقى عدد أصحاب القسى من أبطال بنى قيدار يصبح شَيئًا قليلاً؛ لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم».

وقيدار هو أحد أبناء إسماعيل عليه السلام، ويرمز باسمه فى العهد القديم إلى العرب. كما أن ددان وتيماء اسمان لقبيلتين عربيتين فى شمال الجزيرة العربية. وقد استخدم قيدار هنا رمزاً لقريش التى حاربت النبى ﷺ، بينما استخدم تيماء رمزاً للأنصار الذين هاجر النبى إليهم. ومن هنا جاء فى الآيات السابقة.

«يا قوافل الددانيين

هاتوا الماء للقاء العطشان

يا سكان أرض تيماء

استقبلوا الهارب بالخبز».

وهى إشارة واضحة إلى هجرة النبى محمد ﷺ إلى المدينة المنورة.

والمعروف أن موقعة بدر الكبرى بين قريش والمسلمين كانت بعد الهجرة بسنة واحدة، ولهذا جاء فى نص أشعيا:

«بعد سنة كسنى الأجير يَفْنَى كل مجد قيدار». ولا بد من الإشارة إلى دقة التعبير فى قوله «بعد سنة كسنى الأجير» حتى لا يُفهم من السنة أنها رمز لوقت قد يقصر أو يطول ولكنها سنة محددة.

وقد أوردنا هذه الآيات للدلالة على أن الرسالات السماوية الثلاث قد توالت لنشر رسالة التوحيد التى لم تنحصر فى الشريعة الموسوية وحدها؛ حيث يدَّعى علماء اليهود ومنهم الفيلسوف موسى بن ميمون أنه: «لا نبى بعد موسى» وأن العرب قد أوتوا مُلْكًا لا نبوة.

وقد أشار ألفريد ليلنتال إلى أن استخدام أشعيا لعبارة «العام القادم فى أورشليم» لم يكن مقصودًا به أمة بعينها، ولكنها إشارة إلى مملكة الله التى يعيش فيها مجتمع كامل وأناسٌ كاملون، ومعنى ذلك أن هذه العبارة لا تختص باليهود ولا تنحصر فيهم.

وأوضح ليلنتال أن كلمة «إسرائيل» معناها «عبادة الله» وليس لها معنى قومى، وأشار إلى إقامة اليهود فى بابل وعودة قلة منهم إلى فلسطين بعد سماح قورش ملك الفرس لهم بالعودة، ولكن الكثرة منهم قد بقيت فى بابل لتصلى فى أماكن غير «هيكل القدس»، وهذه الأماكن هى التى عرفت بالمعابد اليهودية وهى نظير الكنيسة والمسجد.

وتحدث ليلنتال عن انتشار اليهودية فى العالم القديم تطبيقًا لرسالة أشعيا الثانى العالمية، حيث وصلت إلى الهند والصين وإيطاليا وفرنسا واعتنقتها شعوب مختلفة، كما هاجر بعض اليهود إلى الصحراء العربية واليمن ومصر؛ وآمن بالرسالة الموسوية كثير من الرومان وأناس فى القرم. وكان عدد اليهود آنذاك فى أنحاء العالم أكثر من عددهم فى الأرض المقدسة. ومع ظهور المسيحية لم يعد لليهود دور فى نشر الوحدانية التى أصبح أتباع المسيح يتكفلون بنشرها فى العالم.

وبعد ذلك ظهر الإسلام ليواصل نشر رسالة التوحيد. وأشار ليلنتال إلى أن اليهود عاشوا فى العصر الذهبى فى الأندلس حيث نبغ منهم أناس مثل الشاعر يهودا هاليفى والفيلسوف موسى بن ميمون إلى أن طُردَ العربُ المسلمون من أسبانيا. وعندئذ كان الحكام المسيحيون يحمون الجالية اليهودية ولكن التعصب كان سائدًا آنذاك فى إسبانيا التى ترددت فيها صيحة «قتلة المسيح» التى انتقلت إليها من أنحاء أوروبا. واضطر بعض اليهود الإسبان حينئذ إلى التظاهر باعتناق المسيحية وممارسة اليهودية سرًا.

ولكن محاكم التفتيش طردت المسلمين واليهود؛ وقد فر اليهود إلى مناطق أخرى فى أوروبا وإلى شمال أفريقيا، بل هاجر بعضهم إلى أمريكا الوسطى والجنوبية. وهاجر بعض اليهود إلى بوردو ومارسيليا فى فرنسا، ولم ينسوا ذكرياتهم فى الأندلس، فظلوا يطلقون على أنفسهم «الأمة البرتغالية»، وهاجر موسى بن ميمون إلى مصر لكنه ظل يلقب نفسه بالقرطبى.

الباب الثانى

مـــــلاذٌ أمْ دولـــة؟!

كان للثورة الفرنسـية أثر حاسم فى تحرير اليهود وإعطائهم حـقوق المواطنة، وقد دعا نابليون إلى عـقد مؤتمر يمثل اليـهود فى كل أنحاءامبـراطوريته عام ١٨٠٧. وكـان كبار مفكرى الثورة الفرنسية أمثال ميرابو والأب جريجوار وسانت إتيين قد كافحوا فى سبيل ضمان حقوق المساواة و«الإخاء» لكل الجماعات الدينية فى فرنسا.

وعندما سُئل ممثلو اليهود فى المؤتمر الذى عـقده نابليون - الذى فرض حق اليهود فى المسـاواة فى كل مكـان احـتله فى أوروبا - عـمـا إذا كـانوا يعـتـبـرون فـرنسـا وطنهم والفرنسيين إخـوة لهم؟ قالوا: «نعم». ووعد ممثلوا اليهود نابليون بأنهم سيـعتبرون أتباع العقائد الأخرى من الفرنسيين إخوة لهـم.. ولهذا فلم تكن هناك قط حركة قومية يهودية فى فرنسا منذ عهد نابليون(١).

وفى عام ١٨٧٤ أصبـحت لليهود حقـوق كاملة فى انجلترا وألمانيـا وهولندا وبلجيكا والدانمارك والنرويج والنمسا وسويسرا.

ولكن يهود بولندا وروسيا لم يتأثروا بتحـرير اليهود فى أوروبا الغربية.. ولهذا فإنهم أخذوا يطلبون التـحرر عن طريق النزعة القومـية. ثم بدأت الصهيونيـة فى تحويل الآمال الدينية والشوق للحرية الفردية إلى برنامج سياسى.

ويـقول ألـفـريد ليلنتال إن دعـاة الصهيـونية الأوائل كانوا ثلاثـة وهم: موشى هيس Moses Hess الذى قدم أول عرض للصهيونية فى كتابه «روما وأورشليم» Rome and Jerusalem الصادر عام ١٨٦٢(٢).

وبعد ذلك بعـشرين عاما أصدر المفكر الثـانى للصهيونيـة ليوبنسكر Leo Pinsker كتابه «التحرر الذاتى» Auto- Emancipation الذى رأى فيه أن اليهود يشكلون عنصرا خاصا يصعب اندماجه وذوبانه فى المجتمعات التى يعيشون فيها. وكان بنسكر يريد وطنا

---

(١) ص ١١ من كتاب ليلنتال.

(٢) ص ١٣ من المرجع السابق.

لليهود ولو كان فى غير فلسطين.

وقد عقد أول مؤتمر قومى يهودى بزعامة بنسكر فى كاتوفيتش فى سيليزيا عام ١٨٨٤، وذلك قبل ثلاثة عشر عاما من دعوة تيودور هرتزل إلى عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل فى سويسرا.

وهرتزل هو المفكر الثالث للصهيونية بعد هيس وبنسكر، لكنه - كما هو معروف - قام بالدور الأكبر فى تأسيس الصهيونية، وكان هرتزل صحفيا نمساويا تأثر بمحاكمة دريفوس فى فرنسا، مما دفعه إلى كتابة مؤلفه المعروف «الدولة اليهودية»، وقد دعا مؤتمر بازل عام ١٨٩٧ إلى الاعتراف بوطن يهودى فى فلسطين. وبذلك حلت حركةٌ سياسية محل المسيح المنتظر فى العمل على إعادة اليهود إلى فلسطين.

وتحدث ليلنتال عن انتقال قوة اليهود إلى أمريكا فقال: إن الأوروبيين المضطهدين كانوا يفرون إلى أمريكا وبينهم بعض اليهود.

وكان هناك ٢٥٠٠ يهودى فى أمريكا إبان حرب الاستقلال، وقد جاء معظمهم من شبه جزيرة أيبيريا. وكان هناك خمسة معابد يهودية فى نيويورك ونيوبورت وفيلادلفيا وتشارلستون وسافانا.

وبين عامى ١٨٣٠ و١٨٨٠ كان معظم المهاجرين اليهود إلى أمريكا قادمين من ألمانيا. وتوقفت هجرة اليهود من أوروبا الغربية بعد منحهم حقوق المواطنة الكاملة.

وكان يعيش فى أمريكا فى القرن التاسع عشر نحو ٢٣٠ ألف يهودى يؤمنون بفكرة الاندماج فى المجتمع الأمريكى؛ وذلك لأن يهود أمريكا كانوا يتمتعون بكل الحقوق، ولهذا لم يرغبوا فى أن يكون لهم أى وجود ثقافى متميز.

وأشار ليلنتال إلى أن الحركة الإصلاحية اليهودية حررت الطقوس لتجعل من اليهودية عقيدة دينية من جديد بدلا من أن تكون أسلوبا منعزلا للحياة. وكان أبرز مثل على ذلك أن إثنى عشر يهوديا من الإصلاحيين أقاموا صلاة فى عام ١٨٢٤ فى تشارلستون برئاسة الصحفى إسحق هاربى Isaac Harby وكان بعضها بالإنجليزية.

وأقام هؤلاء اليهود الإصلاحيون معبداً جديدا فى عام ١٨٤١، ولقد ألقى فيه د. جوستافوس بوزانسكى-كلمة الافتتاح التى قال فيها: «إن هذا المعبد هو هيكلنا، وهذه

المدينة هى أورشليمنا، وهذه الأرض السعيدة هى فلسطيننا»[1].

ويتضح مما سبق أن اليهود فى أوروبا الغربية وأمريكا قد نالوا حقوقهم، ولكن نظام الأقليات فى الامبراطورية النمساوية المجرية جعل اليهود فيها يعيشون معزولين مما أثار لديهم شعورا بالاضطهاد، حيث كان قياصرة روسيا يرغمونهم على الحياة فى أقاليم روسيا الغربية. ولهذا فإن يهوداً من أوروبا الشرقية قاموا بدور هام فى الحركة الصهيونية.

وفى الفترة من ١٨٨١ إلى ١٩٢٤ تدفقت على أمريكا الموجة الثالثة من الهجرة اليهودية حيث بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من وسط وشرق أوروبا إلى أمريكا مليونين ونصف مليون يهودى. وكان معظم هؤلاء اليهود من أتباع التيار التقليدى، ويميلون إلى الصهيونية، وذلك على عكس اليهودية الإصلاحية التى كانت ترفض الصهيونية السياسية، على أساس أن اليهودية تعتبر رسالة عالمية تقوم على الأخلاق التى دعا إليها الأنبياء، ولهذا فإن اليهود الإصلاحيين رفضوا فكرة الهجرة اليهودية بأعداد كبيرة إلى فلسطين.

أما اليهود التقليديون والمحافظون فإنهم اعترضوا على الصبغة العلمانية وغيرالدينية فى أساليب العودة إلى فلسطين، وذلك بعد صدور وعد بلفور الذى دعا إلى «إنشاء وطن قومى فى فلسطين».

ومع ذلك فإن اليهود الإصلاحيين تعاونوا مع الصهيونية فى تحويل فلسطين إلى ملاذ ومركز روحى لليهود، لكنهم يصرون على أن العالم كله وطن لليهود، وكان شعارهم: «قاتل الصهيونية وقُمْ ببناء فلسطين».

وهناك تيارات ثلاثة فى اليهودية المعاصرة وهى: التيار التقليدى «الذى يمكن وصفه بأنه سَلَفى» وهو المسيطر فى إسرائيل.

والتيار الثانى هو الإصلاحى ويحاول أصحابه التوفيق بين اليهودية وبين العصر الحديث مع ميل أكبر إلى الحياة العصرية.

أما التيار الثالث وهو المحافظ فإنه يتخذ لنفسه طريقاً وسطاً بين التقليديين والإصلاحيين.

وقد أشار ليلنتال إلى أن مفهوم القومية اليهودية نشأ فى وسط وشرق أوروبا، وأن

(١) ص ١٥ من كتاب ليلنتال.

هرتزل نفسه كان مواطناً فى الامبراطورية النمساوية المجرية، وهى دولة متعددة القوميات، وفيها نظام للأقليات، وقد انتقل اليهود المهاجرون من شرق ووسط أوروبا إلى أمريكا وهم يعانون من عقدة الأقلية؛ حيث كانوا يعيشون فى عزلة عن مجتمعاتهم حتى تكوّن لديهم «جيتو فكرى»، وقد تغلب هؤلاء المهاجرون الجدد لكثرة عددهم على من سبقهم من اليهود فى الهجرة إلى أمريكا. وعندما أنشىء المؤتمر اليهودى الأمريكى «القومى النزعة» عام ١٩١٨، انتهت سيطرة المهاجرين الأوائل من اليهود القادمين من إسبانيا وألمانيا، وبدأت الصهيونية تحقق تقدماً فى الأرض الأمريكية.

وكان تقدم الصهيونية محدوداً فى أمريكا حتى عام ١٩٣٣، ولكن حملة هتلر على اليهود هى التى شجعت الصهيونية على تحويل تعاطف اليهود الأمريكيين معهم إلى قوة منظمة؛ حيث انضمت مئات من المنظمات الأمريكية اليهودية إلى جانب الصهيونية خلال الحرب العالمية الثانية بسبب التهديد الذى تعرض له اليهود الأوروبيون . وبذلك أصبح الطريق ممهدا ؛ حيث استغلت الصهيونية ما ارتكبته ألمانيا ضد اليهود للتعجيل بإنشاء دولة يهودية، وذلك رغم أن عدد اليهود في فلسطين فى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن يصل إلى ٥٠ ألفا.

وبعد وعد بلفور بعامين كان عدد اليهود بفلسطين ٦٥ ألفا، وهى نسبة ٧٪ من سكان فلسطين، وفى الفترة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٢ هاجر ١١٨ ألف يهودى إلى فلسطين وهم يمثلون نسبة ٧٥ ,٠٪ من يهود العالم.

وفى العشرين عاما التى أعقبت وعد بلفور كان معدل هجرة اليهود الأمريكيين إلى فلسطين لا يتجاوز ٥٠٠ مهاجر كل عام.

والمعروف أن الرومان هم الذين هدموا الهيكل عام ٧٠م. ولهذا فقد صدق الكاتب اليهودى الأمريكى ألفريد ليلنتال عندما قال إن معظم سكان فلسطين كانوا من العرب طوال العهد المسيحى الذى استمر ستة قرون قبل الفتح الإسلامى، وقد عنوا بحماية الأماكن المقدسة لدى اليهودية والمسيحية والإسلام. وكانت هذه البلاد تعرف بأنها «الجزء الجنوبى من سوريا المعروف باسم فلسطين».

وينتقد ليلنتال اليهود الأمريكيين الذى تطلعوا فجأة إلى امتلاك جزء من العالم العربى كرد فعل عاطفى على الهمجية الأوروبية ضد اليهود(١).

---

(١) ص ٢٠ من كتاب ليلنتال.

وقد تحدث ليلنتال بإسهـاب فى باب عنوانه: «ملاذ أم دولة» عن ظروف إصدار وعد بلفور وتعديل صيغتـه؛ فأشار إلى محاولة بعض زعماء الصهيونية عـقد صفقة سرية مع ألمانيا فى الحرب العالميـة الأولى لمعارضة هؤلاء الصهيونيين للنظام القـيصرى فى روسيا وذلك اعـتـقادا مـنهم بأن ألمانيـا المنتـصـرة يمكن أن تمنح فلسطين للـصهـيـونيـة، لكن المفاوضات فشلت، وعندئذ بـدأت المنظمة الصهيونية العالميـة عام ١٩١٦ فى التوجه إلى قـوة أخرى هى بريطانيـا، وقـيل إن وعد بلفـور مُنح لليـهود مـقـابل اتفاق سـرى تؤيد الصهيونية بمقتضاه قضية الحلفاء، بل وتستدرج الولايات المتحدة إلى الحرب؛ حيث كان موقف الحلفاء خطيرا جدا عام ١٩١٧.

وكانت بريطانيا فى حاجـة إلى كسب تأييد الشعب اليهودى الذى اعـتبرته قوة لا بدّ أن توضع فى الحسـاب. ولهذا فإن بريطانيـا أصدرت وعد بلفور لأهداف عـملية وليس إيمـانا بعدالة «الحـقوق اليـهودية»، حـيث كان هدفـها إنشـاء قاعـدة قريبـة لحمـاية قناة السويس.

وقد أشار حـاييم وايزمان فى اتصالاته مع البـريطانيين إلى أهمية «فلسطين الـيهودية بالنسبة لانجلترا،خاصة لحماية قناة السويس» .

بينما أشار تشرشل فى مجلس العـموم فى يوليو ١٩٣٧ إلى أن وعد بلفور لم يصدر لأسباب إنسانية ولكن لظروف الحرب.

وقد تم تغـيير صـيغة وعـد بلفور من النص على «فلسطين بـوصفهـا الوطن القومى للشـعب اليهـودى» كمـا أراد وايزمـان إلى صيـغة «وطن قـومى فى فلسطين» مع عـدم المساس بحقوق غير اليهود فى فلسطين.

ومن هنا يمكن القـول بأن وعد بلفور يرفض حـقوق اليهـود فى فلسطين، وهذا هو رأى «أحد عام» صـديق وايزمان وزعيم الصـهيونية الروحـية. وكان «أحد عـام» واسمه «أشير جنـسبرج» Asher Ginsberg الزعـيم الروحى للصـهيـونية، بـينما كـان هرتزل فيلسوفـها، وحاييم وايزمان مـحركها السـياسى، وقد أطلق على نفسـه لقب «أحد عام» بمعنى أنه واحد من عامة الناس، وهو صاحب فكرة إنشاء الجامعة العبرية فى القدس عام ١٩٢٥. وكان «أحـد عام» يولى اهتـماماً كـبيـرا للنهوض الثقـافى اليهـودى والإصلاح الفكرى.

ومن هنا فـإن وعد بلفـور فى صيـاغـته النهـائية لم يكن «شـيكاً على بيـاض» ولكنه «ائتمان مشروط» يمنح «وطنا قوميا» لا «دولة سياسية».

وقد أكد ناحوم سوكولوف فى مقدمة كتابه «تاريخ الصهيونية» الصادر عام ١٩١٩ فى لندن أن «الدولة اليهودية لم تكن فى برنامج الصهيونية»[(١)] . بل إن لورد بلفور نفسه فسر عبارة «وطن قومى» بأنها مركز روحى ثقافى.

ولهذا فقد كان المفهوم هو أن تكون فلسطين ملاذا لحماية اليهود المضطهدين، لا أن تكون دولة يهودية يسيطر فيها شعب على شعب آخر.

ولكن الصهيونية استغلت مأساة اليهود فى أوروبا لإنشاء دولة يهودية، رغم أن اليهود لم يكونوا وحدهم ضحايا الاضطهاد؛ حيث نشأت مشكلة النازحين فى نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد نزحوا من دول شتى مثل النمسا وألمانيا وبولندا والمجر ورومانيا ودول البلطيق، وكانوا من أتباع ديانات شتى حيث كان بينهم، كما يقول ليلنتال ، نحو ٥٠٠ ألف كاثوليكى و١٠٠ آلاف بروتستانتى و٢٢٦ ألف يهودى، وكان الرئيس الأمريكى روزفلت يرى ضرورة إسهام كل دول العالم الحر فى استيعاب اللاجئين، لكن الوكالة اليهودية رفضت هذا الاقتراح لأنه لا يتفق مع حق اليهود فى الهجرة وإنشاء دولة.

وكان تحليل روزفلت لرفض الصهيونية اقتراحه استيعاب اللاجئين اليهود فى دول العالم الحر يقوم على أن زعماء الصهيونية يجمعون المال بحجة توفير ملاذ لليهود البؤساء فى فلسطين، وإذا تحقق ضمان استيعابهم فى العالم فسوف يمتنع المانحون عن التبرع بالمال للصهيونية.

ولا شك أن قبول اللاجئين اليهود فى أمريكا ودول أخرى كان سيلغى ضرورة إنشاء دولة يهودية، غير أن الصهيونية استطاعت إحباط كل الخطط لاستيعاب اليهود فى مكان غير فلسطين؛ حيث منعت صدور قانون فى أمريكا يبيح هجرة اليهود إليها قبل إنشاء إسرائيل، وذلك لمنع اليهود من الفرار إلى إمريكا، وإرغامهم على الهجرة إلى فلسطين، ولكن الصهيونية سمحت بصدور قانون اللجوء فى أمريكا بعد قيام إسرائيل، وهذا يدل على النفوذ اليهودى القديم فى الولايات المتحدة.

بل إن المنظمات اليهودية الأمريكية طلبت الإعفاء من الضرائب للتبرعات للجماعات الإرهابية اليهودية فى فلسطين. وكان جوزيف بلدوين عضوا فى الكونجرس ومستشارا لعصابة «أرجون» وقد أكد لزعيمها مناحم بيجن أنه سيشرح موقفه فى أمريكا.

وكانت هناك قلة من الشخصيات اليهودية تعارض السياسة الصهيونية، ومن أبرزها

(١) ص ٢٤ من كتاب ليلنتال.

د. ماجنيس رئيس الجامعة العبرية فى فلسطين، الذى لم يكن يسعى إلى قوة سياسية، ولكن إلى حل مشكلة معقدة. فقد كان د. ماجنيس يدعو إلى إنشاء دولة ثنائية القومية دون تقسيم فلسطين، مع تحقيق مصالحة بين القوميتين. وكان يرى أن النهوض بالقدس لا يتحقق إلا بالتفاهم والتعاون بين العرب واليهود.

وكان ماجنيس يرى أن الصهيونية أدت إلى ازدياد العداء للسامية. وقد هاجم ماجنيس «الصهيونية الشمولية» التى تريد السيطرة على الشعب اليهودى بالبطش والعنف وذلك فى كلمته فى افتتاح السنة الثالثة والعشرين للجامعة العبرية. وبعد ذلك بفترة وجيزة توجه د. ماجنيس إلى الولايات المتحدة دون أن يتمكن من العودة إلى القدس، حيث منعته أسرته وأصدقاؤه مخافة أن يقتله الإرهاب الصهيونى، وقد مات وكأنه فى المنفى!.

وقد كان هناك فيلسوف يهودى هو مارتن بوبر يشعر بالتقدير لمشروعات هرتزل، لكن بوبر كان يرى أن الصهيونية لا يمكن تبريرها ما لم يقبلها العرب، وذلك لأن هذه الصهيونية أخطأت عندما وعدت اليهود «بأرض بلا شعب لشعب بلا أرض» كما يقول بوبر.

وكان أينشتاين وأحد عام وماجنيس - وهم شخصيات يهودية بارزة - يرون أنه من الخطأ إقامة دولة يهودية ما دام هناك عداء عربى يهودى.

ولهذا فإنه من الغريب أن تكون هناك تساؤلات اليوم عن شرعية قيام دولة فلسطينية، وكأن شرعية الدولة اليهودية أمر بديهى لا يحتاج إلى أى تساؤل، مع أن العكس هو الصحيح.

يضاف إلى ذلك أن الجمعية العامة للأمم المتحدة «أوصت فقط» بالتقسيم، ولم تقرر، ولم تأمر بتنفيذه. ولم يستطع د. ماجنيس أن يتحدث أمام الجمعية العامة ليشرح رأيه فى المسألة؛ لأن الوكالة اليهودية ادعت أنها المتحدث الوحيد باسم الشعب اليهودى أمام الأمم المتحدة.

ابن القَيِّم يشرح سبب تشتيت اليهود:

أشار العلامة ابن القيم فى كتابه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» إلى أن سبب تشتيت اليهود يرجع إلى قتلهم الأنبياء وكفرهم بالمسيح ومحمد عليهما السلام. وقال فى ذلك: «ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به فى سفال ونقص إلى أن قطعهم الله تعالى فى الأرض أممًا ومزقهم كل ممزق وسلبهم عزهم وملكهم، فلم يقم

لهم بعد ذلك ملك، إلى أن بعث الله تعالى محمدا ﷺ فكفروا به وكذبوه، فأتمَّ عليهم غضبه ودمَّرهم غاية التدمير وألزمهم ذلاً وصغاراً لا يُرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء فيستأصل شأفتهم ويطهر الأرض منهم»(١).

ثم قال ابن القيم: «فالغضب الأول بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثانى بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما».

وذكر ابن القيم أن اليهود ينتظرون قائما من ولد داود النبى زاعمين أنه المسيح الذى وُعدوا به، وهم فى الحقيقية إنما ينتظرون المسيح الدجال.

وأشار ابن القيم إلى أن الأمم الثلاث تنتظر مُنتظَراً يخرج آخر الزمان؛ فإنهم وُعدوا به فى كل ملة. وأوضح أن المسلمين ينتظرون نزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء، كما ينتظرون خروج المهدى من أهل بيت النبوة ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا.

وسخر ابن القيم مما يتصوره اليهود من أنه لا يظهر المُلكُ لله تعالى إلا إذا صارت الدولة لليهود، فأما ما دامت الدولة لغير اليهود فإنه سبحانه وتعالى «خامل الذكر» عند الأمم فيما يزعمون(٢)!!.

وقد تحدث ابن القيم عن مسألة هامة وهى **التبديل فى التوراة**، وهل كان فى التأويل دون التنزيل؟ وأشار إلى ثلاثة أقوال:

الأول: زعم أصحاب الرأى الأول أن التوراة كلها أو أكثرها قد بُدِّلَتْ وحُرِّفَتْ.

الثانى: قالت طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام: بل التبديل وقع فى التأويل لا فى التنزيل، وهذا مذهب الإمام البخارى، كما اختاره الرازى فى تفسيره.

وقد استند هؤلاء إلى قوله تعالى للنبى عليه السلام محتجا بالتوراة على اليهود: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] فلو كانت محرفة لما اعتبرت حجة فى رأى هؤلاء:

الثالث: وهناك طائفة ثالثة توسطت فقالت: قد زيد فيها ألفاظ يسيرة ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه، والتبديل فى يسير منها جدا. وذلك رأى ابن تيمية.

ونستطيع أن نشير هنا إلى رأى حديث جدا للمؤرخ الإسرائيلى زئيف شترنيل الذى قال إن حياة اليهود فى الشتات جعلت كل يهودى يفسر اليهودية كما يحلو له، حيث

---

(١) ص ٦٤٥ من كتاب «إغاثة اللهفان» دار ابن زيدون بيروت.

(٢) ص ٦٦٢ من كتاب «إغاثة اللهفان».

إن اليهود عاشوا فيما يشبه الفوضى ولم تكن لهم دولة، ولهذا فإنهم كما يرى شترنيل لا يستطيعون التكيف مع الديمقراطية، و حذر شترنيل من احتمال عودة الإسرائيليين إلى حالة الفوضى. وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل بعد مرور خمسين عاما على إنشاء دولة يهودية على أن اليهود لا يحسنون إدارة الدول حتى ولو أنشأوها.

وقد ألفَ اليهود طوال تاريخهم حياة الترحال لأنهم كانوا فى الأصل من البدو، وحتى بعد إنشاء دولتهم الحديثة فإنهم يحبون الترحال فى المكان «ويتمثل ذلك فى السياحة»، والترحال فى الزمان «وهو حب الآثار»؛ فكأنهم لم يفارقوا حالة الترحال التى طُبعوا عليها رغم استقرارهم الظاهرى فى دولة عصرية.

وفى التاريخ اليهودى تيار قوى ظل يعارض إنشاء دولة لليهود، ومن أبرز شخصيات هذا التيار أولئك الحسيديون الأتقياء المعادون للصهيونية، والتيار الحسيدى كان قديما فى تاريخ اليهود، وهو يعنى بالعبادة والزهد، وقد جدد هذه النزعة الصوفية اليهودية إسرائيل بين إليعازر، المعروف باسم «بعل شم توف» الذى عاش من ١٧٠٠ إلى ١٧٦٠.

وكلمة «بعل شم» معناها «صاحب اسم»، وهى بنطقها العبرى قريبة من العربية فيما عدا حرف السين الذى ينطق شينا فى «شم» أى «اسم»، وقد ظهر «بعل شم» فى أول الأمر بوصفه من «أصحاب الأسماء» وهم هؤلاء الذين يعرفون اسما خفيا لله تعالى ينطوى على قوة مؤثرة، ويمكن عند ذكر هذا الاسم شفاء المرضى، وهى صورة من السحر استوعبها الدين كما يقول الفيلسوف اليهودى مارتن بوبر فى مقدمة كتاب «الروايات الحسيدية» التى جمعها بالألمانية[1]. وتدور وقائع هذه الروايات فى أوروبا الشرقية التى كان يقيم فيها كثير من اليهود فى ذلك الحين.

وكان من أتباعه مناحم مندل الذى نقل حركة الحسيديم إلى فلسطين التى هاجر إليها مع ٣٠٠ من الحسيديم عام ١٧٧٧، حيث أقام فى صفد «مدينة القباليين القديمة» ثم فى طبرية.

وقد أشار مارتن بوبر إلى أن الأرض المقدسة كانت وظلت تحتل مكانتها فى قلب تيار الحسيديم منذ عهد بعل شم الذى تقول الأسطورة إنه ارتد على أعقابه بعد أن أراد التوجه إلى فلسطين.

---

(١) ص ١٥ من كتاب «الروايات الحسيدية» فى ترجمته الفرنسية عن الألمانية Les Recits Hassidiques.

«رحلة لم تتم»(١)

تقول الأسطورة إن بعل شم رحل مع ابنتـه أوديل والربى زيفى الكـاتب فى اتجـاه الأرض المقدسة لتعجيل ساعـة الخلاص. لكن السماء كانت تعارض هذه الرحلة، ولهذا فإن السفينة التى استقلها الثلاثة فى اتجاه «أرض إسرائيل» توقفت قرب جزيرة مجهولة. وهنالك نزل المسـافرون الثـلاثة إلى البر، ولما أرادوا الـعودة الى السـفينة ضلوا طريقـهم ووقعوا فى أيدى اللصوص. وعندئذ سأل زيفى أسـتاذه بعل شم: «لماذا تظل صامتا؟ ألا تنطق الكلمـات التى تعرفـها لكى نعود أحـراراً؟» ولكن بعل شـم أجابه: «إنـنى لم أعد أعلم شيئا»، وسأل تلميذه أن يذكره بالأمور التى علّمه إياها، ولكن التلميذ كان قد نسى أيضا كل شىء ما عـدا حروف الأبجدية التى أخذ يرددها أمـام شيخه الذى كان يلقـيها بطريقته حتى يتخلص من المأزق الذى وقع فيه. وقد أنقذهم إيليا كما قال بعل شم، لكنه أدرك أن الرحلة لن تتم، فعاد أدراجه مع ابنته وتلميذه.

ولا شك فى أن لهذه الرواية مغزى رمزيا وهو أن الشوق إلى عالم الروح «الذى يرمز له بالأرض المقدسة» لا يمكن أن يتـحقق فى العالم المادى، ولهذا فقـد وقع الثلاثة بمجرد نزولهم إلى البر فى قبـضة اللصوص ولم يتم إنقاذهم إلا بطريقة روحيـة. وقد انغمست الصهيونية فى النزعة المادية وظنت أنها ستحقق لليهود السعادة ولكنها أوقعتهم فى مأزق الصراع مع العرب والمسلمين.

ولهذا فإن السياسة الإسرائيلية تعـانى من تخبط شديد، فلا تستطيع أن تعرف لدولتها حـدوداً ولا دستـوراً ولا مبـادئ يمكن الرجـوع إليهـا.. فـهى دولة فى حالة أقـرب إلى الفوضى؛ لأنها لا تستند إلى أساس روحى، ولا تطبق مبادئ التوراة، ويكفى أن نعلم أن هناك كيبوتزات فى إسرائيل متخصصـة فى تربية الخنازير رغم تحريمها فى اليهودية. كما أن التوراة تحرم النزعة العنصرية، ويتضح ذلك مما ورد فى الفصل ١٢ من سفر العدد عن حديث مريم وهارون ضد أخيهما موسى لـزواجه من امرأة حبشية وأن الرب قد غضب لذلك، فإذا بمريم برصاء كالثلج.

ومعنى ذلك أن التوراة «وهى الأسـفار الخمسة الأولى فى العهد القـديم» تحرم النزعة العنصـرية؛ حيث عـاقبت مـريم أخت مـوسى وهارون لأنها عـابت على زوجة مـوسى سوادها، فعوقـبت بشدة البياض وهو البرص. فإذا نظرنا اليـوم إلى حال الدولة اليهودية وجدنا أن العنصرية فيها بلغت مبلغاً لا مزيد عليه ضد العرب، بل إن هناك عنصرية ضد اليهود الشرقيـين وضد اليهود السود حتى إن يهوديا إثيوبيـا قال: «لقد تعلمتُ العنصرية فى إسرائيل».

***

(١) ص١٣٥ من المرجع السابق.

الباب الثالث

حـــق البقاء

Le droit à survivre

صـدر فى بـاريس عـام ١٩٩٣ كـتــاب عنوانه «الأخـلاق والسـيـاسـة فى الدولة اليهودية»(١) تحت إشراف إيلان جريلسامر أستاذ العلوم السياسية فى جامعة «بار إيلان» وهو إسـرائيلى قضى سنوات شبابه في باريس. ويضم الـكتاب آراء شـخصيـات بارزة تتـحدث عن الأخـلاق والسـيـاسـة كلٌ من وجـهة نظره الخـاصـة وذلك فى مقـالات أو أحـاديث، ومن هؤلاء البروفـسور ليـبوفـيـتز الذى رفض جـائزة إسرائيل عـام ١٩٩٣، والحاخـام ليون أشكنـازى، والكاتب ألف بيت يوشواع، ويائيـر تساباز، وأليس شـالفى وهى من دعاة حقوق المرأة.

وقد تـناول ألف بيت يوشواع وهو كـاتب روائى وأستـاذ للأدب المقارن فـى جامـعة حيـفا في الفصل الأول مـن هذا الكتاب مسـألة الحق الذى يستند إليـه اليهود فى إقـامة دولتـهم فـى فلسطين، وهل هو حق ديـنى أم حق تاريخى؟ وانتـــهى إلى أن الحق الذى يمكن الاستناد إليه هو «حق البقاء» لشعب معرَّض لخطر الفناء(٢).

وقد حـاول يوشواع مناقشـة الحق التاريخى المزعـوم للشعب اليهـودى فى فلسطين، ولكنه تناول فى البداية ادعاء الـيهود السيادة بفضل شـرائهم الأراضى من الفلسطينيين، فأوضح أن اليـهود اشتـروا مساحـات محدودة جـدا من الأرض، وأن الشراء نفسـه قد يعطى الحق فى استـغلال قطعة مـن الأرض، لكنه لا يلغى السيادة عليـها، وضرب مـثلا على ذلك بأنه لو افترضنا أن بعض الأثرياء العرب قاموا بشراء كل المنازل والأراضى فى لندن، فإن الشعب البـريطانى سيحتفظ رغم ذلك بحـقه فى هذه المدينة لأنها وطنه الذى يمارس سيادته عليه.

---

(1) Morale Et Politique dans L' état Juif, Dirigé Par Ilan Greilsamer, éd. Autrement, Série Monde, 1993 Paris

(٢) ص ٩٣ من المرجع السابق.

وأشار فى هذا السياق إلى أن شراء اليـهود الأراضى من العرب هو الذى دفع الحركة الصهيونية إلى فكرة إنشـاء الصندوق القومى اليهودى، الذى أوضح أن الأرض حتى لو أقيـمت عليها مـبان خاصـة تظل ملك الشعب الذى يستطيع تأجيرها لكـنه لا يستطيع التخلى عنهـا للغيـر، وهى فكرة أكدها التلمود الذى يحـظر أن يبيع اليهـودى أرضًا فى فلسطين إلى غيـر اليهود، وعليه إن فـعل ذلك أن يحاول استردادها منهم [الجـزء التاسع من تلمود أورشليم].

الوعد الإلهى:

لقد رفض الكاتب اليهودى فكرة «الوعد الإلهى» لليهـود بامتلاك فلسطين مشيرا إلى أنه من الغريب أن العلمانيـين يستندون إلى هذا الوعد رغم عدم تطبيقـهم تعاليم التوراة وكأنهم يختـارون ما يحلو لهم من هذه التـعاليم!! مع أن المبرر الـدينى يفرض على من يسـتندون إليه أن يطبـقوا الدين فى كل شـىء. كمـا يمكن للمتـدينين الاعتـراض على استناد العلمانيين إلى الوعد الإلهى.

يضاف إلى ذلك أن الوعد الإلهى المشـار إليه فى التوراة لا يمكن أن يلزم إلا المؤمنين بالتوراة، وليس له أى معنى أخلاقى عند أتباع الأديان الأخرى. ثم تساءل يوشواع قائلا: لماذا يتعين على المسلم قبول ذلك الوعد الإلهى لليهـود، ولا يتعين على اليهودى قبول ما فى القرآن؟

ويقول يوشواع : «إنه لأمر غريب أن يحاول اليهـود تعديل الفكر الدينى للمسيحيين والمسلمين لإقنـاعهم بالاعتـراف بحقنا الذى يستند إلى الوعـد الإلهى، إننا لا يمكن أن نفرض على أتباع الأديان الأخـرى الطريقة التى يجب عليهم أن يتصرفـوا بها لأن تقرير أمور دينهم يرجع إليـهم، إن فكرنا الدينى أمر يخصنا وفكرهـم الدينى أمـر يخصهم دون سواهم».

وخلاصة القول، كما يرى يوشواع – وهو من كبار شخصيات معسكر «الحمائم» فى إسرائيل – أن الاستناد إلى الوعـد الإلهى لتأسـيس الحق فى الأرض قد يكون له مـعنى عند الرجل المتـدين، لكنه يخلو من أى قـيمـة أخلاقـية بالنسبة لليـهودى غـير المتـدين، وليست له أى قيمة من باب أولـى عند غير اليهود، ولهذا فإن الحركة الصـهيونية لجأت إلى حجة «الحق التاريخى»، وقد وردت هذه الفكرة فى إعلان قيام إسرائيل الذى جاءت فيه عبارة «طبقًا لحقنا الطبيعى والتاريخى..».

وأوضح يوشواع أنه كـانت هناك ثلاثة مواقف أسـاسيـة بالنسبة لوضع غـير اليـهود بفلسطين:

١- يرى أصحاب هذا الرأى أن العرب فى فلسطين ليست لهم أى حقوق وطنية أو فردية. وتدافع عن هذا الرأى أقلية محدودة لكن عددها يزداد. ورغم ذلك فإن أصحاب هذا الرأى يعترفون دائما بأن العرب لم يطردوهم من فلسطين.

٢- للعرب حقوق فردية، وللشعب اليهودى حق تاريخى، وكان ذلك رأى الأغلبية الساحقة فى الحركة الصهيونية حتى الأربعينيات، وقد قام فكر الصهيونية على أن فلسطين ملك للشعب اليهودى، وأن دولته فيها ستكون ذات رموز يهودية، وأن «دولة إسرائيل ليست ملك مواطنيها فقط لكنها ملك الشعب اليهودى كله».

ويرى أصحاب هذا الاتجاه وهو السائد فى إسرائيل أن للسكان العرب الحق فى المساواة أمام القانون مثل سائر المواطنين، وأن لهم الحق فى أن يكونوا ناخبين ومنتخبين، وأن يمارسوا شعائر دينهم وأن يُحترَموا كأقلية، ولكن ليس لهم أى حق جماعى وطنى.

٣- أما أصحاب الاتجاه الثالث فإنهم يرون أن لليهود حقا تاريخيا فى كل أرض إسرائيل، وأن للعرب حقا طبيعيا وطنيا فى كل أرض إسرائيل، وأنه لا يمكن المصالحة بين هذين الحقين إلا بتقسيم البلاد.

ويتضح من المواقف الثلاثة أن الحق التاريخى يعتبر الأساس الأخلاقى لعودة اليهود إلى فلسطين لإنشاء حكومة ذات سيادة فيها. وكان الحق التاريخى ولا يزال حجر الزاوية فى الحجج التى تستند إليها الصهيونية لتبرير عودة اليهود إلى فلسطين، كما أن هذا الحق التاريخى هو الحجة الرئيسية حتى اليوم فى أى نقاش حول حق الشعب اليهودى فى ملكية الضفة الغربية وقطاع غزة.

الحق التاريخى:

لقد فند الكاتب اليهودى يوشواع فكرة استناد اليهود إلى الحق التاريخى فى فلسطين بوصفه مبررا أخلاقيا يتيح لهم إنشاء دولة فيها، وأشار إلى أن زعماء الصهيونية وفى مقدمتهم موشى شاريت عندما كانوا يتحدثون فى المحافل الدولية عن الحق التاريخى كانوا يتلقون هذا الرد:

«تصوروا أن كل شعوب العالم بدأت فى الاستناد إلى مثل هذه الحجة، ألن يؤدى ذلك إلى قلب أوضاع العالم كله رأسًا على عقب وإلى نقل السكان من مواطنهم وإلى تغيير الحدود؟ وإذا بادر كل شعب إلى الحديث عن حقه التاريخى فى الأرض التى عاش فيها أجداده حينا من الدهر منذ آلاف السنين مطالبا بحقه اليوم فيها فإن ذلك سيؤدى

إلى فوضى شاملة. فكيف يمكن قبول مثل هذه الحجة؟!.وكان الرد الصهيونى الغريب هو أن أحدا غيز اليهود لم يستند إلى هذه الحجة فلا داعى للخوف.

ويرى يوشواع أن صياغة الحق التاريخى تتطلب شرطين على المستوى الأخلاقى:

١- أن يثبت الشعب أنه حقًا المالك الحقيقى الوحيد والأصيل لهذه الأرض، وأنه لم ينتزعها من شعب آخر بالقوة.

٢- أن يثبت هذا الشعب أنه أرغم على مغادرة وطنه رغم أنفه، وأنه لم يترك أرضه باختياره، وأنه كان عاجزا عن العودة إليها بعد فترة معقولة.

وقد أشار يوشواع بالنسبة للشرط الأول إلى أن الشعب اليهودى لم يكن المالك الأول لأرض فلسطين، وأنه دخلها فاتحا، ثم فتحها العرب بعد ذلك، ولهذا فإن اليهود يعتبرون بمثابة اللص الأول الذى سرق الأرض من صاحبها الأصيل، أما العرب فإنهم بمثابة من استولى على الأرض من ذلك اللص.. وقال «إن السارق الأول ليس له مزية على السارق الثانى، بل إن خطأ الأول أكبر لأنه سرق البيت من مالكه الحقيقى، أما الثانى فيصدق عليه المثل القائل «من يسرق لصا ليس مجرما» Celui qui vole un voleur n'est pas coupable.

ثم تساءل يوشواع: ألا يؤكد الشعب اليهودى أنه استولى على البلاد من شعوب أخرى وأن حقه التاريخى نابع من هذا الاستيلاء؟ وأوضح أن الحق التاريخى لا يصلح كمبدأ فى العلاقات بين الأمم.

ويرى يوشواع أن الشرط الثانى لصياغة الحق التاريخى يضع الشعب اليهودى فى موقف أصعب، وذلك لأن التاريخ يكشف لنا عن حقيقة قاسية بالنسبة لعلاقة الشعب اليهودى بأرض إسرائيل وهى أن اليهود لم يطردوا بالقوة، بل إن نصف الشعب اليهودى اختار الهجرة بمحض اختياره فى عصر الهيكل الثانى.

والأهم من ذلك أن اليهود لم يبذلوا أى جهد حقيقى خلال سنوات طويلة للعودة إلى فلسطين بصورة جماعية أو فردية حتى عندما كان ذلك متاحا، يضاف إلى ذلك أن السكان غير اليهود فى فلسطين ليسوا هم الرومان الذين دمروا الهيكل، ولكنهم أناس وصلوا إلى هذه الأرض وهى مقفرة، كما أن بعضهم يقيم فيها منذ عصور سحيقة.

بل إن الدليل الحاسم، كما يقول يوشواع، على أن الشعب اليهودى تردد وما زال يتردد فى العودة إلى فلسطين، يتجلى فى السنوات المائة الأخيرة، وذلك أنه رغم الموجات المدمرة من العداء للسامية، ورغم الإبادة النازية وقيام دولة إسرائيل التى تفتح

أبوابها لكل اليهود، فإن الدولة اليهودية لا يقيم فيها إلا نسبة ٢٠٪ من الشعب اليهودى.

حق البقاء:

ناقش يوشواع هذه المسألة من وجهة نظر أخلاقية لا سياسية حيث قال: «منذ بدايات الصهيونية والعالم العربى كله يوجه إلينا هذا السؤال: بأى حق أتيتم إلى هنا للاستيلاء على بلادنا أو على جزء منها؟. والواقع أنه حتى العرب الذين يعترفون اليوم بوجودنا والمستعدين للحياة معنا فى سلام يعترفون بواقع وجودنا هنا وليس بحقنا فى الوجود هنا. وإننى أرى أنه سيظل هناك نقصٌ ما فى عملية السلام طالما ظلت تستند فقط إلى الاعتراف بالأمر الواقع وليس إلى الاعتراف بما هو عادل».

ويقول يوشواع أيضا فى تفنيده لسائر الحجج التى استندت إليها الصهيونية ليصل إلى رأيه فى ضرورة الاستناد إلى حق البقاء:

«.. إننى لواثق من أننى إذا رويت تاريخ الصهيونية والصراع مع العرب لشعوب بعيدة، وإذا عرضت الصراع العربى الإسرائيلى كنظام للعلاقات بين شخصين يطلبان حكما نزيها حسب قواعد العدل، فإن المرجح أن كل الحجج التى تقوم على الحق التاريخى والحق الدينى ووعد بلفور وإصلاح الأراضى الصحراوية سترفض باعتبارها غير كافية».

ثم شرح يوشواع فكرته على المستوى الفردى، حيث افترض أن هناك إنسانا يتعرض لخطر شديد، فاقتحم مسكنا واستولى على جزء منه وأقام فيه ليحمى نفسه من الموت، وأوضح أنه لا يحق لصاحب البيت طرده طالما أنه استولى على جزء من البيت وليس على البيت كله.

ثم نقل يوشواع هذه الفكرة ليطبقها على مستوى الشعوب، فأشار إلى أن الوعى القومى بدأ يتكون فى العصر الحديث منذ «ربيع الشعوب» عام ١٨٤٨ بحيث أصبح إطار السيادة المستقلة أحد شروط وجود الشعوب. وكلما نالت شعوب جديدة السيادة وأعلنت استقلالها أصبح من الضرورى أن تحصل الشعوب المحرومة من السيادة على الاستقلال. لقد كانت الشعوب تستطيع التخلى عن إطار سياسى مستقل عندما كانت تتعايش فى إمبراطوريات كبرى تضم شعوبا مختلفة لكنها تخضع جميعا للسلطة الملكية أو لسلطة الكنيسة. ولكن عندما أصبحت الدولة هى العامل السياسى الذى يكفل الوحدة والتنظيم لشعب بعينه، فإن الشعوب رأت أنها مضطرة للسعى إلى حقها فى تقرير المصير لأن وجودها نفسه مرهون بذلك.

وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان لا يزال هناك شعبان أو ثلاثة شعوب فى وضع خطير؛ لأنها لم تكن محرومة من السيادة فحسب بل كانت محرومة من الوطن. وهذه الشعوب هى الأرمن والغجر واليهود الذين هاموا على وجوههم فى العالم طوال مئات السنين دون أن يكون لهم وطن.

ولا شك أن بعض المسئولية عن ذلك - كما يقول يوشواع - يقع على هذه الشعوب نفسها، كما أن هناك مسئولية تاريخية للشعب اليهودى عن وجوده فى المنفى حيث رضى بهذا الوضع خاصة فى السنوات الثلاثين الأخيرة.

وخلاصة القول أن وضع شعب بغير وطن يصبح خطيرا جدا فى عالم الدول القومية اليوم. وينتهى يوشواع إلى صياغة رأيه فى عبارة وجودية ذات طابع عام قائلا :«إن شعبا بغير وطن يحق له الاستيلاء ولو بالقوة على جزء من وطن شعب آخر ليقيم فيه سيادته».

ويرد يوشواع على العرب القائلين إنهم غير مسئولين عن وضع اليهود، فيدعى أن وضع اليهود مسئولية العالم كله، ولا يستطيع العرب وهم جزء من العالم منع إنسان معرض للموت من الدخول عندهم.

ثم يسوق يوشواع ردين على العرب إذا طلبوا من اليهود الاندماج فى الشعوب بدلا من الاستيلاء على الأرض العربية قائلا :

«١- هناك أولاً رد أخلاقى عام وهو أن مطالبة إنسان بالتخلى عن هويته يعنى موته ولو روحيا على الأقل.

٢- هناك رد تاريخى - وهو أفضل - ويتمثل فى أن بعض اليهود حاولوا الاندماج فى الشعوب ورغم ذلك فقد ألقى بهم فى الأفران».

ولكن يوشواع يحذر الإسرائيليين من الرغبة فى الاستيلاء على فلسطين كلها مثلما يريد دعاة إسرائيل الكبرى، ويقول فى ذلك «إن أساس الحق هو السيطرة على جزء من وطن، ولكننا إذا حاولنا النجاة من وضع شعب بلا وطن بحرمان شعب آخر من وطنه فإن حقنا فى البقاء يتلاشى بين أيدينا».

ويرد يوشواع على من يحملون الفلسطينيين المسئولية لرفضهم قرار التقسيم عام ١٩٤٧ فيقول :«إن رفض الفلسطينيين قرار التقسيم عام ١٩٤٧ وحربهم الشرسة ضدنا لا يمكن أن يلغى حقهم فى العودة واقتسام أرض إسرائيل الغربية وفق حدود ١٩٤٧ - ١٩٦٧.. وذلك مثلما أن رفض الشعب اليهودى العودة إلى أرض إسرائيل طوال مئات

السنين فى المنفى لم يلغ حقه فى العودة فى عصرنا هذا طبقا لحق البقاء، وهناك من يقول إن هزيمة شعب يعنى ضياع حقه فى أرضه، وذلك رأى بالغ السخف؛ ذلك لأن ألمانيا أشعلت حربا عالمية ولم تفقد الحق فى أرضها، بل إن الشعب اليهودى لم يطالب قط رغم معاناته على أيدى الألمان بإلغاء كيان ألمانيا وتقسيمها بين الشعوب».

وأشار يوشواع إلى أن البعض مثل دعاة إسرائيل الكبرى قد يدعى أن «أرض إسرائيل» تقع على ضفتى نهر الأردن وهى «كل الأرض» وأن إسرائيل استولت على الجزء الغربى فقط، أى إلى الغرب من نهر الأردن. ولكن يوشواع يرى أن «الكل» هو «إسرائيل الغربية» أى فلسطين دون أن تشمل شرق الأردن، وأن «إسرائيل الغربية» هذه هى التى يجب اقتسامها مع الفلسطينيين.

وأوضح يوشواع ضرورة الاعتراف بالشعب الفلسطينى الذى يمتلك أرضا مشتركة ولغة وتاريخا وقال :«إن العالم كله وأصدقاءنا المقربين يعترفون بالشعب الفلسطينى».

ولكن الغريب أن يوشواع يستند إلى حق البقاء للشعب اليهودى، مع أن اليهود لم يكتفوا بالبحث عن ملاذ فى فلسطين، ولكنهم شردوا الشعب الفلسطينى، وارتكبوا ضده جرائم كبرى، وحولوه إلى شعب من اللاجئين، وادعوا أن هؤلاء اللاجئين تركوا فلسطين باختيارهم عام ١٩٤٨ للعودة إليها مع الجيوش العربية وذبح اليهود، وهذا ما فنده «المؤرخون الجدد» فى إسرائيل وهم طائفة من المؤرخين تشكك فى الرواية الرسمية الإسرائيلية لتاريخ الصراع العربى الإسرائيلى، وتعتمد فى ذلك على الوثائق التى أمكن الاطلاع عليها، والغريب أيضا أن الحديث يدور عن شرعية دولة فلسطينية بينما يجب أن تكون التساؤلات عن شرعية دولة يهودية أولاً.

ويكفى أن يوشواع فند الحجج الأثيرة لدى الصهيونية عن «الوعد الإلهى» و«الحق التاريخى». وأما حديثه عن «حق البقاء» فإن العالم الإسلامى هو الذى كان يحمى اليهود فى دولته ويتيح لهم الحرية والازدهار، لكنهم انقلبوا عليه تحت تأثير الاستعمار وظنهم أن دولة العرب والمسلمين قد دالت ولن تقوم لها قائمة.. ولكن هيهات؛ فإن العرب يحتملون عدة هزائم، لكن هزيمة واحدة لإسرائيل سوف تكون الأولى والأخيرة كما يدرك ذلك الإسرائيليون.



الباب الرابع

الأمْنُ لِمَن؟

إذا كان الكاتب الإسرائيلى ألف. بيت يوشواع قد استند إلى «حق البقاء» لتبرير قيام دولة يهودية فى فلسطين، فإنه يعترف بأن القوة كانت الوسيلة لتنفيذ هذا «الحق»؛ لأن «الحق» وحده لا ينشىء واقعا، ولكنه فرق بين استخدام القوة دون حق واستخدامها استنادا إلى حق معين.

وأوضح يوشواع أن أحداً لا يستطيع إنكار أن الصهيونية لم تكن لتحقق أهدافها بدون استخدام القوة.. ولكن يظل التساؤل قائمًا عمًّا إذا كان لاستخدام القوة ما يبرره أم لا؟

وأشار يوشواع إلى أن رأى العرب منذ بداية الصهيونية حتى اليوم لم يتغير، وخلاصته أن الشعب اليهودى ليس له أى حق فى الحضور إلى فلسطين بصورة جماعية أو فردية؛ لأن هذه الأرض عربية، وهى وطن عربى، وللفلسطينيين فيها حق طبيعى وحق قومى، وهو حق شعب فى وطنه.

وإذا جاز لنا قبول رأى يوشواع فى حق البقاء من وجهة نظر إنسانية، فهل يجوز لمن يستولى على جزء من البيت هربًا من خطر الموت أن يخوِّل نفسه حقوق المالك الأصيل وأن يصبح هذا المالك الأول فى وضع ثانوى بحيث يحدد له الطارئ الجديد حدود الجزء الذى يقيم فيه من البيت الذى يراد له أن يتسع للجميع؟ أم أن حجة يوشواع لم تأت إلا فى السنوات الأخيرة لتكون مبرراً بأثر رجعى للصهيونية وذلك بعد أن بدأت تتكشف الحقائق أمام الرأى العام عن تاريخ قيام إسرائيل بفضل جهود «المؤرخين الجدد»؟ ويلاحظ فى هذا الصدد أن هذا «النقاش الأخلاقى» الذى يحلو للإسرائيليين أن يتحدثوا عنه وأن يقوموا بالنقد الذاتى لأنفسهم من خلاله إنما يستهدف تبرير أعمال غير أخلاقية وذلك بمجرد إثارة النقاش حولها من وجهة نظر «أخلاقية»، وبذلك يكسب الإسرائيليون على صعيدين: الأول: تبرير الجرائم التى ارتكبت وما زالت ترتكب ضد الشعب الفلسطينى الذى أرغم على الفرار من وطنه تحت وطأة المذابح.ومن أشهرها مذبحة دير ياسين التى أدت إلى فرار ٦٣٥ ألف عربى، كما أشار إلى ذلك ألفريد

ليلنتـال الذى قال إن مناحم بيـجن زعيم عـصابة «إرجـون» التى اقتـرفت هذه الجريـمة الشنعاء كان يعـتبر ذلك انتصارا، وأن لجنة شكلت لاستـقباله فى الولايات المتحـدة بعد قيام إسـرائيل وكان من أعضائهـا السناتور جون كنيدى الذى أصبح رئيسا فيـما بعد.. لكن كنيدى انسحب من تلك اللجنـة بعد أن علم بحقيقة ذلك الجـرم المروع الذى اقترفه بيجن وعصابته، وذكر ليلنتال أن بيجن كان عميلا سوفيتيا فى إسبانيا والصين قبل ذهابه إلى فلسطين.

الثـانى: أن هذا «النقاش الأخـلاقى» سيعطى انطباعـا أمام العـالم بأن الإسرائيليـين أصحـاب ضمائر يقظة، وأنهم يحـاسبون أنفـسهم ويمحـصون تاريخهم وأعـمالهم مما يوحى بأنهم «متحضرون» حقا، وأنهم إلى جانب ذلك أصحاب حرية فكرية تتيح التنوع فى الآراء، وهو أمـر يقدره الغـربيون حق قـدره.. وواضح أن كل ما يعنى إسـرائيل هو التلاعب بالرأى العام الغربى لتحقيق مصالحها كما تريد.

ولكن وراء ذلك «النقاش الأخلاقى» جانبا خفـيا وهو الرغبة فى السبق إلى إثارة هذا «النقد الذاتـى» لمنع الآخرين من توجيـه أى نقد لإسـرائيل طالما أن أبناءها من «المفكرين الأحرار» قد تكفَّـلوا بهذا النقد.. فما ضرورة أن يصدر النقد عن الآخرين؟

ومن الواضح أن الإسرائيليين يرفـضون أى نقد لهم يصدر عن غيـر اليهود، بل إنهم يضيـقون ذرعًا بالنقد الذى يصـدر عن «يهود الشتات» رغم ادعـائهم أن إسرائيل «دولة لكل اليهـود» مما يخول أى يهـودى فى العالم حق التعـبير عن رأيه فـيما يتـعلق بالدولة اليهودية.. لكن يهود إسـرائيل لا يقبلون ذلك بحجة أن يهود الشتات يعيـشون بعيدا عن أرض الواقع ولا يحملون السلاح للدفاع عن الأرض.

أما رفض النقـد من غير اليـهود، فإن ذلك يرجع إلى خـوف اليهود من تجـدد العداء للسامية إذا كثر النقد للسياسة الإسرائيلية.

ومما يدل على الـتناقض فى حـجـة يوشـواع بشـأن «حق البـقـاء» أن الإسـرائيليـين يتصرفـون وكأنهم المالك الأصيل لأرض فلسطين، ثم يلقون بعد ذلك بالفـتات للشعب الفلسطيـنى فى صـورة قطعـة من الأرض هنا أو هناك، كـمـا أن الجـنود الإسـرائيليـين يتصرفـون بمنطق قوات الاحتلال فى مواجهـة الفلسطينيين. وليس هناك أى شك فى أنه لولا الاحتلال البريطانى لمصر وهى أكبـر دولة عربية والانتداب على فلسطين لما استطاع اليهود إنشـاء دويلتهم.. وإن يوشواع ليدرك ذلك حـين يقول:«لو أن الحركة الصهـيونية

تأخرت عشرين أو ثلاثين عاما لما استطعنا الدخول هنا ولَمُنعنا من ذلك، ولكان للشعب اليهودى حينئذ الحق الأخلاقى فى الاستيلاء بالقوة على أى مكان آخر، ولكن ذلك الافتراض يبدو متهافتا وذلك لأنه إذا كانت هناك مصاعب كثيرة تعترض المحاولات لإقناع الشعب اليهودى بالعودة إلى أرض إسرائيل، فإن أى يهودى لم يكن ليهاجر إلى أوغندا ليقيم فيها دولته».

وواضح مما يقوله يوشواع أن كثيرا من اليهود يترددون حتى اليوم فى الهجرة إلى إسرائيل، مما يعد تفنيداً لحجج الصهيونية التى تحاول دائما الحديث عن اضطهاد اليهود فى العالم لتدفعهم للهجرة إلى إسرائيل. وقد هاجر فعلا مئات الآلاف من اليهود الروس إلى الدولة اليهودية، ولكنهم فعلوا ذلك فى الغالب لأسباب اقتصادية مثل البحث عن فرص عمل أفضل أو للحياة فى جو ليبرالى باعتبار إسرائيل امتداداً للغرب. وقد أشارت الأنباء مؤخرا إلى أن حاخاما يهوديا انتقد اليهود الروس، بل قال إنهم لا تربطهم أى علاقة باليهودية حيث يأكلون الخنزير وهو محرم فى اليهودية. إذن فما جدوى هؤلاء المهاجرين الروس؟ لا شىء سوى تكثير سواد غير العرب فى إسرائيل خوفًا من انهيار النظرية الصهيونية إذا أصبح اليهود أقلية فى دولتهم.

والطريف أن إسرائيل اكتشفت أن بين المهاجرين الروس نحو ألف مسلم، وهى لا تستطيع أن تفعل شيئا إزاء ذلك. ومشكلة اليهود الذين رفضوا قيام دولة ديمقراطية عربية يهودية أنهم يجهلون أنه من المستحيل أن توجد دولة كل مواطنيها مسلمون فقط أو مسيحيون فقط أو يهود فقط وأن مثل هذه الدولة ستكون بمثابة «جيتو» معزول فى هذه المنطقة. وهنا تتضح عظمة الإسلام وعالميته مرة أخرى لأنه تعايش مع أصحاب الأديان الأخرى وكفل لهم الحرية، وهذا هو المغزى الحقيقى لعالميته. وهو أنه يحمى الآخرين ولا يفرض عقائده عليهم؛ لأنه يعلم أن مسائل العقيدة لا تكون إلا عن اقتناع ولا يجوز فيها أى إكراه.. ﴿لا إكراه فى الدين﴾ ولم نسمع فى التاريخ الإسلامى كله أن دولة إسلامية أرادت أن يكون كل مواطنيها من المسلمين فقط مع نبذ الآخرين.

ونعود إلى أسلوب معاملة الإسرائيليين للفلسطينيين.. حيث تحدث إيلان جريلسامر أستاذ العلوم السياسية فى جامعة «بار إيلان» فى بحث طويل من نحو ٧٠ صفحة فى تمهيد لكتاب «الأخلاق والسياسة فى الدولة اليهودية» الذى أشرف عليه جريلسامر نفسه عن مسألة وجود إجماع أخلاقى فى إسرائيل على ثلاثة أمور:

١ - لدولة إسرائيل حق أخلاقى مطلق فى الوجود كدولة للشعب اليهودى.

٢- هذا الحق غير قابل للنقاش وله الأسبقية على أى حق آخر.

٣- الحق فى الوجود يجب أن تكفله ترتيبات للأمن توفر له ضمانا مطلقا ضد أى عدوان.

وأشار إيلان جريلسامر إلى أن اليسار الصهيونى يدعو إلى الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية وإنهاء الاحتلال، وأن بعض عناصره مستعدون للاعتراف بدولة فلسطينية بشرط عدم المساس بحق إسرائيل، ولكن هذا اليسار يعارض عودة اللاجئين الفلسطينيين منذ عام ١٩٤٨ أو جمع الأسر؛ لأن ذلك يعرِّض إسرائيل للخطر.

وهنا يتضح التناقض فى فكرة «حق البقاء» التى استند إليها يوشواع وأباح بناءً عليها لليهود الاستيلاء على أى أرض إذا كانوا عرضة للخطر.. ولكن تعريض الشعب الفلسطينى كله لخطر التشريد والحصار والحرمان من أبسط حقوقه الإنسانية لا يتناقض مع هذا الحق فى البقاء!.

ونعود إلى جريلسامر الذى قال إن موقف اليسار الإسرائيلى واضح وهو أنه لا يمكن المساواة «على مستوى الشرعية» بين حقوق الإسرائيليين وحقوق الفلسطينيين، بل إن الجميع متفقون على هدف «الأمن المطلق» لإسرائيل ضد أى عدوان إذا أمكن توفير مثل هذا الأمن المطلق، كما أن خطط السلام لبعض «الحمائم» الإسرائيليين تبدو أحيانا أكثر تشددا من خطط اليمين.

ثم تحدث جريلسامر عن وجود تصورين للأمن: أحدهما لليمين، والثانى لليسار؛ حيث أن اليمين الإسرائيلى لديه تصور أيديولوجى وتاريخى ودينى للسلام القادم، وتسيطر عليه غالبا الرغبة فى الاحتفاظ بكل أرض إسرائيل ولو كان ذلك على حساب اعتبارات الأمن.

أما تصور اليسار الصهيونى فإنه يولى اهتمامه لمشكلة الأمن، ويجعل ذلك فوق أى اعتبار ايديولوجى، ويلاحظ أن معظم القادة العسكريين والاستراتيجيين ينتمون لتيار يسار الوسط فى الساحة السياسية، ولهذا فإن عدد الجنرالات والضباط المتقاعدين فى حزب العمل والتنظيمات اليسارية أكثر بكثير من عددهم فى الليكود والأحزاب القومية. وإذا كان شارون عضواً فى «الليكود» ورفائيل إيتان عضوا فى «تسوميت» فإن هناك عشرات من كبار الضباط فى الأحزاب التى تدعو إلى تقديم تنازلات إقليمية، ولهذا فإن المسائل الاستراتيجية لها الأهمية الأولى عند اليسار واليسار المتطرف. ومن

هنا فإن اليسار لا يتحدث أبداً عن انسحاب تام من الجولان أو من مواقع استراتيجية على نهر الأردن.

ويقول جريلسامر إن هناك إجماعا سياسيا وأخلاقيا على عدم الاعتماد في مسألة الأمن على وعود القوى الكبرى، أو أي ضمانات دولية، أو على قوات الأمم المتحدة، أو اتفاقيات مكتوبة. ويدّعي جريلسامر أن هذه المواقف المتشددة يمكن قبولها «أخلاقيا» لأن المناطق التي تريد إسرائيل الاحتفاظ بها مثل الجزء الأكبر من الجولان أو وادي الأردن يقيم فيها قليل من العرب مما يدل على أن المسألة لا علاقة لها بالقهر والاستعمار حسب زعمه.

كما يشير جريلسامر إلى أن جميع الإسرائيليين متفقون على أن جميع الشعوب بما فيها العرب مسئولون عن اضطهاد اليهود وإبادتهم وأوضح أن ذلك موقف يثير العرب ولا يفهمه الأوروبيون.

وتحدث جريلسامر أيضًا عن وجود تصورين لمفهوم الأمن من الناحية العسكرية:

الأول: تصور الأمن على أساس عسكري واستراتيجي، ويرى أصحابه ضرورة الاحتفاظ بجيش قوي، وأفضل الأسلحة وسلاح نووي إذا لزم الأمر، وحدود طبيعية، ونزع سلاح العدو، ومناطق عازلة منزوعة السلاح. ولا شك أن الوضع الجيوستراتيجي لإسرائيل جعل أصحاب هذا التصور الأول للأمن يدعون إلى الاحتفاظ بالأرض لتكون حدودا طبيعية.. ولم يتأثر أصحاب هذا الرأي بالتطور التقني والصواريخ العابرة للقارات في إصرارهم على التمسك بالأرض، كما أن هذا التصور العسكري للأمن منتشر بدرجات متفاوتة بين الإسرائيليين جميعا.

الثاني: أما التصور الآخر للأمن فإنه يقوم على حياة مشتركة مع العدو وإعطائه الحقوق الأساسية مما يمنع الميل إلى الصراع.. ويرى أصحابه أن تفوق إسرائيل العسكري ليس أبديا، وأن الهوة تضيق بين العرب واليهود في مجال التكنولوجيا.

وأشار جريلسامر في حديثه عن مسألة الأمن إلى أن: حزب العمل ظل متهما في نظر الإسرائيليين باقتراف ما يعتبر أكبر «خطأ أخلاقي» في تاريخ البلاد ألا وهو الإهمال الإجرامي الذي أتاح شن هجوم على البلاد في يوم كيبور ١٩٧٣ مما أدى إلى مقتل الآلاف من الجنود وتعريض البلاد لخطر حقيقي هو الفناء».

وأشار جريلسامر إلى وجود أربعة تيارات خارج «الإجماع الأخلاقى» حيث تختلف تصوراتها للخير والشر عن تصورات الأغلبية، وهى:

١- اليمين العنصرى المتطرف الذى يمقت العرب فى إسرائيل وخارج إسرائيل ويحلم بدولة تُستأصل منها الأقليات غير اليهودية لأنها «سرطان فى جسم الأمة»، وقد جسد مئير كاهانا هذا التيار فى حركته «كاخ» ومعناها «هكذا فقط» أى «بالقوة فقط» حيث أن هذا اليمين هدفه طرد العرب وذلك بتخويفهم باستخدام القوة.

وبعد «كاخ» ظهر حزب «موليديت» والحل عنده طرد العرب. وهناك عدد كبير فى الليكود وتسوميت وجوش إيمونيم يرون أن كاهانا لم يكن على خطأ تماما وأن الطرد هو الحل طالما أن العرب يعادون اليهود، ورغم ذلك فإن طرد العرب بصورة جماعية ليس فى برنامجهم السياسى، كما أنهم لا يستخدمون أسلوب كاهانا العنصرى، وهنا أثار جريلسامر مسألة «الفرق بين ما يقال وما لا يقال» فأوضح أن كثيرا من الإسرائيليين يحلمون بطرد العرب لكنهم لا يجرؤون على إعلان ذلك.. والواقع أن الأفكار العنصرية التى عبر عنها كاهانا وحزب موليديت يشعر بها كثير من الإسرائيليين ولكن خطأ كاهانا وموليديت يكمن فى الحديث علنا عن هذه الأفكار.

وأوضح جريلسامر أنه كان هناك حديث منذ بداية الصهيونية عن تعايش ممكن بين العرب واليهود وعن مساواة تامة وديمقراطية، ولكن بن جوريون فرض بعد قيام إسرائيل قيودا قاسية على العرب، ورغم ذلك فقد ظل الحديث من الناحية النظرية مستمرا عن المساواة.

٢- تيار يهودى يسارى متطرف معاد للصهيونية: وينكر هذا التيار أى مبرر فكرى أو أخلاقى لوجود دولة يهودية، وقد بدأ هذا التيار منذ نشأة الصهيونية، واعتنق رأى العرب القائلين بأن هجرة اليهود إلى فلسطين عمل عدوانى ضد الأمة العربية. وقد تجسد هذا التيار فى الحزب الشيوعى الذى أنشىء عام ١٩٢٢ وتغير اسمه مرارا، وكان آخر أسمائه حداش (الجبهة الديمقراطية للسلام). وهم يهود جاءوا إلى فلسطين بدافع مثالى، ولما عجزوا عن إنشاء الكوميونة الاشتراكية الكبرى تحولوا إلى العداء للصهيونية.. وهم يطالبون بزوال إسرائيل وإنشاء دولة عربية فلسطينية قد تكون فيها أقلية يهودية. وقد اعترف هؤلاء الشيوعيون بإسرائيل عام ١٩٤٨، لكنهم طالبوا بإنشاء دولة فلسطينية. ولا يتجاوز عدد الشيوعيين فى إسرائيل بضع مئات لكن احتجاجهم الأخلاقى قد تجلى

تأثيره فيمن يرفضون أداء الخدمة العسكرية ويحتجون على وجود الجيش فى الأراضى المحتلة.

٣- يهود متدينون يلتفون حول جماعة القدس وطائفة «نيتورى كارتا» أى «حراس المدينة»، وهم يرون أن إسرائيل ظاهرة شريرة وثمرة لمؤامرة شيطانية ضد الله وشعبه، بل هى عبادة للأصنام.

والمعروف أن الحاخامات كانوا ضد الصهيونية منذ ظهورها لاعتقادهم أن الله وحده هو الذى سيأتى بيوم الخلاص، وأنه محظور على اليهود التعجيل بالتحرر السياسى ومحاولة استعادة سيادتهم السياسية، وكان الحاخامات يرون أن على اليهود البقاء فى المنفى وتطبيق التعاليم الإلهية، وفسروا عبارة «لا توقظ الحب قبل أن يستيقظ» التى وردت فى «نشيد الأنشاد» بأنها تعنى «لا تحاولوا إنشاء دولة يهودية قبل أن يأذن الله بأن ساعة الوعد قد حانت». ومن هنا فإن هذا التيار الدينى يرى أن الصهيونية التى قامت بالسعى إلى التعجيل بإنشاء دولة يهودية مستعينة فى ذلك بالعمل الإنسانى تعد تمردا حقيقيا على التوراة وعلى الله.

وقد أنشأ الحاخامات المعادون للصهيونية حزب «أجودات إسرائيل» عام ١٩١٢، ولكن بعد قيام إسرائيل أيد اليهود المتدينون الدولة اليهودية وأصبح «أجودات إسرائيل» حزبا فى النظام ولكن دون أن يصبح صهيونيا. وقد اتهم اليهود المتدينون الذين يرفضون إسرائيل أعضاء هذا الحزب بأنهم خونة.

بقى أن أعضاء «نيتورى كارتا» يرفضون استخدام مرافق الدولة ويرون أن التعاون مع أعداء إسرائيل أفضل.

٤- الكنعانيون: وهم مجموعة صغيرة من الكتاب والفنانين تلتف حول الشاعر يوناثان راتوش.. ويرى هؤلاء أن الشرق الأوسط كله سامى، وأن إسرائيل يجب أن تتخلص من يهوديتها ومن كل طابع يهودى، وأن تقطع كل صلاتها بيهود الشتات، وأن عليها أن تندمج تماما فى الشرق الأوسط السامى حتى يظهر الإنسان العبرى، وخلافا للتيارات الثلاثة الأولى فإن التيار الكنعانى لا ينطلق من أفكار أخلاقية، ولكنه يبنى آراءه على أساس فكرى بحت.. وقد انتقد أعداء التيار الكنعانى هذا التيار بحجة أنه يدير ظهره لإسرائيل بعد كل التضحيات التى أدت إلى ظهورها من جديد.



الباب الخامس

البروفسور ليبوفيتز

ووظيفة دولة إسرائيل

يرى دافيد هارتمان وهو من أكبر المفكرين الدينيين اليهود اليوم أن «الشعب الذى لا يتحد إلا بسبب الخوف هو شعب مريض ويصعب أن يكون له وجود مستمر، لكن الأمل فى المستقبل هو الذى يكفل للشعب وجوده».

ويقول هارتمان – وهو أستاذ فى الجامعة العبرية ومدير لمعهد «شالوم هارتمان» فى القدس، عن عزلة إسرائيل:

«كنا نأمل أن يحظى وجودنا ببعض القبول لدى العرب لكن ذلك لم يتحقق؛ إن عزلتنا عن جيراننا تخلق لدينا شعورا غريباً؛ وهو أننا رغم عودتنا وإنشاء كيان قوى نعيش فى غربة عانى منها اليهود طوال عهد الشتات».

ويشير هارتمان إلى حديث العرب عن إسرائيل بوصفها «العدو» واستخدامهم عبارة «الأراضى المحتلة» للإشارة إلى فلسطين التى أقيمت عليها إسرائيل، بالإضافة إلى الخطب فى المساجد، والكتب الدراسية، والأدب المعادى لليهود.

ويتحدث هارتمان عن تأثير الانتفاضة الفلسطينية فيقول: «إن الانتفاضة جعلت الإسرائيليين أكثر إدراكا لوجود وعى وطنى فلسطينى».

ويفصِّل هارتمان رأيه فى العلاقة بين الإسرائيليين والفلسطينيين قائلاً: «إن أمننا ومستقبلنا عرضة للخطر إذا لم نكترث برغبتهم فى تقرير مصيرهم. وهناك إمكانيتان:

١ – إما أن نعترف بتطلعاتهم.

٢ – وإما أن نحكم بالقوة والقهر أناساً معادين؛ وفى ذلك مساس بالمغزى الأخلاقى والدينى لنهضتنا الوطنية؛ وذلك لأننا لم نتصور قط شعبا يهوديا ينساق إلى إلغاء وإذلال شعب آخر.

وإذا ظل الفلسطينيون مشرَّدين فإننا سنشعر بالغربة فى وطننا؛ وذلك لأن قهر الفلسطينيين يعنى قطع الصلة بين تعاليمنا الروحية الموروثة وبين دولة إسرائيل المعاصرة.

وعلى العكس فإن إنشاء كيان سياسى للفلسطينيين قد يؤدى إلى تحول فى الاتجاه السلبى الهدام لدى كثير من الفلسطينيين ، أما مواصلة قهرهم فإنها ستؤدى إلى ازدياد رفضهم ومقتهم لإسرائيل».

ويرى دافيد هارتمان في مقال عنوانه: «التحدى الأخلاقى لإسرائيل» أن حرمة الحياة الإنسانية فى التوراة أهم من حرمة السبت، ثم يتساءل: «كيف يصبح الطابع الأخلاقى لشعبنا وميراثنا اليهودى إذا أخضعنا شعباً كهذا؟ وكيف يمكننا التزام السبت وفى الوقت نفسه ننسى أن الفلسطينيين مخلوقات إنسانية على صورة الله؟

وكيف نستطيع تنشئة أطفالنا على حب كل المخلوقات وفى الوقت نفسه نرفض الحرية السياسية والكرامة الوطنية لشعب بأسره؟.. إن التوارة لا تبدأ بتاريخ إبراهيم ولا بكفاح إسرائيل للخروج من مصر؛ وإنما بتاريخ خلق الله للحياة ، وإذا أقمنا حياتنا الوطنية على تجاهل المطالب الأخلاقية النابعة من إيماننا بالخلق الإلهى فإننا نسىء إساءة جوهرية إلى إيماننا بوحدانية الله؛ إله العهد والتاريخ» ويقول هارتمان: «إن التزامنا الكامل بحل صراعنا المأساوى مع الفلسطينيين سيكون أجمل تعبيرعن تمسكنا بتراثنا الذى سعى دائما إلى الجمع بين التضامن مع الإنسانية كلها وبين الامتنان لله الذى منحنا تراثنا اليهودى الخاص».

ونجد أننا مضطرون هنا للعودة إلى ألفريد ليلنتال الذى قال فى خاتمة باب عنوانه «الإسرائيلية – دين جديد» من كتابه «ماذا تساوى إسرائيل؟»:

«إن عبادة دولة إسرائيل تزاحم عبادة الله فى اليهودية المعاصرة».

ونقول: إن عنصرية الصهيونية التى ظهرت مع العرب لتظهر بصورة سافرة حتى مع اليهود؛ حيث قررت الوكالة اليهودية فى نوفمبر ١٩٥١ فرض قيود على هجرة اليهود إلى فلسطين بعد تدفق اليهود الشرقيين عليها، وهذه هى «الهجرة الانتقائية» مثل لعبة «حقوق الإنسان الانتقائية» التى يمارسها الغرب لخدمة مصالحه وليس لخدمة الإنسانية كما يدَّعون.

ويشير ليلنتال إلى إعلان الصهيونية عـام ١٩٤٨ عن محاكمات علنية ليهود المكسيك الذين يرفضون التبرع بالمال، ومعاقبة اليهـود غير الخاضعين للصهيونية، وإلى منع بعض اليهـود فى أوروجواى من دخـول المعابد اليـهودية لرفـضهم دفع نسبـة ٢٪ من ثرواتهم للصهيونية.

ويسخر ليلنتال من الصهيونية قائلاً: «الصهيونى هو يهودى يقدم مالاً إلى يهودى ثانٍ لإرسال يهودى ثالث إلى إسرائيل».

ويرى ألفـريد ليلنتـال أنه يجب على إسرائيل أن تنفـذ قرارات الأمم المتحـدة التى أنشأتها؛ وهى:

١- قيام اتحاد اقتصادى فى فلسطين.

٢- تدويل القدس وهى مدينة مقدسة فى الأديان الثلاثة.

٣- حل مشكلة اللاجئين حلا عادلا؛ لأن إسرائيل تتحمل المسئولية عن معاناتهم.

ومن الغريب أن الحاخام ليون أشكنـازى وهو ابن آخر حاخام للجزائر(١) وقد هاجر من فرنسـا إلى إسرائيل بعد حـرب عام ١٩٦٧ يدعى فى حديثـه عن «الهوية الأخلاقية لإسرائيل» أن الشعب اليهودى ظل طوال أكثر من ألفى سنة يرفض إنشاء دولة خوفا من التناقـض بين السـيـاسـة والأخـلاق. وأشكنازى هذا من المؤيـدين للاسـتـيطان رغم «أخلاقيته»، كما أنه يرى أن إسرائيـل أخطأت حين منحت الجنسية الإسرائـيلية للعرب الذين ظلوا فى إسرائيل، بل كان يمكن اعتبارهم مـواطنين فى دولة عربية أخرى يقيمون فى إسـرائيل، وهذا أمر وارد من وجـهـة نظر التوراة أن تكون لـهم الحقـوق البلدية دون الحق فى إنشاء كـيان وطنى داخل إسرائيل، ولا يكون لهم حق التصـويت فى الكنيست ولكن فى جمعية تمثلهم.

ويقول ليون أشكنازى: «ليس هناك بلد يمـنح الأقلية مثل هذا الوضع الكريم» ولكن يجب على الأقلية الاعـتـراف بأنها غريبة، وأن تكف عن اعـتبار أنها صاحـبة البلاد، وأن اليهـود هم الأجانب». وقـبل ذلك ذكر أشكنازى أن وضع الغريـب كما حـددته التوراة إيجابى جدا. كـما ادعى أن هناك أخلاقا يهـودية تتمثل فى «وحدة الـقيم»، وسوف نرى

---

(١) ليون أشكنازى هو ابن آخر حـاخام أكبر للجزائر فى ظل الاحـتلال الفرنسى، وقد هاجر ليـون بعد تحرير الجزائر إلى فرنسا ثم إلى إسرائيل.

فيما بعد أن البروفسور «يشاياهو ليبوفيتز» وهو من أهم الفلاسفة اليهود المعاصرين ينكر أن هناك شيئا اسمه «الأخلاق اليهودية».

وإنا لنعجب من حديث ليون أشكنازى - الذى كان مؤسسا لمركز الدراسات اليهودية فى باريس ويعتبره البعض أستاذاً لجيل من المثقفين اليهود - عن الأخلاق وهو ينكر حق العرب من أبناء فلسطين فى أرض فلسطين ويريد أن يعاملهم معاملة الغرباء فى وطنهم تطبيقاً لمبدأ فى التوراة! ويدعى أن هذه المعاملة التى يريدها للغرباء إيجابية جداً، هذا رغم اعترافه بأن الشعوب التى تعيش اليوم على أرض فلسطين ليست هى نفس الشعوب التى أقامت فى أرض كنعان منذ ٣٥٠٠ سنة، وأن قسوة التوراة مع تلك الشعوب القديمة كانت ترجع إلى أنها وثنية.

ولكن الأصولية اليهودية اليوم ما زالت تتصور أنها تتعامل مع وثنيين مثلما حدث قديما، رغم أن أعداءها اليوم هم المسلمون المؤمنون بالوحدانية كأنقى ما تكون، يضاف إلى ذلك أن بنى إسرائيل كانوا قديماً فى موقف الضعف ولكن الله كان يتدخل لحمايتهم لأنهم كانوا يومئذ مؤمنين ينشرون رسالة التوحيد، حتى أن فى التوراة آية تتحدث عن انتصارهم بفضل الله وحده حيث تقول: «لا بقوسك ولا بسيفك» مثلما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وإذا نظرنا إلى مغزى تاريخ بنى إسرائيل فى القرآن الكريم وجدناه يتجلى فى آيتين فى سورة «الأعراف» تلخصان هذا التاريخ فى أنه يتمثل فى الصبر والاستعانة بالله وعندئذ ينتصر المؤمنون، وذلك مثلما انتصر المسلمون فى غزوة بدر وهم قلة لكنهم كانوا على الحق وكان الحق معهم.

يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ثم يقول بعد ذلك: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

هذا هو حديث القرآن عن تاريخ بنى إسرائيل، وكله إنصاف للمتقين لا لِقَوْمِيَّة

بعينها ولا لشعب بعينه؛ فالقرآن الذى يتحدث عن تفضيل بنى إسرائيل على العالمين عندما حملوا رسالة التوحيد وساروا وراء الأنبياء حيث يقول: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧]. هو القرآن نفسه الذى يشير إلى اللعنة التى حلت باليهود عندما انحرفوا عن طريق الصواب وعبدوا الأصنام، بل إن أحد ملوكهم أقام بيتا لإله فينيقى اسمه «البعل» واتخذ مع زوجته أنبياء لهذا البعل، وهذا كله منصوص عليه فى التوراة، وقد تصدى لهذا الملك النبى إلياس، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى سورة «الصافات» حيث قال: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٦].

وقصة النبى إيلياس أو إيليا مع أنبياء البعل وتحديه لهم واردة بالتفصيل فى التوراة وقد نعود إليها فيما بعد. ولهذا قال تعالى فى سورة «المائدة» : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨].

وخلاصة القول أن تاريخ بنى إسرائيل قديما كان يقوم على أنهم مؤمنون قلة ضعفاء، لكن الله يتدخل لحمايتهم، أما اليوم فإن هذه الأشتات من اليهود فى هذا المجتمع المتناقض المتنافر المؤلف من مختلف العناصر لا علاقة لها بذلك التاريخ القديم إلا علاقة الحنين إلى القديم، وإنما هو مجتمع يعتبر امتداداً للغرب المعاصر، وقد أقيم فى ظل الاستعمار وفى ظل ظروف مريبة لا علاقة لها بالإيمان.

ولهذا فإن الوضع اليوم يعتبر معكوسا؛ فإن إسرائيل المعاصرة هذه هى التى أصبحت فى موقف الشعوب القديمة التى كان يحاربها بنو إسرائيل، بينما يعتبر الفلسطينيون اليوم وهم ضعفاء مؤمنون فى موقف بنى إسرائيل المؤمنين قديما، وهم على الحق، وسوف ينتصرون لا محالة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] لكن اليهود المعاصرين عاجزون عن الفهم، أو ربما يفهم البعض منهم جانباً من هذه الحقيقة لكنه لا يستطيع أن يرى مخرجاً من هذا التناقض الذى ساقت الصهيونية إليه الشعب اليهودى.

وهنا نبادر إلى عرض آراء الفيلسوف «يشاياهو ليبوفيتز»، الذى يعتبر من أهم

الفلاسفة اليهود المعاصرين؛ وهو يطالب بالفصل بين الدين والدولة رغم تدينه العميق وارتباطه طوال حياته بالحركة الصهيونية ودولة إسرائيل. ولكن ليبوفيتز الذى ثار حوله جدل شديد فى إسرائيل ينتقد ممارسات الجيش ويرفض احتلال الأراضى، بل إنه يدعو الجنود إلى عصيان الأوامر.

وقد أصدر ليبوفيتز عدة مؤلفات بالفرنسية مثل: «اليهودية والشعب اليهودى ودولة إسرائيل» عام ١٩٨٥، وكتاب «عقيدة موسى بن ميمون» عام ١٩٩٢ وكتاب «إسرائيل واليهودية» فى نفس العام. وقد أثارت مواقف ليبوفيتز من المشكلة الفلسطينية جدلا شديدا فى إسرائيل. وعندما صدر قرار بمنحه جائزة إسرائيل عام ١٩٩٣، ثارت ردود فعل جعلته يرفض هذه الجائزة.

ويرى البروفيسور ليبوفيتز أن كل الدول ومنها إسرائيل أدوات للسلطة، وقد يكون وجودها ضروريا أو واجبا، لكن الأمر يتعلق بأسلوب استخدام هذه الأدوات.

وينكر ليبوفيتز «وذلك على عكس ليون أشكنازى» أن هناك شيئا اسمه «الأخلاق اليهودية»، وذلك لأنه لم يعد لكلمة «اليهودية» منذ القرن التاسع عشر أى مضمون على مستوى القيم يقبله الجميع؛ بل إن هناك ملايين يعلنون أنهم يهود وليس هناك شىء مشترك بينهم على مستوى الفكر والضمير. لقد كان هناك شىء مشترك حتى القرن التاسع عشر؛ فقد كان كل يهودى أو غير يهودى يعلم قبل ذلك القرن أن هناك شيئا مشتركا بين اليهود هو «اليهودية».

ويشير ليبوفيتز أيضا إلى أنه ليست هناك أى صلة بين علاقات بنى إسرائيل قديما بالشعوب المقيمة فى أرض كنعان منذ ٣٥٠٠ سنة وبين المشكلة الحالية للعلاقات العربية اليهودية.

ويرى ليبوفيتز – الذى قضى نحبه منذ سنوات قلائل – أن هناك فاشيين فى إسرائيل، ويقول إن حرب الأيام الستة كانت تحولا ، ولكن ليس من وجهة نظر أخلاقية، وذلك لأن كل قوى إسرائيل المادية والروحية مسخرة اليوم لهدف واحد هو استمرار السيطرة على الأرض المحتلة، والاحتلال مصدر لتدهور أخلاقى خطير.

ثم يقول ليبوفيتز: بعد حرب ١٩٦٧ وما أعقبها من احتلال لم تعد دولة إسرائيل إطاراً لاستقلال الشعب اليهودى بل تحولت إلى أداة للسيطرة الوحشية على شعب آخر؛ فوظيفة دولة إسرائيل اليوم هى السيطرة على شعب آخر، وما عدا ذلك فهو تابع لهذه الوظيفة.

ويشير ليبوفيتز إلى أن العنف أصبح السمة المميزة اليوم لعقلية الإسرائيلى حتى فى العلاقات بين اليهود أنفسهم.

ثم يتحدث عن خطورة النزعة القومية المتطرفة والفاشية، فيشير إلى كلمة قالها الأديب النمساوى فرانز جريلبازر فى القرن التاسع عشر وفحواها: «فى عالم الثقافة الحديثة المستنيرة اليوم هناك خط مستقيم يقود الإنسانية عبر القومية إلى البهيمية».

وقد نتساءل هنا عن جدوى هذه الآراء التى يرددها أمثال ليبوفيتز وعن مدى تأثيرها فى المجتمع الإسرائيلى.. ولكننا نبادر فنقول إن تأثير هذه المواقف محدود جدا من الناحية العملية؛ لأن الصهيونية نفسها لا تولى للفكر اهتماما كبيرا بل إنها تعاديه.

يقول إيلان جريلسامر فى بحثه المطول فى كتاب «الأخلاق والسياسة فى الدولة اليهودية»: من المفارقات الغريبة أن المجتمع الإسرائيلى الذى يزعم أنه يمثل أهل الكتاب والذى يمثله بصورة ما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المستوى المرتفع لإقبال الإسرائيليين على القراءة يعانى من ميل إلى معاداة الفكر. وقد أشار إلى ذلك أبا إيبان بل إنه عانى من ذلك الواقع حيث قال: «لنكن صرحاء»: إن صهيونية الرواد تقوم على أسس معادية للفكر» .

ويضيف جريلسامر قائلاً: «حقيقة الأمر أن هدف الصهيونية بكل اتجاهاتها يتمثل فى تغيير صورة اليهودى، وأن تجعل من اليهود شعبا أقل ميلا إلى الفكر، ودفع أساتذة الجامعة والمفكرين إلى العمل فى المجال الإنتاجى. والبطل عند الصهيونية هو أستاذ الرياضيات السابق الذى يحلب بقرة فى المزرعة».

وذكر جريلسامر أن ساسة إسرائيل أمثال دافيد بن جوريون وجولدا مئير ومناحم بيجن كانوا يرون أن المفكرين، والشخصيات الروحية، و الحواجز الأخلاقية، نقمة لا نعمة. كما أن أبا إيبان يحظى بشعبية كبيرة فى الخارج أكثر من إسرائيل التى عانى فيها بسبب صورته كمثقف أكثر من اللازم.

ونعود إلى البروفسور ليبوفيتز الذى يتحدث عن النزعة الفاشية فى إسرائيل ويقول فى ذلك: «هنا نصل إلى فكر الفاشية التى ترى أن مصلحة الدولة أو الأمة هى القيمة العليا ويمكن القيام بأى عمل فى سبيلها. أما غير الفاشى حتى ولو كان يحب شعبه وبلاده فإنه يرى أن هناك حدوداً لا يمكن تجاوزها، ويعلم ماذا يمكن أن يفعل أو لا يفعل؛ لأن ضميره الأخلاقى هو الذى يملى عليه ذلك. كما أنه يعلم متى يجب عليه مخالفة الأوامر حتى ولو كانت «قانونية».

ورفض ليبوفيتز الادعاء القائل بأن تعرُّض الشعب اليهودى للإبادة يجب أن يخفف من الحكم الأخلاقى للشعوب عليه؛ وذلك لأنه يرى أن «الحكم الأخلاقى على إنسان لا يمكن أن يخضع لما عاشه هذا الإنسان من قبل، ولكن هذا الحكم تابع لأعماله».

ويفند ليبوفيتز دعوى المطالبين بمواصلة احتلال الأراضى متهماً إياهم بالفاشية حيث يقول: «إن الحس الأخلاقى لمن يطالبون بالبقاء فى الأراضى هو الحس الأخلاقى للفاشى الذى يبرر كلَ شىء باسم الأمة أو الدولة».

ويصف ليبوفيتز حاخامات إسرائيل الكبار بأنهم موظفون صغار فى الدولة . ويقول إن حاخاما مثل «زفى يهودا كوك» الزعيم الروحى لحركة «جوش ايمونيم» مزيج من الغباء الشرير والشر الغبى وهو نموذج للمفكر الفاشى.

ويرى البروفسور ليبوفيتز أنه لا مفر من تقسيم الأرض بين اليهود والفلسطينيين حيث يقول: «لقد أضبح عدد أكبر من الناس يدركون أنه لا حل لمشكلاتنا الوجودية ونحن نحتل الأراضى؛ لأن هناك شعبين – وتلك حقيقة لا يمكن التحايل عليها – كل منهما يرى أن الأرض أرضه ولا مفر من تقسيمها، ولا بد لكل منهما أن يتنازل عن شىء، وذلك أمر صعب جدا من الناحية النفسية، لكنه ضرورة لا بد منها».

ويطالب ليبوفيتز بالتخلى عن فكرة كامل أرض إسرائيل، كما يطالب بإلغاء الميثاق الوطنى الفلسطينى الذى لا يعترف بإسرائيل، ويختتم ليبوفيتز آراءه قائلاً: «المهم أن يكون لكل من الشعبين استقلاله الوطنى؛ لأن هذا الاستقلال أمر حتمى وهو الأمر الوحيد فى العالم الذى يحارب من أجله الناس ويقتل بعضهم بعضا فى سبيله».

وواضح أن رؤية ليبوفيتز واقعية جدا حيث يرى أنه لا مفر من الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى وقيام دولته المستقلة، ويرى أن فى ذلك إنقاذا لإسرائيل نفسها من مخاطر ممارسة القهر ضد شعب آخر. ولكن السؤال هو عن مدى تأثير آراء مثل هذا الفيلسوف فى المجتمع الإسرائيلى وفى السياسة الإسرائيلية التى تستند إلى القوة وإلى فرض الأمر الواقع.

وإذا واصلت الدولة اليهودية سياستها هذه، فإن الشعب اليهودى سيكتشف أن الصهيونية أنشأت له دويلة لإنقاذ أجسام اليهود، مع فقدانهم فى المقابل كل روحانية أو أخلاق أو مبادئ.



الباب السادس

الإمكانيات الثلاث

الأب لويس شيخو اليسوعي كاتب لبناني معروف، ومن أهم مؤلفاته «شعراء النصرانية في الجاهلية» و«شعراء النصرانية بعد الإسلام» وله مؤلف هاجم فيه الماسونية عنوانه «السر المصون في شيعة الفرمسون» وله أيضًا «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» الذي تحدث فيه عن انتشار المسيحية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقد أشار فيه إلى أن أول قياصرة الرومان النصارى خرج من بادية العرب وهو فيلبوس العربي الذي ملك في روما من ٢٤٤ إلى ٢٤٩م وكان أصله من بُصرى. وأوضح شيخو أن فيلبوس كان نصرانيًا وتشهد على ذلك رسائل أوريجانوس إليه، وقد فتك به أحد القواد واسمه دقيوس وتولى الأمر مكانه، وانتهى المؤلف إلى أن فيلبّوس سبق قسطنطين في تنصره[1].

بل إن الأب لويس شيخو يشير إلى أن القديس بولس هرب من دسائس اليهود إلى جزيرة العرب حيث أقام مدة ..

ويرى شيخو أن الشيوخ الذين عُرفوا بالمجوس وجاءوا إلى بيت لحم وأهدوا ألطافهم إلى المسيح كانوا عربًا، وأنه لا بأس من وصف هؤلاء القادمين إلى مهد المسيح بأنهم مجوس؛ فإن هذا الاسم كان يطلق عند العبرانيين على حكماء الشرق عمومًا، كما أن بلينيوس صرح بأن بلاد العرب كانت بلاد مجوس.

ومن الطريف أن الأب لويس شيخو انتقد في مقدمته مبالغات بعض المستشرقين أمثال «ابراهام جايجر» في كتابه «ما أخذ محمد عن اليهودية» وقال إن المستشرق دوزى زاد تطرفًا عن جايجر في كتابه عن «اليهود في مكة» منذ عهد داود إلى القرن الخامس بعد المسيح لأن فيه مزاعم غريبة.

ورغم انتقاد الأب لويس شيخو لهذين المستشرقين فإنه ذكر في باب عنوانه «الألفاظ النصرانية في لغة عرب الجاهلية» أن مفردات هامة مثل اسمه تعالى «الله» ومثل السماء والملائكة وجهنم والدين والعيد والنذر والمسجد والكعبة والمحراب والمئذنة والصلاة

---

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ٣٢، ٣٣.

والسجود والركوع دخلت اللغة العربية بتأثير النصرانية .. وقد دلَّل على رأيه بقوله: «إن الوثنية كانت عمّت قبل المسيح كل جهات جزيرة العرب كما سبق لنا بيانه وشهدت عليه المآثر المتعددة، فإن وجدنا فيها ديانة التوحيد ووصف كمالاته تعالى وألفاظًا دالَّةً على ذلك بعد المسيح؛ فلا بد من القول إن العرب الذين فاهوا بها كانوا موحدين؛ فهم إما يهود وإما نصارى، وعلى الأقل إنهم استعاروها من أولئك الموحدين، على أننا نعرف الجهات التى كان يسكنها اليهود فى جزيرة العرب، أما النصارى فكانوا منبثِّين فى كل أنحائها؛ فيجب القول بأن هذه الألفاظ هى غالبًا للمسيحيين دون اليهود»(١).

ولا شك أن الأب لويس شيخو بذل جهوداً كبيرة فى البحث والتنقيب فى صفحات التاريخ القديم، ولكنهٔ رغم ذلك وقف برسالة التوحيد فى بلاد العرب عند اليهودية والمسيحية وكأن ديانة التوحيد لم تكن موجودة فى عهد إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء جميعًا وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].. ولا ريب أن العرب كانوا يدينون بالتوحيد فى عهد إبراهيم وإسماعيل ولم يكونوا بحاجة لمعرفة كلمات مثل اسمه تعالى «الله» من اليهودية أو النصرانية.. ولكنهم انحرفوا فى الجاهلية، ورغم ذلك فقد ظلَّت هذه الكلمات شائعةً فى لغتهم ولم يقتبسوها من الآرامية أو السريانية كما يرى الأب المحترم.

بل إن الأب لويس شيخو عقد فصلاً فى نحو عشرين صفحة جعلها فى صورة جدول ليثبت فيه نقل أحاديث نبوية شريفة من العهدين القديم والجديد، وكأن الإسلام مجرد اقتباس من اليهودية أو المسيحية، ولعله اتبع فى ذلك طريقة المستشرقين، وكان الأولى به أن يشير إلى اتفاق الأديان الثلاثة فى أمور جوهرية مما يدل على انبثاقها من ينبوع واحد هو الوحى الإلهى.

فليست اليهودية كما يدعى اليهود مصدراً للمسيحية والإسلام، كما أن المسيحية وحدها ليست مصدراً للإسلام، ولكن الأديان الثلاثة مصدرها الوحى الإلهى، وهناك فارقٌ واحد وهو أن الإسلام ينص على الإيمان بكل الأنبياء السابقين سواء عرفنا أسماءهم أم لا، الأمر الذى جعله لا ينطوى على تناقضات فى تعامله مع سائر الأديان وذلك لأنه أوسع أفقًا وأرحبُ طُرقًا وهو أقرب إلى ملَّة إبراهيم التى سبقت اليهودية والمسيحية، وهذه الملة هى التى انبثقت منها الإمكانياتَ الثلاث، ثم تحققت فى التاريخ

---

(١) المرجع السابق: ص ١٥٨.

وهى اليهودية والمسيحية والإسلام، ومن ثم وُصف إبراهيم عليه السلام بأنه أبو الأنبياء إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

ونعود إلى الأب لويس شيخو الذى تحدث كثيراً عن تأثير النصرانية فى مفردات اللغة العربية، ولكنه رغم هذا يبدى استياءه لتبديل اسم المسيح وهو يسوع ليصبح «عيسى» فى العربية فيقول:

«وفى اسم عيسى هذا سر من أسرار الاشتقاق الغريبة .. ولا نجد علمًا قد تبدل فى العربية على هذا المنوال، وعندنا أن هذا التبديل جرى على يد اليهود الذين أدخلوه فى العرب بُغضًا بالنصارى فدعَوْا يسوع باسم عيسى أو عيسو وهو أخو يعقوب الذى نفاه الله من شعبه، وكان هو وقومه الأدوميون يعدون رجسًا فى بنى إسرائيل؛ فقلبوا اسم يسوع ونقلوا عينه إلى أوله فجعلوا الرأس ذنبًا».

وإننا لنتساءل كيف يستقيم هذا القول مع ادعاء الأب لويس فى مطلع الفصل الذى ورد فيه هذا الكلام عن التأثير العظيم للألفاظ النصرانية فى عربية الجاهلية إذا كان اسم المسيح نفسه - وهو أصل الديانة المسيحية - قد تم تحريفه على هذا النحو من يسوع إلى عيسى؟!

يضاف إلى ذلك أنه قد يُفهم من دعوى الأب اليسوعى عن قلب اسم المسيح فى العربية نقلاً عن اليهود، أن الإسلام الذى ورث هذا الاسم قد اكتسب عداءً للمسيحية بتأثير يهودى ..

وسوف نرى بعد قليل أن الحاخام اليهودى ليون أشكنازى يدَّعى أن الإسلام ورث عن المسيحية عداءها لليهودية .. فأيهما نصدق؟ الأب لويس شيخو أم ليون أشكنازى؟

ونشير هنا إلى أن لويس شيخو وضع الشاعر الجاهلى السموأل بن عادياء الذى اشتهر بأنه يهودى بين شعراء النصرانية، وقد ردَّ عليه كاتب يهودى هو إسرائيل ولفنسون فى كتابه «تاريخ اليهود فى بلاد العرب»، وهو رسالة دكتوراه تحت إشراف طه حسين وحاول من جانبه إثبات يهودية السموأل.

وقد ذكر الأب جورج قنواتى فى كتابه «المسيحية والحضارة العربية»[1] أن بعض النقاد أخذوا على لويس شيخو تسرعه فى الوصول إلى النتائج وضعف بعض براهينه، وأشار قنواتى إلى أن الأب كميل حشيمة اليسوعى خصص رسالة لنقد كتاب الأب شيخو عن «المسيحية والأدب المسيحى فى جزيرة العرب قبل الإسلام» وأن حشيمة أشار إلى ما يعوز أحيانًا كتاب الأب شيخو من الدقة العلمية التامة.

---

(١) ص ١٤٥، ١٤٦.

ويعترف حشيمة بالمجهود الجبار الذى قام به الأب شيخو، ولكنه استبعد كثيراً من الشعراء الذين أصرّ شيخو على اعتبارهم مسيحيين؛ ومنهم النابغة الذبياني، وحاتم الطائي، وعنترة بن شداد، وزهير بن أبي سلمى، وامرؤ القيس.

تحدث الحاخام ليون أشكنازى فى مقال عنوانه «الهوية الأخلاقية لإسرائيل»[1] عن وجود أخلاق يهودية هي وحدة القيم؛ على عكس الحضارات الأخرى التى يختار فيها مثَل أخلاقى أعلى ويميِّز على غيره.

ويرفض أشكنازى أن تكون علاقة اليهود بغيرهم مثل علاقة هابيل بأخيه قابيل لأنه يرى أن هذه العلاقة غير متماثلة؛ لأن قابيل الذى ولد أولاً يعتبر نفسه «ذاتًا» بينما يعتبر أخاه هابيل مجرد «موضوع» ينفعل بما تمليه عليه هذه «الذات».

ويقول أشكنازى إن الحضارة المسيحية أرادت أن تفرض على الشعب اليهودى هذه العلاقة بين قابيل وهابيل، وأن تجعل للشعب اليهودى دور هابيل الراعى .. ويضيف الحاخام أن المعادلة الحقيقية فى اليهودية للشعب اليهودى مع الأمم هى علاقة قابيل وشيث لأن شيث صورة من هابيل الذى لا يمكن قتله.

ويتحدث أشكنازى عن العلاقة الثلاثية بين المسيحية واليهودية والإسلام فيشير إلى صراعين كبيرين فى التاريخ:

الأول: صراع إسماعيل وإسحاق الذى دار حول الميراث الأرضى لإبراهيم أى على أرض إسرائيل أو فلسطين كما سماها الرومان.

الثانى: صراع عيسو (المجتمعات المسيحية) ويعقوب (اليهودية)، وهو لا يتعلق بالأرض وإنما بالسماء أى على شخصية إسرائيل.. فمن هو إسرائيل حقًا أهو يعقوب أم عيسو؟ ويدعى الحاخام ليون اشكنازى (وهو ابن آخر حاخام أكبر للجزائر) أن المسيحية التى ظهرت قبل الإسلام هى السبب فى عداء المسلمين لليهود، ويقول إن عداء الإسلام لليهودية له جذورٌ عميقة فى الأناجيل وفيما تلقاه الإسلام واستوعبه من التراث المسيحى، ومن ثم فإن ليون أشكنازى يرى أن الصراع العربى اليهودى ثانوى بالمقارنة مع الصراع المسيحى اليهودى، كما يعتقد أن المسيحيين هم الذين يمسكون بمفتاح الصراع بين إسرائيل والإسلام ، ويدعى أن القوى المسيحية هى التى تُضيِّع السلام كلما انتصرت إسرائيل على العرب، وأنها تريد أن تفرض على إسرائيل تقديم تنازلات عن الأراضى بدلاً من فرض معاهدة سلام (لصالح إسرائيل طبعًا).

(١) ص ١٢٠ من كتاب «الأخلاق والسياسة فى الدولة اليهودية».

ويقـول اشكنازى إنه لا يمكن فهـم ما يجـرى فى الشرق الأوسط إلا على مستـوى رؤية ميتافيزيقية؛ لأن المشكلة صـراع حول هوية إسرائيل؛ فقد انبثقت من إبراهيم ثلاث سلالات؛ فأيها وريث هوية وصلاحيات إسرائيل؟

ويرى الحاخـام اليهودى أن المسيحية بدأت تكتشف أن الشـعب اليهـودى قد يكون إسرائيل[1] وهى على الطريق لتسوية مشكلتها مع اليهودية، ولكن الإسلام ما زال يرفض شرعـية عودة يهود الشـتات وتكوينهم أمة يهودية، كـما أن لدى المسلمين مـشكلة دينية عميقة تتعلق بشرعية إسرائيل، ولهـذا فالصراع العربى اليهودى يتجاوز مشكلة الأرض، ولابد فى رأيه للوصول إلى سلام حقيقى من المعاملة بالمثل، وشرط ذلك أن تعترف الأمة العربية والإسـلام بحق إسرائيل فى الوجود على أرضها، وإلا فـإن أى حل سيكون نوعًا من الهدنة مثل السلام مع مصر.

وإننا لنرى هنا تناقضًا بين قـول أشكنازى عن اتجاه المسيحية إلى تسـوية مشكلتها مع اليهودية رغم قوله قبل ذلك إن المسيحيـة شديدة العداء لليهودية وإن الإسلام ورث عنها هذا العداء، كما أنه قـال إن الصراع العربى اليهودى يتجـاوز مشكلة الأرض؛ رغم قوله قبل ذلك فى نفس المقال إن الصدام بين العرب واليهود (إسـماعيل وإسحاق) كان حول الميراث الأرضى.

ولا شك فى أن أشكنازى – على طريقة اليهود فى الابتـزاز الخفى – يوجه أشد النقد إلى المسيـحية؛ أى إلى القـوى الغربية حـتى يدفعهـا إلى مزيد من الشـعور بالذنب وإلى مزيد من التأييد للدولة اليهودية.

يضاف إلى ذلك إصراره على فكرة تبعـية المسيحية والإسلام لليـهودية، وهو ما أشار إليه فى حديثه عن الصراع بين السـلالات الثلاث التى انبثقت من إبراهيم حول حق كل منهـا فى أن يرث أو يمثل شـخصـية إسـرائيل (والمقـصود هنا دور بنى إسـرائيل قديمًـا واستمراره حتى اليوم).

فالسلام إذن لا يتحـقق إلا بخضوع المسيحيين والمسلمين للـيهود، وإلا فلا سلام ولا تعايش بـين الأديان، وكأن بداية التـاريخ الإنسانى جـاءت مع اليهودية، وكـأن الدين لم يبدأ مع الإنسان منذ آدم عليه السلام، اليهودية إذن تريد إلغاء المسيحية والإسلام، أو على

(١) المقـصود هنا ليس دولة إسـرائيل وإنما دور بنى إسـرائيل الدينى القـديم، والواقع أن دولة إسرائيل ليست امتدادًا لتاريخ بنى إسرائيل.

الأقل اعتبارهما تابعين أو مجرد غصنين فى شجرة اليهودية السامقة .. أما الإسلام فإنه لا يلغى أديان الآخرين بل يعترف بأنبياء هذه الأديان ويجعل ذلك ركنًا من أركان الإيمان.. ومردُّ ذلك إلى أن رؤية الإسلام تتسع للتاريخ الإنسانى كله بما فيه من تنوع وتشعب فى السلالات والثقافات.. فالإسلام لا يلغى التمايز بين الشعوب والأوطان ولكنه يدعوها إلى التفاهم والوئام.

والإسلام يعتبر الأديان السماوية انبثاقًا من الينبوع الأساسى وهو الوحى الإلهى ويرى أن كلاً منها أدى رسالته تطبيقًا لأوامر إلهية لا تلبية لنزعة قومية أو أمجاد وطنية، ومن هنا كان توقيره لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وإلياس ويونس وموسى وهارون ونوح وإدّريس مثل توقيره لمحمد عليه السلام ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

ولقد رأينا المؤرخين المسلمين يوردون الخلاف فى مسألة الذبيح أهو إسماعيل أم إسحاق، ولا يتعصبون لأى منهما؛ لأن كليهما نبى له مكانته وقدره فى الإسلام.

بل إننا نرى المؤرخين المسلمين يفندون ما ورد فى بعض أسفار العهد القديم من روايات لا تليق بعصمة الأنبياء مثل الرواية التى تتحدث عن إعجاب داود بزوجة قائده «أوريا» وعمله على قتل هذا القائد حتى يتزوج من امرأته «بتشايع» التى ولدت له سليمان، ورأينا القرآن الكريم يوجه النقد اللاذع إلى كفار بنى إسرائيل لقتلهم الأنبياء، والقرآن هو الذى يتحدث عن تفضيل بنى إسرائيل عندما قاموا بأداء رسالتهم فى نشر دين الله الحق، أما إذا انحرفوا عن الطريق فإنهم مستحقون للعقاب .. وهذا هو نفس المنطق الذى ساد فى كتب أنبياء بنى إسرائيل الذين طالما حذروا قومهم من مغبة تجاهلهم للتعاليم الإلهية حتى قال أحد هؤلاء الأنبياء وهو أشعيا[1] عن بنى إسرائيل: «كيف صارت المدينة الأمينة زانية!» .. والزنا هنا بمعنى الوثنية والشرك بالله.

ولقد تنبأ إرميا النبى بسقوط أورشليم، ودعا قومه إلى الاستسلام للقضاء الإلهى المحتوم عقابًا لهم على سوء صنيعهم، وقد حقَّت كلمة الله عليهم؛ فغزا ملكُ بابل نبوخذ نصر مملكة يهودا ودمر أورشليم وساق الشعب اليهودى أسيرًا إلى بابل، إذن فقد صدقت نبوءة إرميا.. ولكن اليهود لم يغفروا له ذلك؛ فطاردوه حتى هرب منهم إلى أرض مصر، ورغم ذلك فإنه لم ينج من أيديهم حيث قتلوه هناك.

وحقيقة الأمر كما نراها فى الأديان الثلاثة أنها إمكانيات كانت كامنة ثم حققتها

---

(١) أشعيا: ٢١/١.

الإرادة الإلهيـة فى التاريـخ الإنسانى حـتى تستـقيم مسيرة الحياة وذلك على التـرتيب المعروف؛ حيث ظهرت اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام.

ولقد أطلق على إبراهيم عليه السلام لقب «أبى الأنبياء» ولم يكن ذلك عبثًا؛ فقد وُلد له أولاً ابنه البكر إسماعيل وهو أبو العـرب .. ثم وُلد له إسحاق وهو أبو يعقوب (الذى خرجت منه اليهودية) وعيسو (الذى خرجت منه المسيحية).

ومـعـروف أن الابن البكر له الأولوية فـى التـراث العـبرى، ومـن ثم تكون الأولوية لإسماعيل بالنسبة لإسحاق، وكذلك تكون الأولوية لعيسو (وهو الابن البكر لإسحاق) بالنسبة ليعقوب.

ولقد جعلت التوراة الأولوية لإسـحاق وهو الأصغر بالنسبة لإسمـاعـيل كما جعلت الأولوية ليعقوب وهو الأصغر بالنسبة لأخـيه عيسو، الذى ورد فى سفر التكوين أنه باع حق الابن البكر لأخيه يعقوب، فما تفـسير ذلك الذى يبدو وكأنه تناقض بين ما ورد فى التوراة وبين ما هو مقرر فى التراث العبرى؟

والجواب: أن إسمـاعيل هو الابن البكر لإبراهيم، ولكن إبعاده إلى أرض فـاران كما ورد فى التوراة لم يكن نبـذًا له ولذريته كما توهم البعـض؛ وإلا لما جاء فى هذه التوراة: «وأما إسماعيل فقد سمعت قـولك فيه وها أنذا أباركه وأنميه وأكثره جداً جداً ويلد اثنى عشر رئيسًا وأجعله أمة عظيمة» [تكوين: ١٧/٢٠].

فلو كان إسـماعيل قـد نبذ نبذًا أبديًا لما تحـدث عنه سفر التكـوين على هذا النحو .. ويمكن تفسير غيرة سارة بالرغبة فى القيام بدور يسبق دور هاجر وابنها إسماعيل، ولهذا فقد وُلد لها إسحاق حتى يتسنى تحقيق الإمكـانية الأولى التى سيحققها نسل يعقوب بن إسحق فى الـتاريخ، وهى تحمل بـنى إسرائيل أمانـة الرسالة فى ذلك العـهد، بينمـا أبعد إسماعيل إلى حين؛ لأن إمكانية أبنائه لم يأتِ أوانها بعد.

ثم جاء عيسو وأخوه يعقوب، ولكن الأولوية جـعلت ليعقوب حتى تتحقق الإمكانية الأولى وهى قيام بنى إسرائـيل بدورهم، قبل الإمكانية الثانية وهى المسيـحية التى سوف تتحقق على يد أبناء عيسو.

إذن فـقد أُبعـد إسمـاعيـل إلى مكان قصىٍّ، وجـعلت الأولوية لأخـيه إسـحق الذى ستخرج منه الإمكانيتان الأولى وهى اليهودية والثانية وهى المسيحية.

فإذا تم هذان الدوران جـاء دور إسمـاعيل وبنيـه ليظهر الإسـلام، وسوف نلاحظ أن انتشار المسيحية وهى الإمكانية الثانية التى يمثلها عيسو الابن الأكبر لإسحق كان أوسع مدى من انتشار اليهودية، كما نلاحظ أن انتشار الإسلام وهو الإمكانية الثالثة التى يمثلها

إسماعيل وهو الابن الأكبر كان أوسع مدى بكثير من انتشار اليهودية والمسيحية اللتين يمثلهما إسحق أخوه الأصغر الذى ولد له يعقوب (اليهودية) وعيسو (المسيحية).

لقد وعد الله إبراهيم عليه السلام بأن يجعل لنسله شأنًا عظيمًا حيث جاء فى الفصل الخامس عشر الآية ١٨ من سفر التكوين: «فى ذلك اليوم قطع الربّ مع أبرام عهداً قائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

وجعل الله عهداً بينه وبين إبراهيم ونسله وهو الختان حيث جاء فى الفصل ١٧ من سفر التكوين: «هذا هو عهدى الذى تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يُختن كلّ ذكر منكم».

وقد أخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وختنه وعمره ١٣ سنة وكان عمر إبراهيم ٩٩ سنة، وفى السنة التالية ولد له إسحق وعمره مائة سنة، والمقصود هو ختان القلب كما جاء فى سفر التثنية آية ١٦ فصل ١٠: «فاختتنوا قلف قلوبكم».

فإسماعيل إذن يشمله هذا الوعد الإلهى لنسل إبراهيم؛ لأنه من ذريته وهو أول مَن ختن من أبنائه، وتروى التوراة قصة طرد هاجر وابنها إسماعيل عندما قالت سارة لإبراهيم: «اطرد هذه الخادمة وابنها؛ فإن ابن هذه الجارية لن يرث مع ابنى إسحق».

فساء هذا الكلام جداً فى عينى إبراهيم بشأن ابنه.

ويمضى الفصل ٢١ من سفر التكوين فى روايته قائلاً: «فقال الله لإبراهيم: «لا يسؤ فى عينيك أمر الصبى وأمر خادمتك. مهما قالت لك سارة، فاسمع لقولها؛ لأنه بإسحق يكون لك نسلٌ باسمك.

وأما ابن الخادمة، فهو أيضًا أجعله أمة عظيمة، لأنه نسلك».

وهنا نجد التوراة تشير إلى أن إسماعيل ستخرج منه أمة عظيمة أيضًا، ولكن ذلك سيؤجل إلى حين.

وجاء فى الآية ٢١ من الفصل ٢١ تكوين عن إبعاد إسماعيل: «وأقام ببرية فاران، واتخذت له أمه امرأةً من أرض مصر».

إذن لم يكن إبعاد إسماعيل إلى برية فاران إبعاداً مطلقًا وإخراجًا له من ساحة التاريخ، ولكنه كان إرجاءً لرسالته ورسالة أبنائه من بعده، والتى تجلت فى الرسالة الإسلامية التى تحمّل عبئها أعظمُ بنيه محمد عليه السلام؛ فالإبعاد فى المكان رمز للإرجاء فى الزمان.

وسوف نرى نبوءة فى التوراة تشير إلى نبوة محمد عليه السلام إشارة واضحة. فقد جاء فى الآيتين الأولى والثانية من الفصل ٣٣ من سفر تثنية الاشتراع:

«وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال: أقبلَ الربُّ من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وسطعَ من جبل فاران».

وذلك لأن سيناء هنا رمز لنزول التوراة،، وسعير رمز لظهور المسيحية لأن عيسو الذي يوصف حينًا بأنه أدوم أو أبو أدوم يعتبر رمزًا للمسيحية لأنه أب للروم الذين سيعتنقون المسيحية فيما بعد، وكان مسكن عيسو في جبل سعير حيث جاء في الآية ٩ من الفصل ٣٦ في سفر التكوين: «وهذه سلالة عيسو أبي أدوم في جبل سعير».

وأما جبل فاران فهو رمز لظهور الإسلام على يد النبي محمد ﷺ، وهو من سلالة إسماعيل الذي لجأ مع أمه إلى فاران كما جاء في الآية ٢١ من الفصل ٢١ في سفر التكوين: «وأقام ببرية فاران».

ومن هنا يتضح كيف أن التوراة أشارت بصورة رمزية إلى ظهور الأديان السماوية الثلاثة، الأمر الذي يتيح تأويل إبعاد إسماعيل إلى حين، وإبعاد عيسو (الذي ستخرج منه المسيحية) إلى حين.

وهذه الآية التي جاءت في سفر تثنية الاشتراع وهي: «أقبلَ الربُّ من سيناء، وأشرقَ لهم من سعير، وسطع من جبل فاران».

تذكرنا بالآيات القرآنية:

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ ﴾.

حيث تشير الآية الأولى إلى ظهور المسيحية في فلسطين، والثانية إلى نزول التوراة في طور سيناء، والثالثة إلى نزول القرآن الكريم على النبي الأمين في مكة المكرمة.

وقد تحدث سفر التكوين عن تخلي عيسو عن بكريته ليعقوب وأنه وصف بأنه «أدوم» أي «الأحمر» وذلك رمزًا للون الرومان الذين سينحدرون منه ويعتنقون المسيحية.

ورغم أن يعقوب اختلس بركة أبيه إسحق بدلاً من أخيه الأكبر عيسو إلا أن إسحق الذي شاخ وكلَّتْ عيناه عن النظر قال وهو يبارك ابنه يعقوب الذي خدع أباه وقال إنه عيسو: «الصوتُ صوتُ يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو». وذلك لأن يعقوب كان قد كسا يديه بجلد الماعز مثلما يفعل عيسو، وذلك إمعانًا في التمويه على أبيه طبقًا لما رواه سفر التكوين. ولكن إسحق اكتشف ما حدث عندما حضر عيسو وأبلغ أباه بأنه عيسو، فارتعش إسحق ارتعاشًا شديدًا وطلب منه عيسو أن يباركه أيضًا فقال إسحق: «قد جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك». فقال عيسو: «ألأنه سُمِّي يعقوب قد تعقبني مرتين: أخذ

بكريتى، وها هو ذا الآن أخذ بركتى؟!». ثم قال: «أما أبقيتَ لى بركة؟ أبركةٌ واحدة لك يا أبت؟ باركنى أنا أيضًا يا أبت». فأجابه إسحق: «بسيفك تعيش،وأخاك تخدم، ويكون أنك إذا قويت تكسر نيره عن عنقك».

ومعنى ذلك أن حصول يعقوب على بركة أبيه أولاً لم يمنع إسحق من مباركة عيسو، ولكن تحقق إمكانية يعقوب ستكون لها الأولوية، ثم تأتى إمكانية عيسو وهما سلالة إسحق الذى جُعلت له الأولوية على إسماعيل الذى تتحقق إمكانيته بظهور الإسلام وانتشاره بصورة لم يسبقه إليها أى دين.

وهنا نشير إلى رأى عالم هندى عاش فى بريطانيا وقضى نحبه فيها سنة ١٩٣٢ وهو العلاّمة خواجا كمال الدين الذى يرى أن وظيفة الدين هى تحقيق الملكات الكامنة فى الإنسان، ويقول خواجا كمال الدين فى كتابه نحو الإسلام: «Towards Islam».

«إذا كان تحقيق الملكات الكامنة للإنسان هو هدف الدين، فإن أى كتاب سماوى يجب أن يوضح:

١- القدرات الإنسانية.

٢- طريق تحقيقها.

٣- العلاقة بين الله وبين الإنسان لتحقيق هذه الغاية.

٤- العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

٥- العلاقة بين الإنسان والإنسان.

٦- طريق تحقيق هذه العلاقات.

٧- الحياة بعد الموت».

ويرى كمال الدين أن أى دين لا يكون سماويًا إذا لم يوضح لنا الصراط القويم لتحقيق ملكاتنا إلى درجة الكمال.

وأوضح أن القرآن يشرح هذه المسائل على أفضل نحو ممكن.



الباب السابع

إيليا النبى وأنبياء البعل

جاء فى سفر الملوك الأول نهاية الفصل ١٦: «وملك أحآب بن عُمرى على إسرائيل».

وكان ملكه على إسرائيل فى السامرة اثنتين وعشرين سنة. وذكر سفر الملوك الأول أن أحآب بن عمرى صنع الشر أكثر من كل من تقدمه ولم يكفه أن سار فى خطايا يربعام بن نباط بل إنه تزوج إيزابل بنت أتبعل ملك الصيدونيين وراح يعبد البعل ويسجد له وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة.

وكان أتبعل من كهنة عشتاروت، وتولى السلطة فى صور فى الوقت الذى ملك فيه عمرى على إسرائيل، وقد دعما العلاقات بينهما بالمصاهرة حيث تزوج أحآب بن عمرى من إيزابل بنت أتبعل.

وعندئذ ظهر النبى إيليا منذرا إسرائيل بأنه لن يكون فى هذه السنين ندى ولا مطر عقابا لهم على عبادتهم البعل.

وأمر إيليا بالتوجه إلى شرق الأردن بعد أن أُمرتْ الغربان بأن تطعمه وأن يشرب من ماء النهر، فكانت الغربان تأتيه بخبز ولحم فى الصباح وخبز ولحم فى المساء.

وكان إبعاد النبى إيليا عن بنى إسرائيل عقابا لهم حيث سلط عليهم الجفاف، وكان ملك إسرائيل وزوجته إيزابل يضطهدان الأنبياء حتى أن عوبديا قيم البيت الملكى الذى كان تقيا جدا أخذ مائة من الأنبياء وأخفاهم كل خمسين فى مغارة وزودهم بالخبز والماء.

وأمر الله تعالى إيليا - فى السنة الثالثة من إبعاده - بالعودة ومقابلة أحآب فلما التقيا قال له أحآب: «أأنت إيليا مُعكرُ صفو إسرائيل؟».

فقال له إيليا :«لم أعكر صفو إسرآئيل أنا، بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وسيركم وراء البعل».

ثم حانت ساعة المواجهة بين أنبياء الحق وأدعياء الباطل من أنبياء البعل عندما تحدى إيليا ملك إسرائيل قائلا :«والآن أَرْسِلْ واجمع إليَّ إسرآئيل كله إلى جبل الكرمل، وأنبياء البعل الأربع مئة والخمسين، وأنبياء عشتاروت الأربع مئة الذين يأكلون على مائدة إيزابل».

ولما اجتمع بنو إسرائيل على جبل الكرمل خاطبهم إيليا محذرا إياهم من التذبذب بين الإله الحق وبين البعل. ثم تحدى أنبياء البعل بدعوتهم إلى تقديم قربان وأن يقدم هو أيضا قربانه، ثم يدعو كل من الفريقين إلهه.

وجاء في سفر الملوك الأول في الفصل ١٨: (فقال إيليا للشعب :«أنا الآن وحدي بقيتُ نبيًّا للرب وهؤلاء أنبياء البعل أربع مئة وخمسون رجلا. فليؤت لنا بثورين فيختاروا لهم ثورا ثم يقطعوه ويجعلوه على الحطب ولا يضعوا نارا، وأنا أيضا أعد الثور الآخر وأجعله على الحطب ولا أضع ناراً، ثم تدعون أنتم باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب، والإله الذي يجيب بنارٍ فهو الله».

وعندئذ أخذ أنبياء البعل ثورا وأعدوه ودعوا باسم البعل من الصبح إلى الظهر وهم يقولون «أيها البعل أجبنا».. فلم يكن من مجيب.

فلما كان الظهر سخر منهم إيليا وقال: «اصرخوا بصوتٍ أعلى فإنه إله: فلعله في شغل أو في خلوة أو في سفر أو لعله نائم فيستيقظ».

وعندئذ رمم إيليا مذبح الرب وقدم قربانه، فهبطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب، فلما رأى ذلك كل الشعب سقطوا على وجوههم وقالوا :«الرب هو الإله، الرب هو الإله» فقال لهم إيليا :«اقبضوا على أنبياء البعل ولا يفلت منهم أحد». فقبضوا عليهم، فأنزلهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك».

وأنبأ إيليا أحآب بأن الجفاف قد انتهى حيث اسودت السماء بالغيوم وهبت الرياح وجاء مطر عظيم، لكن إيزابل عندما علمت بقتل أنبياء البعل غضبت غضبا شديدا وتوعدت إيليا بأن تقتله مثلما قتل أنبياءها، فكان ذلك سببا لفرار إيليا خوفا من القتل.

وقد فر إيليا إلى جبل الله حوريب ودخل مغارة هناك وبات فيها حيث سمع كلام الرب إليه :«ما بالك ههنا يا إيليا؟» فقال:«إني غرتُ غيرة للرب إله القوات لأن بني إسرآئيل قد تركوا عهدكَ وحطموا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف، وبقيت أنا وحدي

وقد طلبوا نفسي ليأخذوها».

وقد قال الرب للنبي إيليا عندئذ :«امض فارجع في طريقك نحو برية دمشق فإذا وصلت فامسح حزائيل ملكا على أرام. وامسح ياهو بن نمشي ملكا على إسرآئيل وامسح أليشاع بن شافاط نبيا مكانك.

فيكون أن من أفلت من سيف حزائيل يقتله ياهو، ومن أفلت من سيف ياهو يقتله أليشاع، ولكن قد أبقيت في إسرآئيل سبعة آلاف، كل ركبة لم تجث للبعل وكل فم لا يقبله».

وواضح من النص السابق الذي ورد في نهاية الفصل ١٩ من سفر الملوك الأول أن إيليا كان معرضا لخطر الموت، وأن الله تعالى أوحى إليه بأنه سيعاقب بني إسرائيل عدا سبعة آلاف نفس لم يسجدوا للبعل وأمره بأن يتوجه إلى برية دمشق.

وبعد أحداث أخرى رفع الله إيليا إلى السماء وخلفه أليشاع النبي حيث جاء في الآية ١٥ من الفصل الثاني من سفر الملوك الثاني :«قد حلت روح إيليا على أليشاع».

وإيليا هو المعروف في التراث الإسلامي باسم إلياس وخليفته أليشاع معروف باسم اليسع. وقد تحدث القرآن الكريم بصورة موجزة عن إلياس بدءا من الآية ١٢٣ في سورة «الصافات» حيث قال :﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مسألة البعل وإلى وجود بقية من المؤمنين ظلت على إيمانها بالله تعالى دون أن تفتنهم عبادة البعل.

(العصمة للشعب أم للأنبياء؟)

ومن العجيب أن الفيلسوف اليهودي المعروف موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) يرى في رسالة له حول «الاضطهاد»[1] أن الله تعالى قد عاقب إيليا رغم نبوته لأنه انتقد بني إسرائيل. وقد تخيل ابن ميمون النص السابق فجعله حوارا أضاف إليه أموراً لم ترد

(1) Epitres. p16

فيه وذلك كقول الرب لإيليا حين قال لربه إن بنى إسرائيل تركوا عهدك: أهو عهدك؟

وقوله (حسبما تخيل ابن ميمون) للنبى إيليا: أهو مذبحك؟ ثم قوله لإيليا عندما أشار إلى قتل بنى إسرائيل للأنبياء:

«أنت حى» وكأن ذلك تكذيب من الله تعالى لإيليا، وكل ذلك حسبما تخيل موسى بن ميمون ليثبت أن العصمة لبنى إسرائيل وليست لأنبيائهم وهذا نوع من التحريف أسوأ من تغيير الكلم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله فى مطلع الآية ٤٦ من سورة «النساء» ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾.

ويدعى ابن ميمون أن الله تعالى عاقب إيليا عندما أمره بأن يتوجه نحو برية دمشق وكأن ذلك نوع من التية.

ويتمادى ابن ميمون فى غيه فيدعى أن الله تعالى عاقب أشعيا النبى لأنه انتقد بنى إسرائيل حيث قال :«كيف صارت المدينة الأمينة زانية؟!». وأنه عوقب بصفة خاصة لقوله «وأنا مقيم بين شعب نجس الشفاه» وقد طار إليه أحد السرافين وبيده جمرة ومس بها فمه فطهره، ولكن ابن ميمون يدعى أن ذنب أشعيا لا يغتفر ولهذا فقد عوقب بالقتل على يد الملك منسى.

وأما ثالثة الأثافى فهى أن موسى بن ميمون يدعى أن الله تعالى عاقب موسى عليه السلام لشكه فى بنى إسرائيل عندما تساءل فى الآية الأولى من الفصل الرابع فى سفر الخروج: «وإن لم يصدقونى ولم يسمعوا لقولى؟» أما العقاب الإلهى لموسى وهارون فهو منعهما من قيادة الشعب إلى الأرض المقدسة حيث جاء فى الآية الثالثة عشرة من الفصل ٢٠ فى سفر العدد :«فقال الرب لموسى وهارون :«بما أنكما لم تؤمنا بى ولم تقدسانى على عيون بنى إسرائيل لذلك لن تدخلا أنتما هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتها إياها».

ولكن حقيقة الأمر أن ذلك كان عقابا لبنى إسرائيل لأنهم خاصموا موسى لإخراجهم من مصر حيث جاء فى الآيات ٣ و٤ و٥ من نفس الفصل فى سفر العدد وهى سابقة للآية التى ادعى موسى بن ميمون أنها عقاب لموسى لشكه فى بنى إسرائيل.. جاء فى تلك الآيات: «وخاصم الشعب موسى وقالوا :«يا ليت أرواحنا فاضت عندما فاضت أرواح إخوتنا أمام الرب. لماذا جئتما بجماعة الرب إلى هذه البرية لنموت ها هنا

وماشيتنا؟ ولماذا أصعدتمانا من مصر فجئتما بنا إلى هذا المكان المشئوم، مكان لا زرع فيه ولا تين ولا كرمة ولا رمان ولا ماء للشرب؟».

فمن الذى يستحق العقاب إذن؟ بنو إسرائيل إذا عصوا؟ أم أنبياؤهم إذا وبخوهم على العصيان؟.

إن موسى بن ميمون - وهو فيلسوف فقيه طبيب - يرى أن العصمة للشعب اليهودى وليست لأنبيائه، وإننا لنتساءل عن وظيفة النبى إذن بين قومه.. هل يجاملهم عندما يعبدون غير الله مخافة أن يعاقبه الله مثلما عاقب إيليا فى رأى موسى بن ميمون لتصديه لعبادة البعل؟ إن وجود الرسل والأنبياء حسب هذا المنطق يكون بلا جدوى.. ولكن حكماء اليهود يحرفون الحقائق حتى فى تراثهم؛ فما بالك بتراث الآخرين؟

مزاعم موسى بن ميمون فى رسالته اليمنية

كتب موسى بن ميمون «رسالته اليمنية»[١] بالعربية فى القاهرة سنة ١١٧٢ من الميلاد ثم ترجمها ناحوم المغربى إلى العبرية بعد ذلك. وتتناول هذه الرسالة ظهور مسحاء فى تلك الفترة التى ساد فيها الاعتقاد بقرب ظهور المسيح المنتظر. وقد كثرت الحركات المسيانية فى ذلك العهد خاصة فى سنة ١٠٩٦ مع بدء الحروب الصليبية ونشوب حروب هائلة بين الصليبيين والمسلمين فى فلسطين، وقد اعتقد اليهود أن هذه هى حرب يأجوج ومأجوج التى سيأتى بعدها الخلاص ولكن بعد كثير من المعاناة والتمحيص. ولجأ علماء بنى إسرائيل إلى عمل حسابات حول نهاية الزمان، معتمدين فى ذلك على آيات توراتية أو على حسابات فلكية.

ولم تكن تلك الحسابات كلها خاطئة، فقد ظهر فى تلك الفترة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى لينقذ القدس من قبضة الصليبيين الذين عاثوا فيها فساداً واضطهادا وليسمح لليهود بدخولها مرة أخرى. بل إن موسى بن ميمون نفسه عاش فى مصر فى ظل التسامح الذى نشره صلاح الدين، ولهذا فإنه يمكن اعتبار «صلاح الدين» بمثابة «مسيح»ولكن بمعنى غير معنى النبوة، وإنما بمعنى الحاكم العادل الذى ينصف الجميع دون تمييز. ولهذا لم يكن غريبا أن يعتبر «قورش» ملك فارس بمثابة «مسيح» لدى اليهود؛ لأنه كان عادلا فى حكمه، وأنقذهم من بطش أعدائهم البابليين، وسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية.

---

(1) Epitres, éd. verdier, p.48

بل إن هناك «كتبا خفية»[١] لليهود تتحدث عن دخول «الملك الثانى» إلى القدس، وما هذا «الملك الثانى» إلا الخليفة الثانى عمر بن الخطاب الذى فتح القدس فى تواضع وزهد وتسامح. ولم يكن عجبا أن يقول كعب الأحبار للفاروق عمر إنه يجد صفته فى التوراة. ولكن الحقيقة هى أن صفة عمر جاءت فى «الكتب الخفية» لليهود التى نشرها بالإنجليزية برنارد لويس.

وقد جاء فى بداية الفصل ٤٥ من القسم الأول من سفر أشعيا :«هكذا قال الرب لمسيحه: لقورش الذى أخذت بيمينه لأخضع الأمم بين يديه».

ويتضح أن كلمة «مسيح» يمكن أن تطلق على الحاكم العادل الذى يقوم بأعمال حاسمة فى التاريخ.

كما تناول موسى بن ميمون بالتحليل فى «رسالته اليمنية» شخصيتى المسيح عيسى بن مريم ونبىّ الإسلام محمد عليهما السلام محاولا تفنيد الآيات التى وردت بشأنهما فى التوراة.

ويقول ابن ميمون إن الملوك الوثنيين حاولوا بالسيف فتنة اليهود عن دينهم، بينما لجأ رجال ماكرون من ممالك أخرى وحكماء يتكلمون بلغات الروم والفرس واليونان إلى أسلوب الجدل ضد الدين والتوراة، وهو نفس غرض المحاربين.

وتحدث ابن ميمون عن ظهور المسيحية قائلا :«ثم ظهرت شيعة جديدة أخطر من المقاتلين والمجادلين؛ لأنها تعلن دينا خارج التوراة وتأتى بتوراة جديدة وتدّعى أنها وحى من الله مثل الأولى؛ لبث البلبلة والشك لأن إحداهما تحرم ما تحلله الأخرى. وصاحب هذه الفكرة هو يسوع الناصرى رغم أن أباه أجنبى لكن أمه إسرائيلية. لقد ادعى يسوع أنه نبى الله أرسله لشرح غوامض التوراة، وأنه المسيح الذى بشرنا به الأنبياء، وقد فسر التوراة بطريقة تؤدى إلى هدمها مع كل وصاياها»[٢].

وذكر ابن ميمون أن دعاوى المسيح أثارت غضب علماء بنى إسرائيل الذين عملوا على أن ينال ما يستحق قبل أن يستفحل خطره.

---

(1) Multiple jérusalem p. 296 édale: 1996.

(2) Epitres: p. 57.

وأضاف ابن ميمون أن دانيال حذر من شخص سيدعى أنه المسيح حيث قال فى الآية ١٤ من الفصل ١١ :«وينهض بنو عتاة شعبك لإتمام الرؤيا فيعثرون».

ولكن الحقيقة أن هذه الآية تتعلق بالحروب بين البطالمة والسلوقيين، ولا علاقة لها بالمسيح، مما يكشف تلاعب موسى بن ميمون فى تأويله للنصوص.

ويقول ابن ميمون بعد ذلك :«وبعد فترة طويلة من ظهور يسوع ظهر دين ينتسب إليه، وقد بدأ من سلالة عيسو رغم أن ذلك لم يكن قصد يسوع ولم يخطر بباله أن يبشر الوثنيين، ومع هذا فإن هذا الدين لم يلحق أذى بإسرائيل».

ويتحدث ابن ميمون عن ظهور الإسلام قائلا: «ثم جاء من بعده (أى بعد المسيح) رجل صنع صنيعه، حيث أراد تغيير ديننا، فقد مهد له يسوع السبيل، كما أراد الرجل السلطة الزمنية والخضوع له، وقد كان ما كان»[1].

ويدعى ابن ميمون أن الفرق بين المسيحية والإسلام وبين اليهودية كالفرق بين إنسان حى وبين صورته المنحوتة فى خشب أو فضة أو ذهب أو حجر. كما ادعى أن المسيحية والإسلام أديان ليس لها عمق.

فى عام ١١٦٣ اعتنق حاخام يهودى اسمه صمويل بن عباس الإسلام وكان أبوه رئيسا للمحكمة الحاخامية فى فاس. وقد ألف صمويل هذا كتاباً عنوانه :«بذل المجهود فى إفحام اليهود» تحدث فيه عن النبوءات التى وردت عن المسيح ونبى الإسلام محمد عليهما السلام فى التوراة. ومن أهم الآيات التى أشار إليها صمويل بن عباس الآية رقم ٢٠ فى الفصل ١٧ من سفر التكوين ونصها ما يلى :«وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه. وهاأنذا أباركه وأنميه وأكثره جدا جدا». وقد أورد صمويل بن عباس (الذى سمى نفسه السموأل المغربى بعد إسلامه) نص هذه الآية بالعبرية وتوقف عند كلمة «جدا جدا» وهى بالعبرية «بماد ماد» قائلا :«فهذه الكلمة «بماد ماد» إذا عددنا حساب حروفها بالجُمَّل كان اثنين وتسعين وذلك عدد حساب حروف اسم (محمد)ﷺ، فإنه أيضا اثنان وتسعون. وإنما جعل ذلك فى هذا الموضوع مُلغزاً لأنه لو صرح به لبدلته اليهود أو أسقطته من التوراة، كما عملوا فى غير ذلك»[2].

ثم يقول السموأل المغربى (صمويل بن عباس) :«وإذا كانت هذه الآية أعظم الآيات

(١) ص ٥٩ من المرجع السابق.

(٢) إفحام اليهود ص ١١٥ و ١١٦.

مبالغة فى حق إسماعيل وأولاده، وكانت تلك الكلمة أعظم مبالغة من باقى كلمات تلك الآية، فلا عجب أن تتضمن الإشارة إلى أجلّ أولاد إسماعيل شرفًا وأعظمهم قدرا ﷺ وآله وصحبه وسلم»[1].

وهنا نأتى إلى رد موسى بن ميمون على صمويل بن عباس لنرى مدى تهافته حيث قال تعليقا على الآية السابقة: «لو أن المقصود هو خروج نبى من سلالة إسماعيل لقيل: «وأباركه جدا جدا» ولكنه قال «وأكثّره جدا جدا» فعلم أن الأمر يتعلق بكثرة العدد»[2] وادعى ابن ميمون أن كل البركات التى وعد الله بها إبراهيم إنما هى لسلالة إسحق لا لإسماعيل؛ لأنه منبوذ فإسحاق فى رأيه هو الجوهر وإسماعيل هو العرَض.

لكن الغريب أن موسى بن ميمون تجاهل كلمة «وأباركه» التى وردت فى هذه الآية نفسها «وهاأنذا أباركه وأنميه وأكثره جدا جدا».

وكان موسى بن ميمون قد بعث برسالته اليمنية إلى تلميذه يعقوب الفيومى الذى كان قد كتب إلى ابن ميمون بأن عددا من يهود اليمن بدأوا يشكون ويقولون: ربما كان سيدنا موسى يشير إلى محمد ﷺ بقوله: «نبيا مثلى من وسطك من إخوتك».

وذلك فى إشارة إلى الآية ١٥ من الفصل ١٨ من سفر تثنية الاشتراع ونصها: «يقيم لك الرب إلهك نبيا مثلى من وسطك من إخوتك فله تسمعون».

وقد أنكر ابن ميمون أن هذه الآية يمكن أن تدل على المسيح أو على نبى الإسلام عليهما السلام؛ بل يتمادى فى مزاعمه قائلا: «أخبرنا العلماء أن الرب أرسل نبيا بالتوراة إلى أدوم، ثم إلى إسماعيل بالتوراة، فلم يقبلوا، فأرسل إلينا موسى»[3]. وأدوم رمز للمسيحيين، وإسماعيل رمز للمسلمين.

ونحن نرى أن الآية ٣٣/ ٢ فى سفر التثنية ونصها «أقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وسطع من جبل فاران» من أوضح النبوءات التى تشير إلى الأديان الثلاثة حتى بترتيبها الزمنى.

ورغم كل دعاوى ابن ميمون فى هجومه على المسيحية والإسلام، فإنه يرى أن

---

(١) ص ١١٧ من المرجع السابق.

(٢) ص ٧٣ من رسائل ابن ميمون بالفرنسية «Epitres».

(٣) ص ٧٥ من المرجع السابق.

كلمات يسوع الناصرى وكلمات الإسماعيلى الذى ظهر من بعده تمهد السبيل لظهور الملك المسيح وإصلاح العالم لعبادة الله كما جاء فى نبوءة صفينا :«لأنى حينئذ أجعل للشعوب شفة نقية ليدعوا جميعا باسم الرب».

ويدعو ابن ميمون اليهود إلى احتمال ما سماه بخداع إسماعيل وإيذائه وأكاذيبه، ويطلب منهم التزام الصمت استنادا إلى أسماء ثلاثة من بنى إسماعيل وهم «مشماع ودومة ومسا» ومعناها «اسمع واصمت وتحمل». وإلى قول داود فى المزمور ٣٨: «أما أنا فكالأصم لا يسمع وكالأخرس لا يفتح فاه».

. ويقول ابن ميمون :«إن الله أوقعنا بسبب خطايانا فى قبضة هذه الأمة الإسماعيلية التى تمقتنا وتلحق الأذى بنا. ولم يعرف إسرائيل أمة أكثر عداوة وإيذاء من العرب»[١]. ويشير إلى قول داود فى المزمور ١٢٠ :«ويل لى فإنى فى ماشك نزلت وفى خيام قيدار سكنت». وقال إن داود أشار إلى قيدار لأن محمدا نبى الإسلام من سلالته.

كما يقول ابن ميمون :«أما دانيال فإنه لا يصف ضعفنا إلا فى ملك إسماعيل نزعَهُ الله»[٢] حيث يقول دانيال :«وتعاظم حتى جيش السماء، وأسقط على الأرض بعض الجيش والكواكب وداسها» وقبل ذلك أفتى موسى بن ميمون فى رسالته حول الاضطهاد بجواز تظاهر اليهودى بالإسلام، وأوضح أن المساجد لا يمكن اعتبارها بيوتا للأوثان، وأن «اضطهاد» اليهود فى ظل المسلمين يعتبر «أروع اضطهاد»[٣] لأنه لا يزيد على ارغام اليهودى على النطق بكلمات الشهادتين، بينما كان الرومان يذيقون اليهود ألوانا من التنكيل مثل إرغامهم على أكل لحم الخنزير وتدمير معابدهم ومنعهم من الختان ومن احترام السبت ومن دراسة التوراة.

من هنا يتضح بعض التناقض بين أقوال ابن ميمون فى رسالة الاضطهاد وأقواله فى «رسالته اليمنية» التى ادعى فيها أن النبوة ستعود إلى بنى إسرائيل، وهذه النقطة الأخيرة هى سبب كل الحقد الذى يحمله اليهود للمسيحية والإسلام معًا؛ حيث بعث الله إليهم المسيح فكفروا به فحولت رسالته إلى الوثنيين، ثم انتزع الله النبوة منهم إلى الأبد عندما

---

(١) ص ١٠٥ من المرجع السابق.

(٢) ص ١٠٥ نفس المرجع.

(٣) ص ١٢ و٣٨ من رسائل ابن ميمون.

بعث محمـدا ﷺ بالرسالة إلى الإنسانية كلـها بعد أن كانت الأديان السابقـة بمثابة أديان جزئية إلى أقوام بعينهم.

والغريب أن موسى بن ميـمون عاش فى تسامح لا مثيل له فى مـصر فى القرن الثانى عشـر، ورغم هذا فإنه يتحـدث عن إيذاء العرب لليـهود بصورة تدل دلالة قـاطعة على طريقة اليهود، حيث يظهرون غير ما يضمرون ويخادعون المجتمع الذى يعيشون فيه.

ويتضح ذلـك بجلاء من قول ابن مـيمـون فى رسالتـه اليمنيـة لتلميذه «ابـعث بهذه الرسالة إلى كل أبناء الطائفـة لشد أزرهم، ولكن حذار من الكشف عنها للإسمـاعيليين مخافة وقوع ما لا تحمد عقباه»[1].

ورغم هذا كله فقـد أقيم احتفال فى مـصر سنة ١٨٣٥ بالذكرى المئوية الثـامنة لميلاد موسى بن ميمون، وكان لشاعر القطرين خليل مطران قصيدة فى هذه المناسبة قال فيها:

حلَّ مـــــوسى فى أرضنـا بعـــــد مـــــوسى
وكـــــلا الصـــــاحِـــــبَـــــيْن ذو آيـات

وهذا هو الفرق بين التعـصب اليهودى وضيق الأفق اليهودى وبين التـسامح العربى الأصيل الذى لابد أن ينتصر فى النهاية وهو تسامح قرره القرآن الكريم فى الآية ١٣ من سورة «الحجـرات» حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.



(١) ص ١٠٨ من المرجع السابق.

الباب الثامن

اليهودى الذى هدم الهيكل

كانت القدس منذ خمسة آلاف عام فى العصر البرونزوى قرية كنعانية يحميها سور. وقد ظهر اسمها لأول مرة فى التاريخ عام ٢٥٠٠ ق. م على تماثيل مصرية صغيرة، ثم اختفى اسمها طوال خمسة قرون ولم يظهر مرة ثانية إلا فى القرن السادس عشر قبل الميلاد عندما أرسل الملك عبد حيبا وهو آخر ملوك الكنعانيين - وكان خاضعا لمصر - يطلب العون من تحوتمس الأول فرعون مصر ليحميه من أعدائه، وذلك فى عام ١٥٥٠ ق. م.

وعندما وصل العبريون بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان كان اسم القدس «يبوس» نسبة لليبوسيين، ولم يكن يقيم فيها أكثر من ألف نسمة، ولم يَسْعَ العبريون للسيطرة عليها.

ولا ريب فى أن «أوروسالم» وهو أقدم أسماء القدس كانت تضم معابد قديمة جدا وقد دلت على ذلك ألواح اكتشفت مؤخراً فى سوريا، ويرجع تاريخها إلى أكثر من خمسة آلاف سنة وتتحدث عن عبادة الإله سالم فى مدينة «أوروسالم». وفى عهد الكنعانيين كان يعبد فيها بعل ومولوخ.

فى نوفمبر عام ١٩٩٥ أصدرت مجلة «لونوفيل أوبزرفاتور»(١) الفرنسية عددا خاصا عن القدس، ولا بأس بعرض ما جاء فيه لأنه يعرض لوجهة النظر اليهودية حيث قالت جوزيت أليا Josette Alia: «يبدو واضحا أن الشعب اليهودى لم يستقر قط فى القدس فى فترة التيه الطويلة ولا أثناء الاستيلاء الدموى على الأرض المقدسة بين القرنين الخامس عشر والثانى عشر قبل الميلاد، ولم تبدأ علاقة اليهود بالقدس إلا فى عهد الملك داود الذى جعل من القدس عاصمة دينية وسياسية حقيقية».

وكان تابوت العهد الذى يعتبر عند اليهود رمزا للحضور الإلهى ينتقل مع اليهود عبر الصحارى طيلة عدة قرون ثم استقر نحو عشرين عاما فى قرية يعاريم قرب القدس.

---

(١) عدد ٢٣ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٥.

وفى تلك القرية توج داود ملكا لبنى إسرائيل فأخذ تابوت العهد ونقله إلى القدس التى أرادها عاصمة لملكه وكان اسمها آنذاك «يبوس» .

وترى جوزيت أليا أن داود قد حقق بذلك هدفين: أما الأول فإنه باختياره «يبوس» وهى مدينة «محايدة» لا تنتمى لسبط بعينه من أسباط بنى إسرائيل قد جعل منها رمزا للشخصية الوطنية وتجاوز الخلافات بين الأسباط لتعزيز وحدته الملكية.

وأما الهدف الثانى فإنه بنقل تابوت العهد إلى «يبوس» قد حوَّل اليهودية من دين للبدو إلى دين للحضر المقيمين.

ويرى بعض المتخصصين أن سفر التكوين قد كتب فى المنفى البابلى بهدف واضح هو توثيق العلاقات بين القدس وبين الشعب اليهودى الذى كان آنذاك فى أرض الشتات؛ حيث يتحدث السفر المذكور عن لقاء إبراهيم عليه السلام مع ملكى صادق «ملك السلام».

وأصبحت القدس مدينة مقدسة عند اليهود ورمزا لوحدة الشعب اليهودى الذى يطلق عليها «صيهون» أيضا. واشتد ارتباط اليهود بجبل الهيكل حيث تحدثت أسفارهم المقدسة عن وقوع حوادث كبار عليه مثل: موت وتضحية إبراهيم، وظهور المسيح، وقيام القيامة.

أما عارف باشا العارف الذى ولد فى القدس عام ١٨٩٢ والذى صدر عليه حكم بالإعدام مع أمين الحسينى «مفتى القدس» عام ١٩٢٠ ثم خفف الحكم بعد ذلك، فإنه يقول فى كتابه: «تاريخ القدس» إن القدس فى البداية كان اسمها «يبوس»(١) وقد بناها اليبوسيون وهم بطن من بطون العرب الأوائل نشأوا فى الجزيرة العربية ونزحوا عنها مع بعض القبائل الكنعانية وذلك حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد واستوطنوا أرض كنعان «وهى فلسطين اليوم». ومن ملوكهم ملكيصادق وهو أول من بناها وقد عرف بالتقوى وكان محبا للسلام حتى أطلق عليه «ملك السلام» ومن هنا جاء اسم المدينة «سالم» أو «شالم» وخضعت يبوس لفراعنة مصر خضوعاً تاما فى عهد تحوتمس الثالث عام ١٤٧٩ ق. م. ولم يحاول المصريون تمصيرها بل اكتفوا بتحصيل الجزية من سكانها. وكان المصريون يطلقون عليها تارة اسمها اليبوسى «يا بيشى» وتارة أخرى اسمها الكنعانى «أورو سالم».

---

(١) تاريخ القدس ص ١١.

واحتل العبريون يبوس فى عهد داود. ويرى المؤرخ برستيد أن يبوس كانت قبل احتلالها ذات حضارة وفيها حكومة وصناعة وتجارة وديانة، فاقتبس العبرانيون هذه الحضارة من يبوس، وغادروا الخيام، وسكنوا فى بيوت مثل بيوت الكنعانيين.

وقد أراد داود بناء هيكل فى القدس فابتاع من أرنان اليبوسى أرضه الواقعة على تل موريا، ولكنه مات عام ١٠١٥ ق. م دون أن يحقق حلمه. ثم جاء ابنه سليمان فحقق هذا الحلم عام ١٠٠٧ ق. م. وظلت القدس أربعة قرون يحكمها اليهود حتى فتحها البابليون بقيادة نبوخذ نصر وسبى أهلها وأرسلهم الى بابل فى عام ٥٨٧ ق. م. ولكن قورش ملك فارس سمح للعبريين بالعودة من المنفى عام ٥٣٨ ق. م.

وقد أوردت جوزيت أليا رأى البروفسور فيربلوسكى أستاذ علم الأديان المقارن بالجامعة العبرية فى القدس عن تأثير المنفى البابلى على اليهود حيث قال: «القد تحدد مستقبل الشعب اليهودى فى تلك الفترة؛ فقد كان الأسر البابلى مأساويا ولكنه كان قصيراً نسبيا حيث امتد نحو خمسين عاما وهى فترة وجيزة بالنسبة للتاريخ. ويومئذ تعلم اليهود الحياة فى المنفى، ولكنه كان منفى بدون يأس ومرحلة ترقب، حيث تجمعوا فى معابد كانت قبلتهم فيها إلى أورشليم المفقودة. ثم لاحظوا أن الله لم ينسهم وأنهم استطاعوا العودة إلى ديارهم وأن يعيدوا بناء الأطلال وإقامة هيكل لهم.

لقد كانت هذه التجربة بمثابة «تدريب أول» قبل الشتات الكبير الذى أعقب هدم الهيكل الثانى. وأعتقد أنه لولا تجربة الأسر البابلى لما استطاعت اليهودية البقاء فى مواجهة محنها التالية».

وننظر بعد ذلك فيما ورد فى «العهد القديم» بشأن تاريخ بنى إسرائيل والهيكل معتمدين فى ذلك على الترجمة العربية التى أنجزتها الرهبانية اليسوعية فى عام ١٨٨١م وأسهم فى صياغتها الشيخ إبراهيم اليازجى.

وقد جاء فى مقدمة الطبعة الثانية للعهد القديم الصادرة عن «دار المشرق» فى بيروت عام ١٩٩١ أن دخول بنى إسرائيل فى التاريخ كان حوالى سنة ١٢٠٠ ق. م وأن أجداد بنى إسرائيل كانوا بين شبه البدو السابقين الذين ظلوا يتنقلون طوال الألف الثانى قبل الميلاد على حدود شبه صحراء الهلال الخصيب. وكان دخول قبائلهم الهاربة من مصر تسللات سلمية إلى مناطق قليلة السكان، لكنهم اضطروا فى بعض الأماكن إلى محاربة المدن الكنعانية.

ومن رؤساء الأسباط الذين اشتهروا فى تلك المعارك يشوع رئيس سبط أفرائيم، وهو المعروف فى التراث الإسلامى باسم يوشع بن نون. ثم أصبح بنو إسرائيل شعبا لكن بنيته الأساسية ظلت غير ثابتة. وازداد إتحاد الأسباط قوة فى القرنين الثانى عشر والحادى عشر حيث كان عليهم مواجهة عدة مخاطر تتمثل فى البدو الغزاة وممالك عبر الأردن والمدن الكنعانية، ولكن أكبر المخاطر كان مصدره من الفلسطينيين الذين كانوا فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد يقيمون على الشاطئ الفلسطينى. واقتصر الأسباط لمدة طويلة على تحالفات دفاعية محدودة ومؤقتة بقيادة رؤساء ملهمين أطلق عليهم اسم «القضاة» لكن قبائل بنى إسرائيل أرادت تثبيت تماسكها أمام خطر الهجوم الفلسطينى فأقامت على رأسها ملكا مثل الشعوب المجاورة.

وبعد فشل مملكة شاول، اعترف جميع الأسباط بداود اليهودى ملكا قبيل عام ١٠٠٠ ق. م، فحارب الفلسطينيين على الشاطئ وشن هجمات ضد الآراميين فى الشمال.

وأخذ داود فى الوقت نفسه ينظم مملكته، فأقام عاصمته فى أورشليم ونقل إليها تابوت العهد وهو مركز العبادة المشتركة عند الأسباط. أما ابنه سليمان فإن ذروة أعماله تعد بناء هيكل أورشليم الذى يرى فيه بنو إسرائيل علامة الحضور الإلهى الدائم فى وسط شعبه ومركز تجمع الأسباط والبرهان القاطع على أن شعب الله أصبح شعبا قائما ومقيما على ارضه.

وقد جاء فى «سفر صموئيل الثانى» عن استيلاء داود على القدس: «وزحف الملك ورجاله على أورشليم على اليبوسيين سكان تلك الأرض. فكلموا داود وقالوا: إنك لا تدخل إلى ها هنا؛ فحتى العميان والعرج يصدونك، لكن داود أخذ حصن صهيون وهو مدينة داود».

وقد أراد داود بناء هيكل للرب، لكنه منع من ذلك طبقا لنبوءة ناتان النبى فى الفصل السابع من سفر صموئيل الثانى مما يدل على وجود تيار معاد للهيكل حيث كان ناتان يرى المحافظة على التقليد القديم المتمثل فى التابوت والمعارض لبناء الهيكل؛ لأنه على مثال ما كان من هياكل فى أرض كنعان. وسوف تحل هذه المشكلة بجعل التابوت فى الهيكل الذى سيبنيه سليمان.

وقد جاء فى الفصل الثالث من «سفر الأخبار الثانى» عن بناء الهيكل: «وبدأ سليمان

فى بناء بيت الرب فى أورشليم فى جبل الموريا حيث تراءى لداود أبيه فى المكان الذى أعده فى بيدر أرنان اليبوسى».

وإذا كان ناثان النبى كما سبق معاديا لفكرة بناء الهيكل، فإن النبى إرميا الذى شهد سقوط أورشليم عام ٥٨٧ ق. م فى أيدى البابليين كان يرى أن الهيكل وحده غير كاف لإنقاذ الشعب؛ لأن الله يمكن أن يهجر هيكله.

وجاء فى سفر إرميا: «لا تتكلوا على قول الكذب قائلين: هذا هيكل الرب، هيكل الرب، هيكل الرب» . ثم يقول «أفصار هذا البيت الذى دعى باسمى مغارة لصوص أمام عيونكم؟ بل هذا ما رأيت أنا ، يقول الرب». وهو نص بالغ الأهمية.

ويروى الفصل ٢٦ من سفر إرميا تعرض هذا النبى للتهديدات بسبب انتقاداته اللاذعة فى شأن الهيكل، وذلك فى أوائل عهد يوياقيم حوالى عام ٦٠٨ ق. م .

ونود أن نشير هنا إلى حدث هام وهو أن يهوديا شهيرا فى عصره قد شارك فى هدم الهيكل مع القوات الرومانية عام ٧٠م، هذا اليهودى هو تيبريوس جوليوس ألكسندر الذى كان من أسرة يهودية ثرية ذات مكانة كبيرة فى الإسكندرية. وكان أبوه الكسندر أخًا للفيلسوف المعروف فيلون.

وقد عين تيبريوس عام ٤٦م واليا على إقليم اليهودية حتى عام ٤٨م، وفى عام ٦٣م كان ضابطاً كبيرا فى جيش الشرق فى أرمينيا، وفى عام ٦٦م عاد إلى مصر وعينه نيرون حاكماً عليها حتى عام ٧٠م.

وفى عام ١٩٩٠ صدر فى باريس كتاب عنوانه «تاريخ يهود النيل» Histoire des juifs du Nil تحت إشراف جاك حسون وهو يهودى من أصل مصرى وجاء أول أبواب هذا الكتاب تحت عنوان «يهود مصر فى العصر القديم» وقد كتبه جوزيف ميليز مودرز يوفسكى وهو بولندى وأستاذ للتاريخ القديم فى جامعة السوربون وقد ذكر مودرز يوفسكى فى بحثه هذا أن تبيريوس الذى يعتبره اليهود مرتدا رافق تيتوس فى الحرب اليهودية واشترك فى حصار أورشليم حيث كان مستشارا لتيتوس ورئيسا لأركانه عام ٧٠م عند هدم الهيكل . ويبدو أن تيبريوس لم يتأثر بهدم الهيكل لأنه «لم يعد يهوديا» حيث يصفه المؤرخ يوسيفوس بالخائن. وقد ذهب هذا اليهودى إلى روما عام ٧١م وأصبح الشخصية الثانية بعد الإمبراطور. وكان تيتوس الذى أصبح امبراطوراً فيما بعد ابنا للامبراطور فسباسيان ونائبا له عند هدم الهيكل.

وواضح تماماً من كل ما سبق أن هدم هيكل سليمان وهو الهيكل الأول عام ٥٨٧ ق. م على يد نبوخذ نصر أو بخت نصر ملك بابل، ثم هدم الهيكل الثانى عام ٧٠ بعد ميلاد المسيح عقابا لليهود على معاصيهم وخياناتهم كما جاء فى كتبهم المقدسة كان قبل ظهور الإسلام بمئات السنين.

ولما فتح عمر بن الخطاب القدس رفض الصلاة فى كنيسة القيامة، وأزال القمامة عن صخرة قيل إن إبراهيم عليه السلام أراد ذبح ابنه عليها لما أُمر بذلك.

وخلاصة القول أن تاريخ الإسلام لا يعرف الهدم ولا الإبادة.. لا يعرف هدم معابد الآخرين ليقيم عليها مساجده، ولا إبادة الشعوب التى تخالفه فى العقيدة.

أما المسجد الأقصى فليس هناك أى دليل على وجود علاقة مكانية بينه وبين الهيكل سوى أن المسجد الأقصى بنى فى القدس وكان ذلك فى العهد الأموى.

وهنا قد ينشأ لبس يستحق الإيضاح.. فقد جاء فى أول سورة الإسراء.. ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء: ١]. فقد يتساءل البعض عن كيفية وجود المسجد الأقصى الذى نعرفه اليوم والذى تشير إليه الآية القرآنية بمناسبة الإسراء وكان ذلك قبل فتح القدس مع أن هذا المسجد الأقصى قد بنى فى العهد الأموى؟ وحقيقة الأمر أن المسجد الحرام هنا قد أطلق على مكة المكرمة من قبيل إطلاق الجزء على الكل؛ حيث إن النبى عليه السلام قد أسرى به من بيت أم هانئ بالإضافة إلى أن مكة كلها حرم.. كما أن المسجد الأقصى هنا أيضا قد أطلق على بيت المقدس من قبيل إطلاق الجزء على الكل.

ويمكن القول أيضا إن إطلاق المسجد الأقصى على هذا المكان المقدس إنما كان باعتبار ما سيكون، وهو أمر معروف فى البلاغة العربية. مثلما ورد فى سورة «يوسف»: ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ مع أن العنب هو الذى يعصر، فكان إطلاق الخمر هنا باعتبار ما سيكون.

وحيث إن القدس فى نظر الإسلام الذى آمن بكل الأنبياء مكان مقدس، فقد أقام فيها المسجد الأقصى ليكون رمزا للقاء بين الأديان السماوية فى «مدينة السلام» التى تعد صورة «لدار السلام» التى أشار إليها القرآن الكريم.

وما الذى يجعل الإسلام يحترم معابد المسيحيين مثلما دلت عليه حادثة عمر مع

كنيسة القيامة ولا يحترم معابد اليهود وهو الذى وضع الأساس لحرية الأديان والعقائد فى نصوص واضحة؟!

فقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].. ونلاحظ هنا أن كلمة مساجد جاءت بعد الصوامع والبيع والصلوات.

ولقد عاش اليهود فى ظل الحضارة العربية أزهى عصورهم؛ شهدت بذلك أرض الأندلس، حتى إذا طردهم منها الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢، أبت أوروبا إيواءهم، ولم يقبل إيواءهم إلا الدولة العثمانية.

وما ذلك إلا دليل على تسامح وروحانية الإسلام، وما الروحانية فى حقيقتها إلا تسامحٌ وانفتاح على كل الآفاق.



الباب التاسع

عبد الملك بن مروان ليس يوبعام بن نباط

[مزاعم حول عبد الملك وقبة الصخرة]

أصدر أميكام إيلاد وهو مؤرخ متخصص فى الإسلام فى الجامعة العبرية عام ١٩٩٥ كتابًا بالإنجليزية عنوانه: «القدس فى العصر الوسيط والعبادة الإسلامية». ويضم الكتاب بابا عنوانه «الوضع السياسى والدينى للقدس فى العهد الأموى»[1] حاول فيه إثبات أن عبد الملك بن مروان قد بنى مسجد قبة الصخرة لأسباب سياسية لمنع المسلمين فى الشام من الحج إلى مكة المكرمة حتى لا يتعرضوا لضغوط قد تجعلهم يبايعون منافسه عبد الله بن الزبير بالخلافة.

وأخذ المؤرخ اليهودى يستعرض بالتفصيل آراء المؤيدين لهذه الفكرة ومنهم بالمر الذى حلل فى عام ١٨٧١ الحوادث السياسية فى عهد عبد الملك، ويرى أنه منع المسلمين فى الشام من الحج خوفًا من تأثير ابن الزبير. ويقول أميكام إيلاد إن بالمر كان أستاذًا للعربية فى كمبريدج، وإنه لم يذكر مراجعه التى يستند إليها فى رأيه، ولكنه رغم ذلك متخصص كبير فى الأدب العربى وحجة فى هذا الميدان.

كما يورد المؤرخ اليهودى رأى كليرمون جانو الذى ادعى أن عبد الملك أنشأ قبة الصخرة ليطوف حولها المسلمون مثلما يطوفون حول الكعبة، وأن عبد الملك عمل فى مواجهة من عارضوه على نشر حديث المساجد الثلاثة الذى رواه ابن شهاب الزهرى.

أما فلهاوزن فإنه يرى أن الأمويين حاولوا دعم مكانة سوريا السياسية، وأنهم حاولوا نقل الأماكن المقدسة إليها بسبب سيطرة ابن الزبير على مكة طيلة عشر سنوات وتلك كانت حجة عبد الملك لمنع الحج وتحويله إلى القدس حيث بنى قبة الصخرة، ولكن فلهاوزن يرى أن عبد الملك تراجع عن اعتبار القدس بديلا لمكة بعد أن بسط سلطته المطلقة فى سوريا، وأنه حاول أن يجعل لبلاد الشام مكانة تضارع مكانة المدينة المنورة

---

(١) نشر هذا الباب فى كتاب بالفرنسية يضم وجهات نظر مختلفة حول القدس وعنوانه: Multiple Jérusalem.

واستند فلهاوزن فى ذلك إلى رواية نقلها عن الطبرى وجاء فيها أن عبد الملك حاول - مثل معاوية من قبله ومثل الوليد من بعده - نقل منبر النبى عليه السلام من المدينة المنورة إلى الشام.

ثم جاء جولدزيهر فى دراسة أعدها فى عامى ١٨٨٩/ ١٨٩٠ ليبلور كل الآراء السابقة ويدعى أن الطموح إلى إثبات قدسية سوريا وفلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة كان خطة للدوائر السياسية السورية، وأن الأمويين نشروا الأحاديث النبوية التى راقت لهم عن بيت المقدس.

ويدعى جولدزيهر أن ابن شهاب الزهرى قد اختلق حديث المساجد الثلاثة لعبد الملك بن مروان؛ وذلك لمواجهة ابن الزبير الذى أراد إرغام الحجاج على مبايعته. وكان المرجع الوحيد الذى استند إليه جولدزيهر هو تاريخ اليعقوبى؛ وقد توصل هذا المستشرق إلى أن ابن شهاب الزهرى كان يعمل لخدمة أهداف خلفاء بنى أمية وأنه روى لهم هذا الحديث لتأييد بناء قبة الصخرة.

وينطوى هذا الرأى على أمرين:

الأول: أن عبد الملك بن مروان أقدم على بناء قبة الصخرة لأغراض سياسية.

والثانى: أن ابن شهاب الزهرى لفق حديث المساجد الثلاثة لخدمة أهداف عبد الملك.

وقد بلغ اهتمام الباحثين اليهود بهذه المسألة التى يريدون من ورائها نسف الأساس الدينى للمسجد الأقصى إلى درجة تقديم بحث خاص عن ابن شهاب الزهرى أعده مايكل ليكر فى ندوة بالجامعة العبرية بالقدس يوم ٥ سبتمبر ١٩٩٣. وسوف نفند هذه الآراء الواهية، ولكننا نستعرض أولاً ردود بعض المستشرقين عليها والتى أوردها المؤرخ الإسرائيلى أميكام إيلاد نفسه:

فقد فند جويتن آراء جولدزيهر وأوضح فى بحث عنوانه «قداسة القدس وفلسطين فى صدر الإسلام» نشر عام ١٩٦٦ أن إضفاء قدسية على فلسطين كان من عمل الدوائر الدينية لا السياسية.

بينما يرى هيرشبرج فى بحث عنوانه «مكانة القدس فى العالم الإسلامى» أن أهمية القدس تستند إلى وجهة نظر دينية فقط بل إنه يقول.. «من المثير أن القدس لم يكن لها إلا دور محدود فى الإطار السياسى للإسلام». وانتهى هيرشبرج فى بحثه حول قداسة

القدس إلى رأى يشبه رأى جويتن حيث قرر أن «الروايات عن القدس لا علاقة لها بالسياسة الأموية».

أما كيستر: فإنه يرى فى مقال عن «حديث المساجد الثلاثة» أنه كان هناك إجماع بين المسلمين على قداسة القدس فى نهاية النصف الثانى من القرن السابع وبداية القرن الثامن للميلاد، وأن حديثًا نبويًا مهما يؤكد هذا الاتجاه وهو الحديث الذى يجيز شد الرحال إلى المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى، وأن ثمة آخرين غير الزهرى كانوا رواةً لهذا الحديث.

وقد أشار جويتن إلى عامل آخر أثر فى الاهتمام بالأرض المقدسة وهو الصراع الطويل مع بيزنطة؛ حيث استخدم الأمويون ذلك للحث على التطوع للقتال على الجبهة السورية.

ويرى جويتن أن الرأى القائل بأن قبة الصخرة قد بنيت لتحويل الحج عن مقدسات الإسلام ليس له أى أساس وأن هذه القبة بنيت لتلبية الحاجات الثقافية للجيل الثانى من المسلمين، كما أن هدفها حسبما يتضح مما هو مكتوب عليها هو أن تكون وسيلة للنقاش والتنافس مع المسيحيين لدفعهم إلى اعتناق الإسلام الذى يضم دينهم فى طواياه.

ويؤيد معظم الباحثين رأى جويتن الذى قرر أن إنشاء قبة الصخرة كان بدوافع دينية، وقليلون جداً يرون رأى جولدزيهر الذى يدعى أنه كانت هناك دوافع سياسية وراء بناء قبة الصخرة، وأن عبد الملك أراد بذلك نقل المركز السياسى والدينى إلى القدس.

ويدعى الباحث الإسرائيلى أميكام إيلاد أن عدداً من المؤرخين يرون أن بناء قبة الصخرة يدل على رغبة إسلامية فى إعادة بناء الهيكل؛ حيث يقول هاملتون إن الصخرة كانت عند عبد الملك رمزاً لهيكل سليمان أو لمحراب داود[1].

كما يدعى أن تقديس الصخرة راسخ فى التراث اليهودى الذى تم تعديله حتى لا يناقض الاتجاهات الإسلامية.

ويشير إيلاد إلى كتاب مهم ألفه كرون وكوك بالإنجليزية عنوانه:

"Hagarism: The making of the Islamic world"

(١) ص ٢٩٥ من المرجع السابق.

وقد صدر عن مطبعة جامعة كمبريدج عام ١٩٧٧.. ويعتقد المؤلفان أن المسلمين كانوا فى البداية يريدون حقًا إعادة بناء الهيكل اليهودى، وحاولا الاستناد إلى سفرين يهوديين حول نهاية العالم، وكان مرجعهما فى ذلك كتاب عنوانه «أسرار سيمون بن يوحاى» وقد صدر بالإنجليزية عام ١٩٥٠، وقد جاء فى «أسرار سيمون بن يوحاى» أن الملك الثانى سيرمم أنقاض ساحة الهيكل ولكنه سيقيم مسجداً فى هذا المكان على الصخرة. ويشير إيلاد إلى أن هذا «الملك الثانى» ربما يكون هو الخليفة الثانى عمر بن الخطاب[١].

ولا شك أن هذه المعلومات الأخيرة ترتبط بالأسفار الخفية لليهود والتى تستحق الكشف عنها ودراستها لمعرفة حقيقتها.

وقد تحدث د. على عبد الواحد وافى عن هذه الأسفار الخفية بإيجاز شديد فى كتابه عن الأسفار المقدسة قبل الإسلام، وذلك فى إشارة لا تفيد القارئ شيئًا عما فى هذه الكتب الخفية.. ولم يكن من الغريب إذن أن يقول كعب الأحبار لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إنا نجد نعتك فى التوراة» ونحن لا نستبعد صحة هذه الرواية رغم تشكيك بعض الباحثين فيها وظنهم أن كعبًا أراد بذلك نوعًا من المجاملة لعمر. والحقيقة أن التراث العبرى يستند كثيراً إلى النبوءات، ولكن المهم هو تأويلها تأويلا صحيحًا وفهم رموزها فهمًا غير سقيم.

ولهذا فقد اختلفت التفسيرات والتأويلات لسفر حزقيال وسفر دانيال. ورأينا سفر أشعيا مثلاً يتنبأ بإقامة هيكل يهودى فى مصر فى عهد البطالمة وهو هيكل أونيًا الذى أقيم فى ليونتوبوليس قرب هليوبوليس وأريد به أن يكون بديلا لهيكل فلسطين. وقد بناه الكاهن أونيا الذى فرت أسرته من فلسطين التى كانت خاضعة للسلوقيين حكام منطقة الشام ومنافسى البطالمة حكام مصر. وقد وافق البطالمة على بناء هيكل أونيا وموقعه اليوم منطقة «تل اليهودية» وذلك فى مقابل تكوين فيلق يهودى يحارب فى جيش البطالمة.

ولا شك أن إقامة مثل هذا الهيكل تتعارض مع «شريعة وحدة الهيكل» التى تنص على ضرورة وجود «هيكل واحد» لليهود جميعًا فى العالم مثل وجود «كعبة واحدة» للمسلمين.

---

(١) ص ٢٩٦ من المرجع السابق: ومما يجب ذكره هنا أن سيمون بن يوحاى شخصية مهمة فى العلوم الباطنية فى اليهودية.

ولكن اليهود لم يكن لهم هيكل واحد؛ فقد افترقوا شيعًا وأحزابًا، وكان لهم هيكل ثالث فى جرزيم قرب نابلس، وهو لليهود السامريين الذين يقدسون جبل جرزيم بدلاً من جبل صهيون.

أما القرآن الكريم فقد أشار إلى كتب اليهود الخفية (التى ظهرت أخيراً فى منتصف القرن العشرين وتحدث عنها الباحثون الأوربيون) حيث قال فى الآية رقم ٩١ فى سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

***

القدس الإسلامية.. البدايات

إن الأساس الديني للمسجد الأقصى في الإسلام قد تجلى بصورة واضحة في الإسراء والمعراج؛ وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية الأولى من سورة الإسراء حيث قال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بعَبْده لَيْلاً مّنَ الْمَسْجد الْحَرَام إلَى الْمَسْجد الأَقْصَا الَّذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لنُريَهُ منْ آيَاتنَا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ولقد كان حادث الإسراء قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل بسنة واحدة، وذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» أن النبي ﷺ أسرى به من المسجد الحرام وقيل من بيت أم هانئ بنت أبي طالب وأصحاب هذا القول الأخير يقولون إن الحرم كله مسجد[(١)].

وأوضح ابن الأثير أن حديث الإسراء قد رواه جماعة من الصحابة بأسانيد صحيحة، وقص ابن الأثير حديث الإسراء الذي ركب فيه نبي الإسلام البراق من مكة إلى بيت المقدس وفي الطريق قال له جبريل: انزل فَصَلِّ وكان ذلك في طيبة أي المدينة المنورة التي إليها الهجرة، ثم صلى في طور سيناء حيث كلم الله موسى، وصلى كذلك في بيت لحم حيث ولد عيسى، ثم سار جبريل ومحمد عليهما السلام حتى بيت المقدس، وهناك التقى بأرواح الأنبياء الذين أقروا بالوحدانية لله وصلى بهم ركعتين.

ثم انطلق به جبريل إلى الصخرة وصعد به عليها، فإذا معراجٌ إلى السماء تعرج الملائكة منه، وأصله في صخرة بيت المقدس، والتقى بالأنبياء في السماوات السبع؛ أولهم آدم في السماء الدنيا، وآخرهم إبراهيم في السماء السابعة وفيها البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، وانتهى إلى سدرة المنتهى التي يخرج من أصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران؛ فأما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، وظل رسول الله ﷺ يعرج حتى وصل إلى العرش وهناك فرضت عليه الصلاة[(٢)].

ويتضح من هذا السرد الموجز لحادثة الإسراء والمعراج ربط الإسلام بين الأديان

---

(١) الكامل ج ١ ص ٥٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٥٨٠.

جميعًا؛ فقد صلى نبى الإسلام فى طور سيناء وبيت لحم، وأمّ الأنبياء والتقى بآدم وهو أبو الإنسانية كلها، والتقى بإبراهيم وهو أبو الأنبياء.

والآيات فى القرآن قبل الإسراء وبعده تتحدث عن الإيمان بالأنبياء جميعًا وبكل الرسالات؛ لأن الحقيقة أن الدين واحد ولكن الأديان السابقة جاءت جزئية لأقوام بعينهم وفى زمان بعينه، ثم جاء الإسلام ليكون رسالة عامة يحتوى فى طياته كل الرسالات السابقة، وقد نسخها مع النص على احترامها مثلما نسخت آيات قرآنية ولكنها ظلت آيات تتلى فى القرآن الكريم..

كما يشير حديث المعراج إلى البيت المعمور الذى يُعتبر المسجد الحرام والمسجد الأقصى صورتين له على الأرض، كما يعتبر النيل والفرات صورتين للنهرين الباطنين فى الجنة.

وهكذا يتفق القرآن والسنة معًا على وضع الأساس المكين لقدسية المسجد الأقصى دون أن تكون لذلك علاقة بأى جوانب سياسية كتلك التى يتخيلها بعض الباحثين الواهمين أو المتساقين لخدمة أهداف سياسية دون أى مراعاة للحقائق التاريخية.

ولقد كان فتح القدس على يد الخليفة الثانى الفاروق عمر فى سنة ١٥ هـ وقيل سنة ١٦ هـ. وروى ابن الأثير فى «الكامل» أن سبب قدوم عمر إلى الشام أن أبا عبيدة حاصر بيت المقدس، فطلب منه أهله أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة واستخلف عليها على بن أبى طالب.

وسار عمر إلى الجابية وهناك قال له رجل من اليهود: «يا أمير المؤمنين إنك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء»(١) وإيلياء هى القدس وهى كلمة أطلقها عليها الرومان لمحو كل أثر يهودى فيها حتى سموها «إيليا كابيتولينا».

وهناك رواية أخرى أوردها محمد حسين هيكل فى كتابه «الفاروق عمر» نقلا عن الطبرى؛ فقد ذكر أن أرطبون قائد الروم الأكبر الذى يلى هرقل فى المكانة بعث إلى عمرو بن العاص برسالة قال فيها «والله لا تفتتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين»(٢) ورد

(١) ص ٣٤٧، ٣٤٨، الكامل: ج ٢.

(٢) الفاروق عمر: ج ١، ص ٢٣١.

عليه عمرو بأنه «صاحب فتح هذه البلاد» وعندئذ ضحك أرطبون، فسأله أصحابه: من أين علم أن ابن العاص ليس بصاحب إيليا، فذكر لهم أن صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف، وأن ذلك مذكور فى التوراة، وأن فيها من صفة عمر ما لا يدع شكا فى أن بيت المقدس ستؤول إلى المسلمين.

وقد تسلم عمر المدينة فعلاً من الأسقف صفرونيوس، وصلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة التى كان منها المعراج، وهناك أقيم فى عهده مسجد ساذج البناء كمسجد النبى بالمدينة آنذاك، ثم شيد المسلمون من بعد فى هذا المكان مسجداً فخمًا هو المسجد الأقصى.

ويستطرد محمد حسين هيكل قائلاً: «وقد بقيت الصخرة محاطة برعاية المسلمين من يومئذ إلى أن أقام عبد الملك بن مروان عليها قبة بالغ فى العناية بعمارتها فشادها على نحو جعلها أروع آية فى البناء. حتى لقد بذَّ بها عمارة المسجد الأقصى والمسجد الحرام بل بذَّ بها كل ما بناه من المساجد. وكان عبد الملك قد شغف بالعمارة البيزنطية لمقامه بدمشق بين كنائس النصارى وآثارهم ولذلك كانت المساجد التى شادها تأخذ بالقلوب والأبصار»[(١)].

إذن فالاهتمام بالصخرة بدأ منذ فتح القدس، والمسجد الذى أقيم عليها فى عهد عمر كان ساذج البناء مثل مسجد المدينة، وذلك أمر طبيعى فى بداية نشأة الدولة الإسلامية حيث شغل المسلمون بالفتوحات.

يقول فيليب حتى فى كتابه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» إن المسلمين ظلوا بعد فتح سورية بنحو نصف قرن يقيمون الصلاة فى كنائس حولوها إلى مساجد ولم يعمدوا فى هذه الأثناء إلى بناء مسجد ما. وخلافًا لما ورد فى الأخبار، لم يقسموا الكنائس بينهم وبين النصارى، بل اكتفوا بقسمة الباحة المقدسة؛ فكان المصلون من أبناء دمشق يدخلون من باب واحد فى السور، ثم يتحول النصارى إلى اليسار، وينعطف المسلمون إلى اليمين[(٢)].

وأضاف فيليب حتِّى فى كتابه الذى ترجمه إلى العربية كمال اليازجى: أن أول مسجد بنى فى سورية كان قبة الصخرة فى القدس، وقد بناه عبد الملك سنة ٦٩١، وهو

---

(١) ص ٢٤٣: الفاروق عمر ج ١.

(٢) ص ١٢٨ الفصل ٣١ «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين».

يمثل أقدم بناء أثرى إسلامى لا يزال قائمًا. ولما كانت مدينة القدس موقفًا للنبى وأول قبلة فى الإسلام فقد اكتسبت صفة التقديس فى نظر المسلمين فى عصر باكر[1]. وأوضح فيليب حتى أن الأوربيين يطلقون خطأ اسم مسجد عمر على قبة الصخرة، وأنه من الجائز أن يكون عمر عندما زار القدس سنة ٦٣٨ قد بنى مسجدا بسيطًا من الخشب أو الطوب، ويتفق هذا مع ما ذكره محمد حسين هيكل عن بناء مسجد ساذج فى عهد عمر عند الصخرة، مما يؤكد اهتمام المسلمين بالقدس منذ البدايات الأولى، وكيف لا وهى أول قبلة صلّوا إليها، كما كان منها معراج النبى ﷺ إلى السماء بعد الإسراء به من مكة إلى أرض الأنبياء؟.

ثم يشير فيليب حتى إلى بناء المسجد الأقصى بعد ذلك مع خلاف فى الرأى: هل بناه عبد الملك أم ابنه الوليد؟ ولكن الصحيح أن الوليد بن عبد الملك هو الذى بنى المسجد الأقصى، ثم بنى بعد ذلك المسجد الأموى فى دمشق.

فلماذا بنى الوليد المسجد الأقصى وقد استتب الحكم لأبيه من قبل بعد القضاء على دولة عبد الله بن الزبير ولم يعد هناك داعٍ أو هدفٌ سياسى يحققه مثل هذا المسجد كما يدعى بعض المؤرخين اليهود؟

الحقيقة أنه لم يكن فى وسع الأمويين - وقد بدأوا بناء المساجد الكبرى - إلا أن يبدأوا ببناء مسجد قبة الصخرة لأنها البداية الأولى التى أقام عمر عندها مسجده البسيط، ثم شفعوا ذلك ببناء المسجد الأقصى، وهو الاسم الذى أطلقه القرآن الكريم على ذلك الموضع فى ليلة الإسراء واختص به المسلمون.

وكانت الخاتمة بناء المسجد الأموى.. وكان ذلك طبيعيًا فى دولة يحكم خلفاؤها باسم الإسلام؛ فلم يكن هناك بد من أن يكون للعامل الدينى التأثير الأول. ولنفرض أنه كان هناك والٍ على الحجاز.. فهل كان يستطيع بناء مسجد فخم فى الطائف أو جدة أو أى مكان بعيدٍ قبل أن يبدأ بتجديد عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوى؟.

وهكذا فإن خلفاء دمشق لم يكونوا ليبدأوا ببناء المسجد الأموى قبل بناء المسجد الأقصى.. وهذا هو المنطق الطبيعى.

---

(١) ص ١٢٩ المرجع السابق.

تحقيق صحة حديث المساجد الثلاثة:

أما حديث المساجد الثلاثة الذى زعموا أن ابن شهاب الزهرى اختلقه لعبد الملك بن مروان فهو حديث صحيح؛ وقد رواه البخارى فى صحيحه فى باب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة، وأورده برواية عن سفيان عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى».

كما أورد البخارى حديثًا فى باب مسجد بيت المقدس برواية أبى سعيد الخدرى وفيها: «ولا تشدًّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى».

ولقد ولد البخارى سنة ١٩٤ هـ وتوفى سنة ٢٥٦ هـ أى فى عهد الدولة العباسية. ولو أنه كان يعلم أن هذا الحديث مختلق لخدمة الأمويين لما رواه فى صحيحه، ولكن الحديث صحيح ويتفق مع ما جاء فى القرآن عن المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله.

ولقد تحدث العلامة ابن خلدون - وهو المحقق المدقق - عن الإمام البخارى فى مقدمته فقال: «وجاء محمد بن إسماعيل البخارى إمام المحدثين فى عصره فوسَّع نطاق الرواية، وخرّج أحاديث السنة على أبوابها فى مسنده الصحيح، وجمع طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين، واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه».

ثم تحدث ابن خلدون عن صحيح البخارى قائلاً: «فأما صحيح البخارى وهو أعلاها رتبةً: فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم».

ويقول ابن خلدون: «ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون: شرحُ صحيح البخارى دَيْنٌ على الأمة».

ولا بد أن نشير إلى أن حديث المساجد الثلاثة لا يلغى أهمية المسجد الحرام لحساب المسجد الأقصى حتى يكون فى ترويج ابن شهاب الزهرى له خدمة لمصالح عبد الملك المزعومة فى تحويل الحج إلى القدس، بل إن الحديث يجعل المسجد الأقصى فى المرتبة الثالثة بعد المسجد الحرام والمسجد النبوى. والحقيقة أن الحديث يربط بين أهم المراكز

الروحية فى نظر الإسلام الذى يتسم بعالمية واضحة فى جوهر رسالته؛ فالمسجد الحرام فى مكة المكرمة بناه إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل، والمسجد النبوى بناه نبى الإسلام عليه السلام. أما المسجد الأقصى فإنه تجسيد لقدسية القدس عبر التاريخ، ويعتبر احترامًا لكل الرسالات السابقة التى عاش أصحابها فى هذه الأرض المقدسة.

معنيان للمسجد الأقصى:

وإذا جاز إطلاق «المسجد الأقصى» على القدس كلها مجازًا، فإن ذلك يكون من قبيل إطلاق الجزء على الكل. يضاف إلى ذلك أن كلمة مسجد تطلق على أى مكان للعبادة كما ورد فى سورة «الكهف».. ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف:٢١]. ولكن كلمة مسجد أصبحت من الكلمات الخاصة بالإسلام بعد ظهوره فى التاريخ.. ولهذا فإن «المسجد الأقصى» يمكن فهمه على أنه القدس كلها عبر التاريخ، ويمكن فهمه على أنه هذا «المسجد الأقصى» الذى بنى فى الإسلام الذى ينطوى على كل الرسالات السابقة ويحترم كل الأنبياء.

ولقد يزعم اليهود أن «المسجد الأقصى» قد بنى على «هيكل سليمان»، والحقيقة أن «المسجد الأقصى» بنى فوق هذا «الهيكل» فى الزمان لا فى المكان، حيث ظهر الإسلام وكان لظهوره تأثير فى اختفاء تأثير اليهود بعد خروج النبوة منهم إلى الأبد رغم زعم الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون أن النبوة ستعود إلى اليهود مرة أخرى وذلك فى محاولاته بث السكينة فى نفوس قومه إبان الصراع الهائل بين الصليبيين والمسلمين والذى اعتبره اليهود حربًا بين يأجوج ومأجوج، وهم يرمزون بهذه الحرب للصراع بين أكبر قوتين فى العالم وهما الإسلام والمسيحية، وهم يترقبون هذه الحرب ويتوقعون الخلاص بعدها على دأبهم فى إثارة الصراعات والوقيعة بين الشعوب. ولقد قال القرآن الكريم عنهم : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وهذا الظهور للإسلام على الأديان أشار إليه القرآن الكريم بقوله :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [الفتح: ٢٨].

ولهذا فإن المسجد الأقصى فوق الهيكل فى الزمان أى فى التاريخ وليس فى المكان أو الآثار، وإلا لظهرت آثار هذا الهيكل فى كل أعمال الحفر التى يقوم بها اليهود منذ سنوات طوال.. يضاف إلى ذلك أن الهياكل الكبرى تظهر دائما فى أعقاب ظهور

النبوات الكبرى مثل رسالة موسى ورسالة عيسى ورسالة محمد عليهم السلام. فأين هو النبى الذى ظهر اليوم ليقام هذا الهيكل ويشاد من جديد فى أرض القدس؟!!.

خفاء موقع الهيكل:

ليس هناك دليل تاريخى ولا أثرى قاطع يحدد مكان هيكل سليمان تحديدا دقيقا.. ونحب أن نبدأ قبل تناول هذه المسألة بعرض رأى العلامة ابن خلدون فى بناء المساجد الثلاثة؛ حيث أوضح فى «المقدمة» أن الله تعالى فضل من الأرض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب.. وكانت المساجد الثلاثة هى أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت فى الصحيحين وهى: مكة والمدينة وبيت المقدس(١).

أما البيت الحرام الذى بمكة فهو بيت إبراهيم؛ أمره الله ببنائه وأن يؤذن فى الناس بالحج إليه فبناه هو وابنه إسماعيل.

وأما بيت المقدس فقد بناه داود وسليمان عليهما السلام. أما المسجد النبوى فقد أمر الله تعالى نبى الإسلام محمدا ﷺ بالهجرة إلى المدينة وقد بنى فيها مسجده.

وقد تحدث ابن خلدون عن بيت المقدس فقال :«وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزهرة، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، يصبونه على الصخرة التى هناك. ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم»(٢). وسوف نعرض بعد قليل رأى ابن ميمون فى ذلك.

وأشار ابن خلدون إلى صنيع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة. فلما رأى ما عليها من الزبل والتراب كشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة.. ثم احتفل الوليد بن عبد الملك بعد ذلك بتشييد هذا المسجد كما فعل فى المسجد الحرام والمسجد النبوى ومسجد دمشق.

وذكر ابن خلدون أن الصليبيين لما استولوا على بيت المقدس بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة كانوا يعظمونها، وأن صلاح الدين الأيوبى حين هزم الصليبيين ودخل القدس هدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذى هو عليه اليوم.

وقد عرض ابن خلدون لإشكال هام يتعلق بالمدة بين بناء المسجد الحرام وبناء بيت

(١) ص ٢١٥ من مقدمة ابن خلدون ط. دار الشعب.

(٢) ص ٣١٩ من المرجع السابق.

المقدس؛ فأورد تأويله لحديث صحيح فى هذا الشأن يشير إلى أن المدة بينهما أربعون عاما، وقد أكد ابن خلدون صحة الحديث، ولكنه أوله فأحسن تأويله حيث قال :«ولا يعرض لك الإشكال المعروف فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ سئل عن أول بيت وضع فقال: مكة، قيل: ثم أىّ؟ قال: بيت المقدس، قيل: فكمْ بينهما؟ قال: أربعون سنة.

فإن المدة بين بناء مكة وبناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان؛ لأن سليمان بانيه، وهو ينيف على الألف بكثير».

ثم يورد ابن خلدون تأويله قائلا :«واعلم أن المراد بالوضع فى الحديث ليس البناء، وإنما المراد أول بيت عيِن للعبادة، ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عيِّن للعبادة قبل بناء سليمان بهذه المدة. وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة، فلعل ذلك أنها كانت مكانًا للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حول الكعبة وفى جوفها، والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام، فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وإن لم يكن هناك بناء كما هو معروف، وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام»[1].

وقد أشار ابن خلدون إلى ما تردد عن مسجد ينسب إلى آدم عليه السلام فى سرنديب من جزائر الهند فقال إنه لم يثبت فيه شىء يعول عليه.

ويقول الأب متّى المسكين فى كتاب صدر عام ١٩٩٧ تحت عنوان «تاريخ إسرائيل» إن شعب إسرائيل كان فى أصله آراميا من جهة الجنس يضرب بجذوره فى أرض الكلدانيين حيث مدينة أور وهى المنطقة التى انحدر منها إبراهيم عليه السلام الذى كان يدعى عبرانيا كما جاء فى سفر التكوين، وكان العبرانيون طائفة من البدو الرحل[2].

ويعنينا مما ذكره الأب متى المسكين قوله إن إبراهيم ترك بصماته المقدسة على أماكن كثيرة فى فلسطين، فقد بنى مذابح على مرتفعات بلوطة مورة قرب شكيم (نابلس الآن) ومرتفعات جبل الموريا فى أورشليم، وفى بيت إيل[3].

فالبداية إذن مع إبراهيم عليه السلام، فهو الذى أضفى القداسة على أماكن شتى فى فلسطين، وهو أيضا الذى بنى المسجد الحرام مع ابنه إسماعيل فى مكة المكرمة، وهى

(١) ص ٣٢١ المرجع السابق.
(٢) ص ١٩ من «تاريخ إسرائيل».
(٣) ص ٢٠ المرجع السابق.

مسألة عليها إجماع فى التراث الإسلامي. ولهذا فإن رسالة إبراهيم عالمية في جوهرها لا تعرف التعصب أو العنصرية، وقد تجلى ذلك في سيرته حيث تزوج سارة وهى عبرانية مثله، كما تزوج هاجر وهى مصرية، وتزوج أيضا قنطورا ابنة ملك الترك وقد أشار إلى ذلك ابن العبرى فى كتابه «تاريخ مختصر الدول»[١].

كما ذكر ابن العبرى أن موسى عليه السلام عندما فزع من فرعون هرب إلى أرض العرب وتزوج صافورا الزنجية ابنة يثرون بن رعوئيل المديني بن داذان بن يقش بن إبراهيم من قنطورا زوجته التركية. وكل ذلك دليل على رفض التعصب والعنصرية.. فإبراهيم عليه السلام تزوج ثلاث نساء من ثلاث أمم، وموسى تزوج من مدين وهم عرب ينحدرون من إبراهيم عليه السلام وزوجته التركية.

وقد أشار الأب متى المسكين إلى زواج موسى من بنت كاهن مدين واسمه يثرون وهو النبى شعيب عند المسلمين كما قال. ونود أن نشير إلى أن المرتفعات التى بنى عليها إبراهيم مذابح قرب شكيم أو نابلس هى التى يقدسها اليهود السامريون.. أما بيت إيل فقد بنى يعقوب عنده مذبحا عندما رأى فى منامه سلما عليه ملائكة يصعدون وملائكة ينزلون.

وقد تحدث متى المسكين عن مسألة الهيكل فقال إن رواق الأمم كان أهم ما فيه بالنسبة للعالم، إلا أن هذا الرواق كان أقل أهمية فى نظر إسرائيل رغم أنه كان أهم ما فى الهيكل بالنسبة لله.. وكان الله أقام الهيكل بواسطة اليهود ليرثه العالم كله لا من حيث شكله وهندسته ومبناه، ولكن من حيث هدفه وجوهر رسالته كبيت للصلاة.

وأوضح المؤلف أن كل معالم هندسة الهيكل قد ضاعت مثلما اندثرت كل آثاره مع اندثاره، ولم يستطع أعظم المهندسين والمنقبين أن يستردوا أى شكل من أشكاله إلا ما بقى من أوصافه المدونة فى الكتاب المقدس، ولم يكن هذا مصادفة، بل كان عن قصد إلهى محكم؛ حتى لا يكون لبيت الله شكل يستعبد له الإنسان[٢].

وتعرض متى المسكين لنقطة هامة وهى: من الذى «يسكن» فى الهيكل؟ فأنكر كل الإنكار أن يكون الله تعالى هو الذى يسكن فى الهيكل وإنما الذى يقيم فى الهيكل حقا هو «اسم الله» ولكن فى أفواه الناس وقلوبهم وليس فى المكان.

---

(١) ص ١٤ من «تاريخ مختصر الدول».

(٢) تاريخ إسرائيل ص ٩٩.

وهذه الكلمة مشتقة من كلمة «شاكان» العبرية أى «يسكن»، ومنها اشتقت كلمة «شاكيناه» أى «السكينة» أى حضرة الله أو التجلى الإلهى، وهو يكون مؤقتًا فى العادة؛ حيث يحدث هذا التجلى مع ذكر اسم الله فى الصلاة.

وأورد المؤلف أقوالا عجيبة منسوبة للربيين وفيها «إن الشاكيناه بقيت ثلاث سنين ونصف على جبل الزيتون تنتظر توبة إسرائيل، يتردد صداها: اطلبوا الرب ما دام يوجد، ادعوه فهو قريب؛ وعندما وجدت أن ذلك كله بلا فائدة عادت إلى مقرها»[1].

لقد عادت «الشاكيناه» أو «السكينة» إلى مقرها فكان ما كان، وسقطت المدينة العظيمة أورشليم ومعها الهيكل العجيب حتى الأرض وحتى التراب.

أما ابن العبرى فقد تحدث عن هدم القائد الرومانى تيتوس سنة ٧٠م للهيكل، فأورد ما ذكره المؤرخ العبرى يوسيفوس عن ظهور علامات فظيعة قبل خراب أورشليم وتدمير ذلك الهيكل؛ حيث ظهر فوق المدينة نجم طويل كسيف من نار يلمع.. كما أنهم جاءوا فى عيد الفصح ببقرة الذبيحة فولدت حملاً فى وسط الهيكل. أما أبواب النحاس التى كانت على باب الهيكل ولم تكن تغلق ولا تفتح دون اجتماع عشرين رجلا فقد وُجدت مفتوحة فى منتصف الليل دون علة. وكان الناس طيلة تلك السنة يسمعون فى الهيكل أصواتا مختلفة تقول :«إنا سنتنقل من ها هنا»[2].

وقبل ذلك كان تابوت العهد قد ضاع إلى الأبد، ويتضح ذلك مما روى عن إصدار قورش ملك الفرس أمرا بعودة اليهود من المنفى سنة ٥٣٧ ق. م والسماح لهم بإعادة بناء الهيكل، وقد أعطاهم جميع آنية الهيكل عدا التابوت الذى ضاع ولم يظهر له أثر. والتابوت رمز للسكينة وفيه ألواح موسى.

وقد تحدث فيليب حتى فى كتابه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» عن الهيكل فقال إن سليمان بناه فى الأصل ليكون معبدا ملكيا ملحقا بالقصر[3]، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات فقط، ولكنه أصبح فيما بعد مركزا عاما لعبادة العبرانيين، وقد بناه معماريون وبناؤون من صور، واستخدموا أرز لبنان، بل إن الجناح الملكى فى قصر سليمان كان يسمى «بيت غابة لبنان».

---

(١) تاريخ إسرائيل ص ١٠١.

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ٧٠.

(٣) ص ٢٠٥ من الجزء الأول من «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين».

وكانت زخرفة الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية، بل إن طقوس الهيكل وذبائحه كانت تشبه الأساليب المتبعة عند الكنعانيين، وحتى كلمة «هيكل» نفسها كانت مستعارة من المفردات الكنعانية[1].

وما ذكره فيليب حتى يتفق مع أحدث بحوث الأثريين المعاصرين الذين تحدثوا عن «الأصول الكنعانية للهيكل».. وقد نعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

رأى موسى بن ميمون فى مسألة الهيكل:

ولقد يكون من المناسب أن نورد هنا رأى الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون فى مسألة الهيكل التى تناولها فى الجزء الثالث من كتابه المعروف «دلالة الحائرين» حيث أشار إلى انتشار ملة الصابئة فى عهد إبراهيم عليه السلام، ودأبهم على تقديم القرابين فى الهياكل؛ وحيث إنه يصعب الانتقال من الضد إلى الضد دفعة واحدة فإن الله تعالى سمح لبنى إسرائيل ببناء هيكل وتقديم قرابين على أن يكون قصدهم إليه.

يقول موسى بن ميمون :«وكانت السيرة المشهورة فى العالم كله المألوفة آنذاك، والعبادة العامة التى نشأنا عليها إنما كانت تقريب أنواع الحيوان فى تلك الهياكل التى تقام فيها الصور والسجود لها وإطلاق البخور بين يديها، والعُبَّاد والنساك إنما كانوا آنذاك الأقوام المنقطعين لخدمة تلك الهياكل المعمولة للكواكب. ولم تقتض حكمته تعالى وتلطفه البين فى جميع مخلوقاته أن يشرع لنا رفض هذه الأنواع من العبادات كلها وتركها وإبطالها؛ لأن هذا كان حينئذ ما لا يُتصور قبوله بحسب طبيعة الإنسان التى تأنس دومًا للمألوف».

ثم يقول ابن ميمون :«فلذلك أبقى تعالى تلك الأنواع من العبادات ونقلها من كونها لمخلوقات وأمور خيالية لا حقيقة لها إلى اسمه تعالى، وأمرنا بفعلها له تعالى؛ فأمرنا ببناء هيكل له، وأن يكون المذبح لاسمه، وأن يكون القربان له»[2].

وخلص الفيلسوف اليهودى من ذلك إلى أن بناء هيكل وتقديم قرابين ينطوى على إبقاء ما ألفته النفوس ولكن مع تثبيت قاعدة وجود الإله.

---

(١) ص ٢٠٦ من الجزء الأول من «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين».

(٢) دلالة الحائرين ص ٥٩٥.

القصد الأول هو عبادة الله.. الصلاة أهم من القرابين:

ويرى ابن ميمون أن ذلك نوع من التدرج نحو القصد الأول؛ وهو عبادته تعالى وترك عبادة الصنم.

كما ينص ابن ميمون على أن الدعاء والصلاة ونحوهما من أعمال العبادات أقرب إلى هذا القصد الأول، وأن تقديم القرابين لا يتسم بمثل هذه الأهمية، ولهذا فإن هذا النوع من العبادة وهو تقديم القرابين لم يفرض فى كل مكان وزمان، كما أنه لا يقام هيكل حيثما اتفق، كل هذا لتقليل هذا النوع من العبادات وألا يكون منه إلا ما لم تقتض حكمته تركه بالكلية، أما الدعاء والصلاة ففى كل مكان[1].

وأشار ابن ميمون إلى أن كثيرا من كتب الأنبياء تنطوى على توبيخ الناس على مسارعتهم إلى القرابين وذلك لأنها ليست هى المقصودة لذاتها.. بل إن الله غنى عنها حيث قال صموئيل:

«أترى الرب يسر بالمحرقات والذبائح كما يسر بالطاعة لكلام الرب»[2] بينما قال أشعيا: «ما فائدتى من كثرة ذبائحكم؟ يقول الرب».

كما أوضح ابن ميمون أنه «قد تبين - فى النص والنقل معًا - أن أول تشريع لم يكن فيه أمور المحرقة والذبيحة بوجه»[3].

وأشار فى هذا الصدد إلى قول إرميا :«فإنى لم أكلم آباءكم ولم آمرهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة ولا ذبيحة، وإنما أمرتهم بهذا الأمر قائلا: اسمعوا لصوتى فأكون لكم إلها وتكونون لى شعبا».

وخلص ابن ميمون إلى أن القصد الأول هو أن يدرك بنو إسرائيل ضرورة الإيمان بالخالق وألا يعبدوا سواه :«أكون لكم إلها وتكونون لى شعبا» أما التشريع بتقديم القرابين والحج إلى البيت فإنما كان من أجل هذه الغاية فهو وسيلة ليس إلا.

ويعود ابن ميمون إلى تأكيد هذا المعنى ثانية مستندا فى ذلك إلى المزامير؛ حيث قال: «وهذا المعنى بعينه الذى قاله إرميا هو الذى قيل فى المزامير على جهة التوبيخ للملة كلها

(١) دلالة الحائرين ص ٥٩٥.

(٢) المرجع السابق ص ٥٩٨، ٥٩٩.

(٣) المرجع السابق ص ٦٠٠.

فى جهلها حينئذ القصد الأول، ولم تفرق بينه وبين القصد الثانى.

قال: «اسمع يا شعبى فأكلمك يا إسرائيل فأشهد عليك أنى أنا الله إلهك.. لا أوبخك على ذبائحك فإن محرقاتك أمامى فى كل حين؛ لا آخذ من بيتك عجلا ولا من حظائرك تيسا»[1].

ويتضح مما سبق أن المهم هو الإيمان والعبادة وتطهير الباطن لا تقديم القرابين أو إقامة الهياكل.. وقد سبق أن أشرنا إلى قول أشعيا :«هكذا قال الرب.. السماء عرشى والأرض موطئ قدمى فأى بيت تبنون لى؟!».

وأشعيا أيضا هو القائل فى القرابين:

«ما فائدتى من كثرة ذبائحكم

يقول الرب؟

قد شبعت من محرقات الكباش

وشحم المسمنات

وأصبح دم الحملان والثيران والتيوس لا يرضينى».

وكل هذا توجزه الآية القرآنية الكريمة حين تقول : ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقد تحدث موسى بن ميمون عن دور إبراهيم عليه السلام فى تمييز جبل الموريا وتحديده القبلة إلى الغرب حتى يخالف عباد الوثن الذين كانوا يستقبلون الشمس.

يقول ابن ميمون :«إن عابدى الوثن كانوا يقصدون لبنيان هياكلهم وإقامة صورهم فى أعلى موضع يجدونه هناك.. على الجبال الشامخة. فلذلك ميز أبونا إبراهيم جبل الموريا لكونه أعلى جبل هناك وأعلن فيه التوحيد، وخصص القبلة وجعلها لعين الغرب لأن قدس الأقداس فى الغرب وهو معنى قولهم «سكينةٌ فى المغرب»[2].

ويضيف ابن ميمون قائلا :«وعلة ذلك عندى أنه لما كان المشهور فى العالم حينئذ عبادة الشمس وأنها الإله، فلا شك أن كان الناس كلهم يستقبلون الشرق، فلذلك

(١) دلالة الحائرين ص ٦٠١.

(٢) المرجع السابق ص ٦٥٦.

استقبل إبراهيم الغرب فى جبل الموريا أعنى فى المقدس حتى يستدبر الشمس.. ألا ترى إسرائيل عند ردتهم وكفرهم ورجوعهم لتلك الآراء القديمة الفاسدة ما فعلوا: ظهورهم إلى هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم يسجدون للشمس نحو الشرق».

وأشار ابن ميمون إلى إخفاء الموقع الذى حدده إبراهيم عليه السلام ليكون بيت العبادة وذلك لأسباب ثلاثة:

١- ألاّ تتمسك به الأمم وتحارب عليه حربًا شديدة إذا علموا أن هذا الموضع غاية الشريعة من الأرض.

٢- ألاّ يفسده الذين هو الآن بأيديهم ويدمروه.

٣- أما أهم النقاط فهى ألاّ يطلب كل سبط أن يكون ذلك فى إرثه ويفوز فيقع من الفتنة والخلاف مثلما وقع فى طلب الكهانة[١].

وكل هذا يذكرنا بمسألة القبلة فى الإسلام؛ حيث كانت القبلة الأولى هى بيت المقدس، وقد تبين أن قدسيته بدأت مع إبراهيم عليه السلام وأنها سابقة لبنى إسرائيل، ثم حولت القبلة إلى الكعبة وقد بناها أيضا إبراهيم عليه السلام ولكنها أسبق من بيت المقدس.. والحكمة فى الأمرين معًا تتمثل فى أن التقوى هى الغاية، وأن الله تعالى قد حدد للمسلمين قبلة أولى ثم حولهم عنها إلى قبلة ثانية دون أن يكون ذلك لارضاء اليهود أو إغضابهم وإنما لاثبات أن المشرق والمغرب لِلّهِ ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥].

ولقد يكون من المناسب هنا أن نشير إلى ما جاء فى الجزء الرابع من موسوعة المسيرى حول إعادة بناء الهيكل؛ حيث أشار المؤلف إلى أن فقهاء اليهود يرون أن جميع اليهود مدنسون الآن بسبب ملامستهم الموتى أو المقابر ولا بد أن يتم تطهيرهم برماد البقرة الصغيرة الحمراء، ولما كان اليهود جميعا غير طاهرين بل يستحيل تطهيرهم بسبب عدم وجود الرماد المطلوب لهذه العملية، وحيث إن أرض الهيكل (جبل موريا أو هضبة الحرم» لا تزال طاهرة، فإن

(١) دلالة الحائرين ص ٦٥٧.

دخول أى يهودى إليها يعد خطيئة(١).

ولكن النقطة الهامة التى أوردتها الموسوعة هى تلك التى تتعلق بعدم معرفة مكان قدس الأقداس،«حيث قال المؤلف: «ويضاف إلى هذا أن جميع اليهود حتى الطاهر منهم يحرم عليهم دخول قدس الأقداس.. ولما كان مكانه غير معروف لأحد على وجه الدقة، فإنه من المحتمل أن تطأ قدما أحدهم هذه البقعة، ولهذا فإن دخول اليهود إلى هذه المنطقة محرم تماما»(٢).

إذنْ ما هو الدليل على أن المسجد الأقصى يقع فى مكان الهيكل؟ لا دليل.. وإنما هى أوهام تناقلها البعض دون أناة ولا رويّة، ورغم ذلك فإن اليهود جادون فى محاولاتهم الظاهرة والخفية لنسف المسجد الأقصى وإقامة ما يسمونه بالهيكل الثالث، الذى يرى راشى أنه سينزل من السماء، بينما يذهب موسى بن ميمون إلى أنه لن يبنى بأيد بشرية، وقد ذكرت الموسوعة أن اليهود غير الصهاينة يعارضون إعادة بناء الهيكل؛ حيث حذف «الإصلاحيون» الأدعية الخاصة بإعادة بناء الهيكل ويستخدمون منذ عام ١٨١٨ كلمة «المعبد» للإشارة إلى أن أى معبد يهودى أينما وُجد يحل محل الهيكل.

أما الصهاينة غير المتدينين فإنهم لا يهتمون بمسألة إعادة بناء الهيكل، بينما يعتبر الصهاينة المتدينون إعادة الهيكل مسألة عقائدية(٣).

فى عام ١٩٩٦ صدر فى باريس كتاب عنوانه.. «القدس المتعددة»(٤) يتضمن نصوصا وبحوثا تاريخية وأثرية وأدبية ودينية مترجمة عن ١٤ لغة ومنها بحث المؤرخ الإسرائيلى الذى يدعى أن عبدالملك بن مروان بنى قبة الصخرة لأسباب سياسية.

وفى هذا الكتاب بحث هام عنوانه: «الأصول الكنعانية للهيكل»(٥) كتبه جان باتيست أومبير، وهو عالم فى الآثار يعمل فى المدرسة التوراتية والأثرية الفرنسية فى القدس، وقد تحدث هذا الباحث عن ثقافة داود الكنعانية قائلا: «لقد تحدث العهد القديم فى رواية ملحمية عن الاستيلاء على القدس، وهى رواية تؤسس للوجود الإسرائيلى فى القدس لكن النص لا يقول كل شىء، بل تظل هناك نقاط كثيرة غامضة.

لقد كان داود أميرا محليا أى أى ذا ثقافة كنعانية. ولهذا فإنه تصرف مثل أى أمير

---

(١) موسوعة المسيرى ج٤ ص ١٦٧.

(٢) ص ١٦٧ المرجع السابق.

(٣) ص ١٦٨ المرجع السابق.

(4) Multiple Jérusalem.

(٥) ص ٢٤٩ من المرجع السابق.

لكنعانى يستولى على مدينة كنعانية أخرى ويجعل لإلـهه مقرا فيها»، وذكر جان باتيست أومبير أن داود أبقى على المعبد الذى كان فى يبوس وأن النبى جاد هو الذى أشار إلى بيدر أرونا اليبوسى، يضاف إلى ذلك أنه صعد لتقديم التضحية بينما تولى «اليبوسى» أمر هذه التضحية بتقديم الأبقار للمحرقة والأخشاب للنار، وقد دفع داود الثمن إلى أرونا اليبوسى بوصفه كاهنا، وتدل المعلومات المتوفرة على أن هذا الموقع كان أقدم مكان مرتفع فى القدس، فقد كان الكنعانيون يمارسون عبادتهم على قمم التلال قريبا من التجمعات السكنية ويقومون بشعائر تتعلق بالزراعة والخصوبة، وهى سمات مميزة للمجتمعات الزراعية فى الشرق كله.

وأوضح جان باتيست أومبير أن معبد داود كان داخل أسوار المدينة، وكانت تقام فيه شعائر العبادة الرسمية التى تكفل سلطة الملك.

جاء فى سفر الملوك الأول أن بنى إسرائيل كانوا يقربون ذبائحهم على المشارف، وأن سليمان كان يذبح ويحرق البخور على المشارف لأنه لم يكن قد بنى بيت لاسم الرب إلى تلك الأيام.

وبدأ سليمان بناء الهيكل فى السنة الرابعة من ملكه وهيأ المحراب فى داخل البيت ليجعل هناك تابوت العهد تحت أجنحة الكروبين ولم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما فيه موسى فى حوريب، وقد ذكر موسى بن ميمون أن صنع كروبين فى المحراب بدلا من كروب واحد أريد به الحيلولة بين بنى إسرائيل وبين الاعتقاد بأن هذا الكروب أو الملك الواحد هو الإله فلهذا كان هناك ملكان أو كروبان خوفا من سقوط اليهود فى الوثنية إذا عبدوا صورة الكروب الواحد ظناً منهم أنه صورة الإله[1].

والمعروف أن هذا الهيكل هو الذى هدمه نبوخذ نصر ملك بابل سنة ٥٨٧ ق. م وهدم معه قصر الملك وكل أسوار أورشليم.

ويقول الباحث جان باتيست أومبير إن هيكل سليمان يعتبر لغزا وذلك لأنه لم يبق منه حجر واحد يرى، وربما تكون هناك منه بقايا تحت ساحة قبة الصخرة التى تعتبر أعجوبة نادرة من روائع العمارة القديمة، ولكن علماء الآثار، كما يقول هذا الباحث، قد انتهوا فى بحوثهم إلى مجرد تخمينات فى محاولتهم لتحديد المكان الدقيق للهيكل، وقد استعانوا فى سعيهم لوصفه بمقارنات مع بعض المعابد القليلة المعروفة فى المنطقة فى نفس الفترة.

---

(١) دلالة الحائرين: ج ٣، ص٦٥٩.

وأوضح جان باتيست أومبير أن وصف سفر الملوك للهيكل يتعلق في الحقيقة بمبنى متأخر في الزمان عن هيكل سليمان، أما وصف حزقيال للهيكل فإنه يعتبر وصفا رمزيا ويتعلق بفترة متأخرة.

هيكل واحد أم هياكل؟

ونقول إن بنى إسرائيل لم يكن لهم هيكل واحد يعتد به في وقت من الأوقات.. وسوف نرى ذلك فى انشقاق يربعام عبد سليمان فى عهد ابنه رحبعام، ولكننا نرجع إلى بداية اتصال بنى إسرائيل بأرض فلسطين لنرى بدايات هذا الانقسام فى صفوفهم، ويتجلى ذلك فى مذبح رأوبين وجاد ونصف سبط منسًى وهى التى يطلق عليها أسباط عبر الأردن أو الأسباط الشرقية، وذلك لأن موسى عليه السلام، كما جاء فى سفر يشوع، أعطاهم ميراثهم فى عبر الأردن جهة مشرق الشمس، وجاء فى هذا السفر أن موسي ورَّث نصف سبط منسى فى باشان، بينما ورَّث يشوع النصف الآخر بين إخوتهم فى عبر الأردن غربا.

وذكر سفر يشوع أن بنى رأوبين وبني جاد ونصف سبط منسى انطلقوا إلى أرض جلعاد وبنوا هناك على الأردن مذبحاً عظيم المنظر[1] فاجتمع بنو إسرائيل فى شيلو وأرادوا حربهم، ولكن تلك الأسباط الشرقية أقنعوا سائر بنى إسرائيل بأنهم لم يبنوا ذلك المذبح لمحرقة أو ذبيحة ولكن ليكون شاهداً للأجيال خاصة فى غربى نهر الأردن على أن أبناء رأوبين وجاد ونصف سبط منسى كانوا يعبدون الإله الواحد. ويستفاد من سفر يشوع أن يشوع نفسه قطع للشعب عهدا فى شكيم وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك عند البلُّوطة التى عند مقدس الرب، وهذا يذكرنا بما كان إبراهيم عليه السلام قد فعله فى هذا المكان من إضفاء القداسة عليه.

وقبل ذلك جاء فى هذا السفر أن يشوع بنى مذبحاً للرب إله إسرائيل فى جبل عيبال[3]، كما أمر موسى على ما هو مكتوب فى توراة موسى، وهو مذبح من حجارة غير منحوتة لم يرفع عليها حديد وأصعدوا عليه محرقات للرب وذبحوا ذبائح، بل إن يشوع كتب على الحجارة سفر تثنيه اشتراع موسى، وقد وقف كل بنى إسرائيل على جانبى التابوت مقابل الكهنة اللاويين حاملى التابوت، نصفهم إلى جهة جبل جرزيم، والنصف الآخر إلى جهة جبل عيبال، كما كان موسي قد أمر أن يُبارك أولا شعب إسرائيل.

---

(١) الفصل ٢٢ من سفر يشوع.
(٢) الفصل ٢٤ من سفر يشوع.
(٣) يشوع ٨/ ٣٠ - ٣٥.

ويطل جبل عيبال على شكيم فى الشمال، بينما يطل عليها من الجنوب جبل جرزيم الذى سيقام عليه هيكل السامريين.

وترجع قدسية جبل جرزيم إلى عهد موسى عليه السلام حيث جاء فى سفر تثنية الاشتراع:

«وأمر موسى الشعب فى ذلك اليوم قائلا: هؤلاء يقفون على جبل جرزيم ليباركوا الشعب بعد عبوركم الأردن»(١)، وهو نص هام لابد أن السامريين قد استندوا إليه فى إقامة هيكل لهم هناك.

وقد بنى السامريون هيكلا منافساً لهيكل أورشليم حوالى سنة ٣٢٨ق. م. يعتقد أن زكريا أشار إلى ذلك فى سفره حين قال فى الآية ١٤ فى الفصل رقم ١١: «وحطّمت عصاى الأخرى حبال، لأنقض الإخاء بين يهوذا وإسرائيل».

أما هيكل أونيًا فقد تنبأ أشعيا بإقامته فى الآية ١٩ فصل ١٩ حين قال: «فى ذلك اليوم يكون مذبحٌ للرب فى داخل أرض مصر ونُصُب بجانب حدودها للرب».

والكاهن أونياً الرابع صاحب هذا الهيكل المنسوب إليه هو ابن الكاهن أونياً الثالث الذى قتل فى عهد أنطيوخس أبيفانس فى بلدة قرب أنطاكية، وبعد ذلك عيّن يوناثان عظيم كهنة وأبعدت أسرة أونيًا وعندئذ لجأ ابن أونيًا الثالث إلى مصر التى كان فيها جالية يهودية وقد تحالف مع البطالمة وبنى هيكلا على مثال هيكل أورشليم، ولا شك أن هذا يتناقض مع ما عرف بشريعة وحدة الهيكل التى تنص على هيكل واحد للعبادة. رغم أن تعدد أماكن العبادة مثل المساجد لا يتنافى مع فكرة الإله الواحد ولكن اليهود الذين يميلون إلى الانحراف السريع قد أمروا بذلك خوفا من انسياقهم إلى الوثنية وتعدد الآلهة إذا تعددت معابدهم مثلما تمّ تصوير ملكين فى المحراب بدلا من ملَك واحد خوفاً من انسياقهم إلي اعتباره إلهاً.

وسوف نرى بعد ذلك ما حدث مع يربعام بن نباط من إقامة هيكلين تحديًا لهيكل أورشليم.

* * *

(١) تثنية الاشتراع ٢٧/ ١١.

ابن شهاب الزهرى

ذكر ابن خلدون فى «المقدمة» وهو يتحدث عن علوم الحديث أن طريقة أهل الحجاز كانت فى الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن فى الصحة، وأن سيد الطريقة الحجازية بعد السلف هو الإمام مالك عالم المدينة ثم أصحابه مثل الإمام الشافعى، ثم الإمام أحمد بن حنبل.

ولقد تحدث الشيخ أمين الخولي فى كتابه «مالك بن أنس» عن أساتذة الإمام مالك ومن يرجح تأثره بهم مثل ربيعة الرأى وابن هرمز وابن شهاب الزهرى، فأوضح أن هؤلاء من الطبقة الرابعة من طبقات فقهاء المسلمين على اعتبار أن الصحابة طبقتان، يليهم من التابعين طبقة فقهاء المدينة السبعة المعروفين ومن فى درجتهم، ثم هذه الطبقة التى منها ربيعة الرأى وابن شهاب الزهرى وعمر بن عبدالعزيز. ويقول الشيخ أمين الخولى عن ابن شهاب الزهرى وتأثيره فى الإمام مالك إن ابن شهاب وهو أبو بكر محمد بن مسلم المدنى من زهرة بن كلاب من قريش عالم جامع؛ فهو محدث ويعد رأس المدونين وواضع علم الحديث روايةً، على رأى، كثير الحديث حتى وسعه أن يقول: ما صبر أحد على العلم صبرى، ولا نشره أحد نشرى ولقبٌ: أعلم الحفاظ[1]، وكانت لابن شهاب ثقافة أدبية واسعة حتى قيل: إن حدث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك. وكان الزهرى يطوف على العلماء ومعه الألواح والصحف يكتب ما يسمع وكان إذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا. وروى أن عمر بن عبدالعزيز طلب من الزهرى أن يدون الحديث، وأوضح المؤلف أن مالكا أصاب من علم ابن شهاب كثيرا وأن ذلك ظهر فى أحاديثه عنه فى «الموطأ»[2].

أما ابن كثير فإنه يقول فى كتابه «البداية والنهاية» عن ابن شهاب الزهرى إنه أحد الأعلام من أئمة الإسلام وتابعى جليل، وذكر ابن كثير أن الزهرى ارتحل إلى دمشق وهناك التقي بأمير المؤمنين عبدالملك بن مروان الذى سأله فى مسألة تتعلق بأمهات الأولاد، وأنه قضى دينه وأمر له بجائزة وقال له: اطلب العلم فإنى أرى لك عينا حافظة

---

(١) مالك بن أنس ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ٧٢.

وقلبا ذكيا.. فرجع إلى المدينة يطلب العلم ويتتبعه. وقد ولد الزهرى فى سنة ٥٨ هـ فى آخر خلافة معاوية، وجالس سيد التابعين سعيد بن المسيب ثمانى سنين، وكان يدور على الثقات ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث حتى صار من أعلم الناس فى زمانه.

كما تحدث ابن كثير عن تعلم مالك من الزهرى، وذكر أن هشام بن عبدالملك امتحن حفظ الزهرى للحديث فوجده حافظاً، وأن عمر بن عبدالعزيز قال عنه: «ما رأيت أحدا أحسن سوقا للحديث إذا حدَّث من الزهرى».

بينما قال الإمام أحمد عنه: «أحسنُ الناس حديثاً وأجودهم إسناداً الزهرى».

وقال النسائى: أحسنُ الأسانيد: الزهرى عنْ على بن الحسين عن أبيه عن جده علىّ عن رسول الله ﷺ، وقال عنه الليث «ما رأيت عالماً قط أجمعَ من ابن شهاب».

وقد توفى ابن شهاب الزهرى سنة ١٢٤ هـ. ووقف الأوزاعى يوماعلى قبره فقال:

يا قبرُكم فيك من علمٍ ومن كرمٍ   وكم جمعتَ رواياتٍ وأحكاما

وروى ابن كثير عن الإمام مالك قوله: أولُ من دوَّن العلم ابن شهاب.

هذا هو ابن شهاب الزهرى الذى يحاول بعض الباحثين اليهود الطعن فيه والادعاء بأنه اختلق حديث المساجد الثلاثة لبنى أمية! وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا الحديث نفسه لا يلغى المسجد الحرام من الوجود، ولا يجعل للمسجد الأقصى أسبقية عليه، ولكنه يشير إلى فضل المساجد الثلاثة بترتيبها المذكور. وسوف نثبت بعد قليل أن مسألة تحويل الحج عن مكة إلى القدس خرافة ، ليس لها أى أساس، ولن يكون هؤلاء اليهود أعلم بتاريخنا منا، ولا أعلم بعلوم الحديث من الإمام مالك، ولا من الحافظ ابن كثير حتى يحق لهم الطعن فى إمام مثل ابن شهاب الزهرى كان أستاذا لأحد أئمة المذاهب الأربعة!!.

وسبق أن أوردنا هذا الحديث كما رواه الإمام البخارى برواية عن الزهرى ورواية أخرى، مما يدل على أن الزهرى لم يكن الراوية الوحيد لهذا الحديث.. والبخارى وهو إمام المحدثين لم يكن ليورد مثل هذا الحديث فى بابين لو لم يكن واثقاً من طرق روايته التى تشدَّد فيها حتى قال ابن خلدون إنه سمع شيوخه يقولون «إن شرح صحيح البخارى دَيْنٌ على الأمة».

«عبدالملك بن مروان»

أما عبدالملك بن مروان الذى ادعى الباحث اليهودى أنه بنى قبة الصخرة لأغراض سياسية فإنه يعدُّ من أعظم خلفاء بنى أمية، وقد قال العلامة ابن خلدون عنه إنه أعظم الناس عدالة، وإن الإمام مالكاً كان يحتج بفعله، كما أشار صاحب «المقدمة» إلى عدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعة عبدالملك عن بيعة ابن الزبير رغم أنهم كانوا معه بالحجاز(1).

ولا يحسبن أحد أن ابن خلدون يلقى الكلام على عواهنه أو أنه متشيع للأمويين؛ وذلك لأنه تحدَّث عن فسق يزيد بن معاوية فى خلافته، يقول ابن خلدون فى باب عنوانه «ولاية العهد»:

«ولمَّا حدث فى يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ فى شأنه: فمنهم من رأى الخروج عليه و نقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبدالله بن الزبير رضى الله عنهما ومن اتبعهما فى ذلك، ومنهم من أباه لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل.

ويرى ابن خلدون أن الإمام الحسين شهيد مثاب لأنه حين خرج على يزيد لم يخرج على إمام عادل حتى يعتبر من البغاة، وانتقد لذلك القاضى أبا بكر بن العربى المالكى لقوله فى كتابه «العواصم من القواصم» ما معناه: إن الحسين قتل بشرع جده، وأوضح ابن خلدون أن ابن العربى أخطأ فى ذلك الرأى لأنه غفل عن اشتراط الإمام العادل فى قتال البغاة؛ ومن أعدلُ من الحسين فى زمانه فى إمامته وعدالته؟(2).

ولكن ابن خلدون يرى أن الإمام الحسين أخطأ فى أمر الشوكة التى كانت لبنى أمية وهو غلط فى أمر دنيوى لا يضره الغلط فيه. ويرى ابن خلدون أن الشوكة كانت حينئذ لبنى أمية وأن ابن الزبير وقع فى نفس هذا الخطأ ولكنه كان يتحرى الحق مثل الحسين، ولهذا فإن ابن الزبير أيضا شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق.

ويقول ابن خلدون: «هذا هو الذى ينبغى أن تُحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين ؛فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذى يختص بالعدالة؟

---

(1) المقدمة ص ١٩٤.

(2) المرجع السابق ص ١٩٤.

والنبىُّ ﷺ يقول: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً، ثم يفشو الكذب».

لقد كان ذلك العصر حافلا بالفتن والثورات وذلك لأنه لم يكن قد استقر نظام سياسى واضح المعالم أمام المسلمين، وكانت الآراء والمواقف تختلف حسب اعتقاد كل واحد أنه على صواب، ولهذا فإن الإمام الحسين لما أراد الخروج إلى الكوفة لهدف مشروع وهو محاربة يزيد الفاسق، فإن ابن عباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفيةً -وهو أخوه - طالبوه بالعدول عن ذلك.

وأما غير الحسين من الصحابة فرأوا أن الخروج على يزيد و إن كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من فتنة وإراقة للدماء، فلم يتابعوا الحسين ولم ينكروا عليه ولا أثَّموه لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين.

ذكر ابن الأثير أن مروان بن الحكم أمر فى سنة ٦٥ هـ بالبيعة لابنيه عبدالملك وعبدالعزيز، وفى شهر رمضان من هذه السنة مات مروان بن الحكم وتولى الخلافة حينئذ ابنه عبد الملك.

وتحدث ابن الأثير عن مروان بن الحكم فقال إنه ولى المدينة لمعاوية عدة مرات فكان إذا ولى يبالغ فى سبٍّ على وإذا عزل وولى سعيد بن العاص كفَّ عنه، فسئل عنه محمد بن على الباقر وعن سعيد فقال: كان مروان خيراً لنا فى السر، وسعيد خيرا لنا فى العلانية.

ويستشف من ذلك أن مروان لم يكن معادياً لعلى وأبنائه رضى الله عنهم وأنه كان يفعل ذلك لدواعٍ سياسية لكونه والياً لمعاوية. ولذا كان الحسنُ والحسين يصليان خلفه ولا يعيدان الصلاةَ(١).

وفى سنة ٦٦ خرج المختار الثقفى بالكوفة وأعلن أن محمد بن الحنفية أمره بطلب الثأر للحسين، وبعد ذلك قتل مصعب بن الزبير المختار سنة ٦٧ هـ .

وذكر ابن الأثير أن ابن الزبير دعا فى سنة ٦٦ هـ محمد بن الحنفية «وهو ابن الإمام علىّ» ومن معه من أهل بيته وشيعته وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة ليبايعوه فامتنعوا وقالوا: لا نبايع حتى تجتمع الأمة. وعندئذ حبسهم ابن الزبير بزمزم وتوعدهم

(١) الكامل ج ٤ ص١٥.

بالقتل والإحراق. وقد خرج محمد بن الحنفية ومن معه إلي شعب عليٍّ وهم يسبون ابن الزبير ويستأذنون محمدا فيه، فأبى عليهم.

وقال ابن الأثير إن عبدالله بن الزبير بعث بعد قتل المختار إلى ابن الحنفية يدعوه إلى بيعته فأبى وقال لأصحابه: «إن ابن الزبير يريد أن يثور بنا وقد أذنت لمن أحبَّ الانصراف عنا». وقد دعا عبدالملك بن مروان ابن الحنفية للقدوم إلى الشام ولكنه لما وصل مدين بلغه غدر عبدالملك بعمرو بن سعيد فخاف أن يتوجه إليه(١).

وارتحل ابن الحنفية إلى مكة ونزل شعب أبي طالب ولم يأذن لأصحابه فى قتال ابن الزبير ولكنه دعا عليه وقال: «اللهم ألبس ابن الزبير لباس الذل والخوف وسلط عليه وعلى أشياعه من يسومهم الذى يسوم الناس». ثم سار ابن الحنفية إلى الطائف التى توجه إليها حبر الأمة ابن عباس بعد أن كان قد دخل على ابن الزبير وأغلظ له فى القول. وقد توفى ابن عباس فى الطائف وصلى عليه ابن الحنفية هناك(٢).

هذا هو طابع العصر: فتنٌ فى الحجاز وفتنٌ فى العراق وفتنٌ فى الشام فلم يكن هناك بد من قيام رجل قوى مثل عبد الملك ليبنى دولة موحدة قوية ويقضى على هذه الثورات التى كادت تعصف بالمسلمين هنا وهناك.

لقد وردت من قبل إشارة إلى إحجام محمد بن الحنفية عن الذهاب إلى دمشق لما بلغه غدر عبدالملك بعمرو بن سعيد، وهى حادثة لها مغزاها وتكشف الكثير عن طابع الفتن وانتشارها فى ذلك العصر.

وذلك أن عمرو بن سعيد هذا المعروف بالأشدق كان من كبار رجال بنى أمية؛ فهو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية. وكان عبدالملك قد سار سنة ٦٩ هـ يريد قرقيسيا وكان معه عمرو بن سعيد الذى رجع ليلا إلى دمشق فغلب عليها وعلى خزائنها، ولما علم عبدالملك بذلك رجع إلى دمشق فقاتله أياما وانتهى الأمر بقتله. وهذه حادثة كان يمكن أن تودى بحياة عبدالملك وملكه جميعا. ونحن نرى أن عبدالملك رجل سياسة يلجأ إلى الحرب إذا ألجأته الظروف إلى ذلك مثلما فعل عندما بعث إلى كبار قادة جيش مصعب بن الزبير بالعراق واتفق معهم على أن يخذلوا مصعباً، ولم يكتف عبدالملك بذلك بل توجه على رأس الجيش إلى العراق ليحارب مصعبًا حتى قتله.

(١، ٢) المرجع السابق: ص ٥٤.

وروى ابن الأثير في كتابه «الكامل» أن الذى قتل مصعب بن الزبير هو ابن ظبيان الذى أخذ رأسه وحمله إلى عبد الملك الذى خر ساجداً. ويقول ابن ظبيان: «لقد هممتُ أن أقتل عبد الملك وهو ساجد فأكون قد قتلت مَلكَي العرب وأرحت الناس منهما». بينما قال عبد الملك: «لقد هممتُ أن أقتل ابن ظبيَان فأكون قد قتلت ابن ظبيان أفتك الناس بأشجع الناس».

ويبدو أن ابن ظبيان هذا كان من أتباع المختار الثقفى الذى قتله مصعب؛ وذلك لأن ابن ظبيان قال وهو يطعن مصعبًا: «يالثارات المختار».

وقال عبد الملك بعد قتل مصعب الذى كان يجله ويقدره حق قدره: «كانت الحرمة بيننا قديمة ولكن الملك عقيم».

وكل هذه الحوادث تدل على اندفاع إلى القتال وإلى سفك الدماء ولم يكن يغنى حينئذ بناء قبة على الصخرة لمنع خروج المختار الثقفى للانتقام لمقتل الإمام الحسين ولا لمنع عمرو بن سعيد الأشدق من الخروج على عبد الملك وكلاهما من بنى أمية. إذن لم يكن يجدى إلا القتال وهذا ما فعله عبد الملك حيث حارب أعداءه وعلى رأسهم عبد الله ابن الزبير الذى أرسل إليه الحجاج ليهاجمه فى البلد الحرام، ولقد نصب الحجاج المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة. وتفرق الناس عن ابن الزبير ومنهم ابناه حمزة وخبيب. وقتل عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ وعمره ٧٣ سنة.

وقد حوصر عبد الله سبعة أشهر ولما قتل كبَّر أهل الشام فرحًا بقتله فقال ابن عمر:

«انظر إلى هؤلاء ولقد كبَّر المسلمون فرحًا بولادته وهؤلاء يكبِّرون فرحًا بقتله!».

وقيل إن ابن عمر مر على ابن الزبير وهو مصلوبٌ بعد قتله فقال: «رحمك الله أبا خبيب، إنك كنت صوَّامًا قوامًا، ولقد أفلحت قريشٌ إن كنت شرَّها».

وكانت خلافة ابن الزبير تسع سنين لأنه بويع له سنة ٦٤هـ.

أما عبد الملك فإنه توفى سنة ٨٦هـ وكان عمره ٦٠ سنة. وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر.

وقد ذكر ابن الأثير بعض أخباره فقال:

كان عبد الملك عاقلاً حازمًا أديبًا لبيبًا عالمًا. وقال أبو الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة:

سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان[1].

ويقول عبد الملك عن نفسه وأنه أهلٌ للحكم: «ما أعلمُ أحدًا أقوى على هذا الأمر مني؛ إن ابن الزبير لطويلُ الصلاة طويلُ القيام ولكن لبخله لا يصلحُ أن يكون سائسًا».

وذكر ابن الأثير أيضًا أن الحجاج من بعض سيئات عبد الملك، وأن عبد الملك هو أول من غدر فى الإسلام بما فعله مع عمرو بن سعيد، وهو أول من نهى عن الأمر بالمعروف حيث قال فى خطبته بعد قتل ابن الزبير: «ولا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربتُ عنقه»[2].

ولقد أردنا بذكر هذه التفاصيل أن نُدلّ على طبيعة العصر والفتن التى كثرت فيه حتى بين أبناء البيت الواحد وذلك منذ أن بدأت الفتنة الكبرى فى نهاية عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأردنا من ذلك أن نوضح أن حسم هذه الفتن لم يكن ليتم إلا فى ساحة القتال مثلما حدث فى الشام والعراق والحجاز، وأن زعم بناء قبة الصخرة لأغراض سياسية وهم من الأوهام لا يقوم عليه دليل. وقد يكونُ من المناسب هنا أن نشير إلى وهم مماثل وهو ما قيل عن بناء الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور قبة من ذهب لينافس بها المسجد الحرام. فمثل هذه الأوهام كانت تختلق اختلاقًا للطعن فى أمثال عبد الملك الأموى والمنصور العباسى، ولقد يكون من الغريب أن المؤرخ اليعقوبى وهو متشيع قد ادعى أن عبد الملك بنى قبة الصخرة لغرض سياسى ولكنه لم يورد الدعوى عن بناء المنصور قبة من ذهب لأن اليعقوبى وضع كتابه فى العصر العباسى وكان أبوه يعمل لدى العباسيين.

وقد أثبت التمحيص التاريخى أن كلا الادعاءين باطل لا أساس له وأنهما من قبيل الدعاية السياسية التى يلجأ إليها كل طرف لتشوية صورة عدوه كما هو معروف فى كل زمان ومكان.

وقد تحدث الشيخ أمين الخولى فى كتابه «مالك بن أنس» عن هذه «القبة الخضراء» المزعومة حيث أشار إلى زعم جورجى زيدان فى كتابه «تاريخ التمدن الإسلامى» أنه لما أفضى الأمر إلى بنى العباس وأراد المنصور تصغير أمر العرب وإعظام أمر الفرس لأنهم

(١) الكامل: ٤ : ص ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق ص٢٤٠.

أنصاره كان من مساعيه فى ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين ،فبنى بناءً سماه القبة الخضراء حجًا للناس، وقطع المِيْرَة عن المدينة وفقيه المدينة يومئذ الإمام مالك، فاستفتاه أهلها فى أمر المنصور، فأفتى لهم بخلع بيعته، فخلعوها (١).

ومن الغريب أن المنصور هو الذى قتل أبا مسلم الخراسانى فكيف إذن أراد إعظام أمر الفرس؟

ولكن الحقيقة أن الذى اتهم المنصور بذلك هو محمد بن عبد الله من آل على وهو المعروف بالنفس الزكية. وذلك عندما خرج على المنصور فى المدينة؛ حيث صعد على منبر الرسول ﷺ وخطب قائلاً: «أما بعد أيها الناس فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله (أبى جعفر) ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معانداً لله فى ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام».

وأورد الشيخ أمين الخولى رد عالم هندى معاصر على ادعاء جورجى زيدان وهو الشيخ شبلى النعمانى الذى وضع كتابًا فى ذلك وعرض فيه لمسألة القبة الخضراء حيث نقدها على أساس أن من يدعى الخلافة وهى منصب دينى لا يجد لذلك سبيلاً إلا التظاهر بالدين، ولذلك كان الخلفاء الأمويون والعباسيون يُصَلّون بالناس ويؤمونهم ويحجُّون بهم، فكيف يسوغ للمنصور أو غيره أن يصغِّر من شأن الكعبة ويمس من شرفها؟(٢).

ولا شك أن رأى الشيخ شبلى النعمانى مقنع وإن كان الشيخ أمين الخولى لا يراه كافيا، وقد لجأ إلى استعراض تاريخ بناء قصر المنصور وعلاقة ذلك بخروج محمد النفس الزكية، وانتهى إلى أن مسألة «القبة الخضراء» ترجع إلى التشيع والدعاية السياسية. كما أوضح أن مالكًا أفتى بخلع بيعة المنصور لأنها بيعة إكراه ولم يكن لفتواه علاقة بتلك «القبة الخضراء».

اليعقوبى ودعواه:

يقول اليعقوبى فى تاريخه: «ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة؛

---

(١) مالك بن أنس ص١٣٥.

(٢) مالك بن أنس: ص١٣٦.

فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا؟! فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم أن رسول الله قال: «لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى، ومسجد بيت المقدس»، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لمَّا صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة وعلَّقَ عليها ستور الديباج وأقام لها سَدنة وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيَّام بنى أمية»(١).

وبعد ذلك يهاجم اليعقوبى ابن الزبير قائلاً: «وتحامل عبد الله بن الزبير على بنى هاشم تحاملاً شديداً وأظهر لهم العداوة والبغضاء حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد فى خطبته(٢)، فقيل له: لِمَ تركتَ الصلاةَ على النبى؟. فقال: إن له أهل سوءٍ يشرئبون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به».

إذن فعبد الملك أراد تحويل الحج عن المسجد الحرام وابن الزبير ترك الصلاة على النبى محمد عليه السلام رغم أن كلاً منهما كان أو أراد أن يكون أميراً للمؤمنين، ورغم أن عبد الملك كان من فقهاء المدينة المعروفين ولا شك أنه كان يعلم أن المسجد الأقصى لا يمكن بحال من الأحوال أن يحل محل المسجد الحرام، ولكن اليعقوبى يدَّعى ما شاءتْ له الأهواءُ أن يدَّعى، ولهذا نراه يحجم عن ذكر القبة الخضراء حتى ولو من باب التفنيد لأنه وضع كتابه فى العصر العباسى.

ونبادر فنقول إن اليعقوبى كان متشيعًا لا يعترف بخلافة أحد غير الشيعة؛ فتراه فى تاريخه يتحدث عن خلافة أبى بكر تحت عنوان «أيام أبى بكر» وكذلك «أيام عمر بن الخطاب» وأيضًا «أيام عثمان بن عفان»، ثم يتحدث عن خلافة علىٍّ رضى الله عنه تحت عنوان: «خلافةُ أمير المؤمنين على بن أبى طالب». فهو لا يعترف إذن بخلافة أبى بكر وعمر وعثمان .. بل إنه يتحدث عن خلافة عمر بن عبد العزيز أيضا تحت عنوان «أيام عمر بن عبد العزيز» وذلك رغم اعترافه بأنه ترك لعنَ علىٍّ بن أبى طالب على المنبر وكتب بذلك إلى الآفاق؛ فقال الشاعر كثير:

---

(١) تاريخ اليعقوبى: جـ ٢ ص٢٦١.

(٢) المرجع السابق ص٢٦١.

وُليتَ فلم تشتم عليًّا ولم تُخِف   بريًّا ولم تَتْبَعْ مقالةَ مجرمِ

ورغم اعترافه أيضًا بأن عمر بن عبد العزيز أعطى بني هاشم الخُمس، وردَّ فدكًا التي كانت مثار خلاف بين أبي بكر وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما.

وقد استحق عمر بن عبد العزيز ثناء الشاعر العلوى الشريف الرضيّ الذى قال فيه:

ياابن عبد العزيز لو بكت العينُ فتًى من أميَّة لبكيتُكْ

أنت أنقذتنا من السبِّ واللَّعن فلو أمكن الفداءُ فديتُك

وهنا يقول الشريفُ الرضيُّ: «لو أمكن الفداء» لأنه عاش بعد عمر بفترة طويلة، وربما كان يشير إلى ما قيل عن موته مسمومًا.

إذن فهذا شاعر علوى كبير لا ينسى صنيع هذا الخليفة الأموى العادل، ولكن اليعقوبى يشير إلى حكمه تحت عنوان «أيام عمر بن عبد العزيز» وكأن التشيع لمذهب يعنى إلغاء كل حسنات من لا ينتمون إلى هذا المذهب!!.

يقول حسين عاصى فى كتاب عنوانه «اليعقوبى» إن اسمه أحمد بن أبى يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الأخبارى العباسى. أما لقبه اليعقوبى والذى عرف به فربما جاءه عن أبيه أبى يعقوب إسحاق. كما يُكنى اليعقوبى بابن واضح نسبةً إلى جده الأعلى واضح الذى كان من موالى المنصور العباسى وشغل مناصب إداريةً كبيرة أيام المنصور والمهدى والهادى. وكان واضح من المقربين إلى المنصور وقد عيِّن واليًا على أرمينيا وأذربيجان، كما عُيِّنَ حاكمًا على مصر فى عهد المهدى.

وهناك اختلاف فى أصل واضح هل هو من أصل فارسى أو أرمنى.

وذكر حسين عاصى وهو أستاذ بالجامعة اللبنانية أن واضحًا الجد الأعلى لليعقوبى كان متشيعًا ومن المتعصبين للمذهب الاثنا عشرى الشيعى، وأنه ضحى بحياته بسبب هذا التعصب لقيامه – وهو مسئول عن بريد مصر – بتهريب إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى المغرب، وهناك خلافٌ حول من قتل واضحًا أهو الهادى أم الرشيد؟

ويقول المؤلف إن أبناء واضح وأحفاده ظلوا يحملون هذه الميول التى ظلت فى اليعقوبى، وكانت أكثر وضوحًا فى تاريخه؛ حيث يسهب فى ذكر أقوال أئمة الشيعة.

ويرى المؤلف أن كل الأدلة تؤيد تشيُّع اليعقوبي وإن كان تشيعه بصورة معتدلة كما يرى.

وأشار عاصى إلى اعتماد اليعقوبي فى معلوماته على التوراة فى كتابته لتاريخ الأنبياء، وعلى مصادر سريانية وربما يهودية فى كتابته لتاريخ ملوك أشور وبابل والرومان. كما أنه اعتمد فى كتابته للتاريخ الإسلامى على مصادر علوية عباسية.

إذن رواية اليعقوبى عن بناء عبد الملك لقبة الصخرة لأسباب سياسية لا بد أن تكون موضع شك، وكذلك ادعاؤه ترك ابن الزبير الصلاة على نبى الإسلام ﷺ.

وهنا لا بد لنا أن نشير إلى واقعة هامة تنسف ادعاء اليعقوبى نسفًا، فقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٦٨هـ أن أربعة ألوية وافت عرفات فى تلك السنة وهى لواءٌ لابن الحنفية وأصحابه، ولواءٌ لابن الزبير وأصحابه، ولواءٌ لبنى أمية، ولواء لنجدة الحرورى، ولم يجر بينهم حربٌ ولا فتنة. لواء لبنى أمية فى الحج سنة ٦٨هـ بعد أن تولى عبد الملك الخلافة سنة ٦٥هـ وقبل مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ(١).

بنو أمية يحجون وابن الزبير أميرٌ للمؤمنين، وعبد الملك يبنى قبة الصخرة ليمنع أهل الشام من الحج خوفًا من مبايعتهم لابن الزبير.. هل هناك تناقض أكبر من ذلك؟

والغريب أن اليعقوبى نفسه أورد هذه الواقعة فى حوادث سنة ٦٨هـ(٢). ولئن كان قد حدث شغبٌ فى موسم الحج فإن ذلك كان فى سنة ٧٣هـ التى قُتل فيها عبد الله بن الزبير، حيث ذكر ابن الأثير أن الحجاج الثقفى حجَّ بالناس فى تلك السنة إلا أنه لم يطف بالكعبة ولا سعى بين الصفا والمروة حيث منعه ابن الزبير من ذلك، فكان يلبس السلاح ولا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن قُتل ابن الزبير، ولم يحج ابن الزبير وأصحابه لأنهم لم يقفوا بعرفة ولم يرموا الجمار، ونحر ابن الزبير بُدْنَةً بمكة.

إذن كان ذلك فى ذروة القتال بين الفريقين، ويتضح ذلك مما رواه ابن الأثير عن المنجنيق ومنعه الناس من الطواف حيث قال: «وحجَّ ابن عمر تلك السنة فأرسل إلى الحجاج أن اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس؛ فإنك فى شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمتْ وفودُ الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرًا، وإن المنجنيق قد منعهم عن ا لطواف فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة، فبطل الرمى

(١) الكامل ج ٤ ص ٨٥.

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٨.

حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا، ولم يمنع ابن الزبير الحاجَّ من الطواف والسعى»[1].

وواضحٌ من هذا النص أن وفود الله قدمت من أقطار الأرض لأداء الحج وهو أمر لم يكن في وسع عبد الملك ولا ابن الزبير أن يمنعه، كما يشير النص إلى أن ابن الزبير لم يمنع الحاج من الطواف والسعى.

أما قبل ذلك فقد أشار ابن الأثير إلى عدم تمكن الحجاج الثقفى من الطواف والسعى حيث منعه ابن الزبير الذى لم يتمكن بدوره من الحج، وكل ذلك بسبب القتال.

ويتضح من ذلك كله تهافت الادعاء ببناء قبة الصخرة لهدف سياسى، مثلما يتضح تهافت الادعاء بأن أبا جعفر المنصور بنى «القبة الخضراء» ليصرف الناس عن الحرمين سعيًا منه إلى تصغير شأن العرب، رغم أنه من بنى هاشم وهم فى الذروة من القبائل العربية، وسعيًا إلى إعظام شأن الفرس رغم قتله أبا مسلم الخراسانى.

***

(١) الكامل: ج٤ ص١٢٢ و ١٢٣.

يربعام بن نباط

يبدو أن ادعاء الباحث اليهوى «أميكام إيلاد» بأن بناء قبة الصخرة كان لأغراض سياسية قد خطر بباله لسبب تاريخى قديم لا علاقة له بالإسلام من قريب أو بعيد، ولكنه طفر من وعيه الباطن فصاغه فى صورة بحث حاول أن يضفى عليه مسحة علمية ونوعًا من الجد والوقار، وهو فى حقيقته نوعٌ من الهزل والهزال.

أما السبب التاريخى فإنه كامن فى التاريخ اليهودى منذ عهد الانشقاق السياسى والدينى الذى حدث فى القرن العاشر قبل الميلاد فى عهد رحبعام بن سليمان، ويبدو أن الباحث اليهودى ادَّخر هذه الحادثة وأراد أن يتهم بمثلها عبد الملك بن مروان حين زعم أنه بنى قبة الصخرة لأغراض سياسية.. ولقد أثبتنا كذب هذا الادعاء وتهافته؛ لأن عبد الملك لم يكن ليجرؤ على أن يفعل مثل هذه الفعلة وهو الذى كان معدودًا من فقهاء المدينة، كما أشرنا إلى أن بناء القبة لم يكن ليغنى عنه فتيلاً فى ذلك الخضم من الفتن والثورات والصراعات.. فقد حاول الانقلاب عليه فى دمشق نفسها عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق الذى غدر به عبد الملك، فماذا كان عساها أن تفيد تلك القبة فى فتنة فى البيت الأموى نفسه؟ كما أثبتت كتب التاريخ أن أربعة ألوية وافت عرفات للحج فى سنة ٦٨هـ منها لواءٌ لبنى أميَّة.. ومعنى ذلك أن عبد الملك لم يمنع الحج إلى مكة المكرمة، ولو أنه أراد ذلك لما استطاع إليه سبيلاً.

وأشرنا كذلك إلى أن اليعقوبى أورد روايته تلك للطعن فى بنى أمية بسبب تشيعه الذى دفعه أيضًا للطعن فى عبد الله بن الزبير؛ حيث ادعى أنه ترك الصلاة على نبى الإسلام قائلا: «إن له أهل سوءٍ يشرئبون لذكره»..

ويبدو أن اليعقوبى ساق أوهامه هذه معتقدًا أن أحدًا لن يقوم بتمحيصها وإظهار ما فيها من تهافت.. فابن الزبير لا يمكنه أن يترك الصلاة على نبى الإسلام وهو يرى نفسه أحق الناس بخلافة هذا النبى.. بل إن اليعقوبى نفسه يرى أن ابن الزبير كان أميرًا للمؤمنين استنادًا إلى الرأى القائل بأن «الأحق بلقب الخلافة هو من كان الحرمان تحت يده».

أما الحقيقة التى لا يستطيع باحث يهودى أو غير يهودى أن يمارى فيها فهى إقدام

يربعام بن نباط على عمل عجلين من الذهب ووضع أحدهما فى بيت إيل والآخر فى دان ليصرف الأسباط التى تحت حكمه عن الحج إلى بيت المقدس خوفًا من عودتها إلى عدوه رحبعام بن سليمان، وكل ذلك مسجلٌ فى سفر الملوك الأول وفى سفر الأخبار الثانى.

جاء فى سفر الملوك الأول أن يربعام بن نباط الأفرائيمى كان فى خدمة سليمان، وكان يربعام هذا رفيع الشأن، فلمَّا رأى سليمانُ أن الفتى يقوم بعمله قيامًا حسنًا أقامه على كل أعمال السخرة فى بيت يوسف.

ويروى سفرُ الملوك الأول سببَ تمرد يربعام على سيده سليمان بن داود؛ وذلك لأن نبيًا تنبأ بأن يربعام سيملك على عشرة أسباط بينما سيبقى لابن سليمان سبط واحد.. وجاء فى ذلك السفر: «وفى تلك الأثناء خرج يربعام من أورشليم فصادفه أخيًّا الشيلونىّ النبىّ فى الطريق، وكان مرتديًا برداء جديد، وكانا وحدهما فى البرية، فقبض أحيًّا على الرداء الجديد الذى عليه فشقَّه اثنتى عشرة قطعة وقال ليربعام: «خذ لك عشر قطع؛ لأنه هكذا قال الربُّ إله إسرائيل: ها أنذا انتزع الملك من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط، وله يكون سبط واحد نظرًا لداود عبدى ونظرًا لأورشليم»(١).

وتفسير ذلك أن القطع العشر رمزٌ لأسباط الشمال العشرة التى سيحكمها يربعام، أما القطعتان فإنهما تمثلان سبطًا واحدًا يحفظ لخليفة سليمان وهو سبط يهوذا الذى كان قد ضُمَّ إليه سبط شمعون طبقًا لما أشار إليه سفر يشوع الذى جاء فيه: «وخرجت القرعةُ الثانية لشمعون، لسبط بنى شمعون بحسب عشائرهم، وكان ميراثهم فى داخل ميراث يهوذا».

ولما علم سليمان بتلك النبوءة أراد قتل يربعام، لكنه هرب إلى مصر فى عهد ملكها شيشاق ومكث فيها حتى وفاة سليمان.

ولما ملك رحبعام بن سليمان اجتمع فى شكيم مع قومه، وكان هناك يربعام الذى أقبل من مصر، وعندئذ خاطبت جماعة إسرائيل رحبعام قائلين: «إن أباك قد ثقَّل نيرنا، وأنت فخفف الآن من عبودية أبيك الشاقة ونيره الثقيل الذى وضعه علينا فنخدمك». فطلب رحبعام منهم أن يمهلوه أيامًا ثلاثة، وعندما عادوا أغلظ لهم فى القول ولم يعمل بنصح الشيوخ بل قال لهم: «أبى أدَّبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب».

---

(١) سفر الملوك الأول ١١/ ٢٩ - ٣٢.

وبعـد هذا الرد تمرد بنو إسـرائيل على بيت داود وأقـامـوا يربعـام عليـهم ملكًا، أمـا رحبعام فلم يملك إلا على سبط يهوذا.

وانقسمت المملكة إلى مملكة يهوذا التى يحكمها رحبعام، ومملكة إسرائيل فى الشمال التى حمكهـا يربعام، وكانت تلك بداية الانشقـاق السياسى الذى تبعه الانـشقاق الدينى حيـث قال يربعـام فى نفســه: «الآن يرجع الملك إلى بيت داود. فإذا صـعد هذا الشـعبُ ليذبح ذبائح فى بيت الرب فى أورشليم، تـرجعُ قلوبُ هذا الشعب إلى سيدها رحـبعام ملك يهوذا»[1].

ويضيف سـفر الملوك الأول قائلاً عن صنيع يربعام: «فـاستشار الملك وعـمل عجلين من الذهب وقال لهم: «كـثيرٌ عليكم أن تصـعدوا إلى أورشليم، هذه آلهـتُك يا إسرائيل التى أصعدتكِ من مصر». وجعل أحدهما فى بيت إيل والآخر وضعه فى دان»[2].

هذا هو نص سفر الملوك الذى لا يحتاج إلى شرح أو تأويل.

وتقع دان بالقـرب من منبع نهـر الأردن وبيت إيل على طريق أورشليم، وكـأنما أريد بذلك أن يحيط العجلان بالمملكة الجديدة.

كمـا أقام يربعـام كهنةً من عامـة الشعب وطرد الكهنة من بنى لاوى. وقـد تنبأ أحـيًا الشيلونى النبى بفناء سلالة يربعام لعبادته الأصنام.

ولكن الانحراف عن عـبادة الله لم يقع فى مملكة يربعام وحـدها، بل إنه وقع أيضًا فى مملكة رحبعام؛ حيث جاء فى سفر الملوك الأول:

«وأقامـوا هم أيضًا لأنفـسهم مشـارف وأنصابًا وأوتادًا مقـدسة على كل ربوةٍ عـالية وتحت كل شجرة خضراء»[3].

ولما مات رحـبعـام ملكَ ابنهُ أبيام الذى جـاء فى سفر الملوك الأول عنـه: «وسار على جميع خطايا أبيه التى عملها قبله ولم يكن قلبه بكامله مع الرب إلهه».

ويبدو أن التراث الوثنى كان قـديمًا فى منطقة دان؛ فقد أشار سفـر القضاة إلى هجرة عشـيرة دان إلى مدينة لايـيش فى الشمال حـيث أحرقوها ثم أعـادوا بناءها وسمـوهما

---

(١) سفر الملوك الأول ١٢/ ٢٦ - ٢٧.

(٢) المرجع السابق ١٢/ ٢٨ - ٢٩.

(٣) المرجع السابق ١٤/ ٢٣.

باسم دان أبيهم الذى ولد لإسرائيل ونصب بنو دان التمثال المنحوت واتخذوا من يوناثان ابن جرشوم بن موسى وبنيه كهنةً لهم حتى يوم الجلاء عن تلك الأرض(١).

وقد بنى سبط دان معبدهم قرب ينابيع فوارة بالمياه تعرف باسم ينابيع دان التى يتدفق الماء منها طيلة أيام السنة وكأنهم أرادوا بذلك أن يتحدّوا إله بنى إسرائيل الذى ينزل المطر من السماء لأنهم ليسوا بحاجة إلى ماء هذا المطر بسبب مياه تلك الينابيع.

ويتضح هذا التحدى عندما نستعرض ما جاء فى سفر تثنية الاشتراع الذى أشار إلى أن الأرض التى سيدخلها بنو إسرائيل تعتمد على المطر وليست مثل أرض مصر التى تكثر فيها المياه؛ فقد جاء فى سفر التثنية: «فإن الأرض التى أنت داخلٌ إليها لترثها ليست كأرض مصر التى خرجتم منها حيث كنت تزرع زرعك وتسقيه برجلك كمزرعة بقول، لكن الأرض التى أنتم عابرون إليها لترثوها هى أرض جبال وأودية تشربُ ماءً من مطر السماء، أرضٌ يعتنى بها الربُّ إلهك، وعينا الرب إلهك عليها دائمًا».

ولقد انتقد النبى عاموس بعد يربعام بنحو قرنين من الزمان هذا المعبد الذى أقيم فى دان، مما يدل على أن تلك الحادثة تركت أثرًا عميقًا فى النفوس.

لقد كان عاموس نبيًا قرويًا عاش فى عهد يربعام الثانى، ويحفل سفره بالنذر والرؤى حول العقاب الذى سينزل ببنى إسرائيل، حيث جاء فى نهاية الرؤيا الرابعة من ذلك السفر:

«فى ذلك اليوم يغمى على العذارى الحسان وعلى الشبان من العطش إن الذين يحلفون بإثم السامرة ويقولون: «حيٌّ إلهك يا دان وحيَّةٌ طريق بئر سبع».

يسقطون ولا يقومون بعد ذلك»..

وهو يشير هنا إلى عجل الذهب الذى أقامه يربعام فى دان.

هذا هو التاريخ الذى لا يستطيع أحدٌ أن يمارى فيه.. ولهذا عوقب بنو إسرائيل بهدم الهيكل الأول وبالنفى إلى بابل، ثم بهدم الهيكل الثانى والتشتيت فى أنحاء العالم لقتلهم الأنبياء.

ويقول ابن العبرى فى كتابه «تاريخ مختصر الدول» إن نبوخذ نصر ملك بابل بعث قائده إلى أورشليم حيث هدم سورها وأحرق الهيكل، وكان لشمعون رئيس الكهنة عند

---

(١) سفر القضاة ١٨/ ٢٧ - ٣٠.

هذا القائد منزلة، فسـأله فى أمر كتب الوحى فلم يحرقهـا، فجمعها شمـعون باتفاق مع إرميـا النبى ووضعاها مع لوحى النامـوس وعصا موسـى ومجمرة البـخور وباقى آلات القدس فى تابوت العهد ورميا بها فى بعض الآبار ولم يعرف مكانها إلى الآن(١).

ويضيف ابن العبرى قائلاً: «وجلس إرمـيا النبى ينوح على أورشليم عشرين سنة، ثم انتقل إلى مـصر، فقبض عليـه قوم من اليهود وحـبسوه فى جب، ثم أخرجـوه ورجموه ومات ودفن فى مصر»(٢).

لقـد رفض بنو إسرائيل الـهدى فـأضلهم الله، ولـم يعـد هناك فائدة فى وجـود ألواح موسى أو تابوت العهـد، فأخفى الله تعالىٰ ذلك عنهم حتى يظلوا فى تيـه نفسى ومعنوى وروحى، حتى ولو أقاموا دولة محصنة بأقوى الأسلحة فإنها لن تغنى عنهم شيئًا وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧].



(١) تاريخ مختصر الدول ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق ص٤٢.

الباب العاشر

القدس بين معابد الأرض والسماء

ذكر العلامة ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» أن إبراهيم - عليه السلام - بنى البيت العتيق فى مكة المكرمة وهو أول مسجد وُضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، وبوأه الله مكانه أى أرشده إليه ودلَّه عليه[1].

وقال المؤرخ الإسلامى: «وقد قدمنا فى صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث إنه لو سقط لسقط عليها، وكذلك معابد السموات السبع، كما قال بعض السلف إن فى كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض فأمر الله تعالى إبراهيم - عليه السلام - أن يبنى له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض. كما ثبت فى الصحيحين أن «هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة»[2].

وبعد ذلك يضيف ابن كثير قائلاً عن فضل أبى الأنبياء: «ولهذا استحق إبراهيم الخليل - عليه السلام - إذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحله وموضعه فى منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة»[3].

وكان ابن كثير قد أورد قبل ذلك روايةً فحواها أن الحرم رابع أربعة عشر بيتا، فى كل سماء بيت وفى كل أرض بيت، لو سقطت سقط بعضها على بعض، وأن الحرم محرَّمٌ فى السموات السبع مقداره من الأرض، وأن بيت المقدس مقدَّس فى السموات السبع مقداره فى الأرض».

ويتضح مما سبق أن هناك أصلاً ثابتاً فى عالم الروح للحقائق الواقعة فى عالم الأرض

---

(١) الجزء الأول ص ١٨٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٩٠.

وأن البيت المعمور فى السماء يعتبر النموذج الكامل الذى بُنى البيت الحرامُ على مثاله، وكذلك بيت المقدس يعتبر محاكاةً لبيت فى السماء، ولهذا فإنه لا بد أن يكون مكاناً للسلام والوئام، ومن هنا كان تحريم الصيدِ فى البيت الحرام، وإذا لم تكن القدس التى فى الأرض مطابقة للقدس التى فى السماء فإنها لا تصبح قُدْساً، ومن ثم فإن فرض الصبغة اليهودية بالقوة على هذه المدينة المقدسة ومحاولة بعض الجماعات اليهودية هدم المسجد الأقصى – وهو أمر قد يؤدى إلى حرب عالمية ثالثة – لا يمكن إلا أن يكون اعتداءً على قدسية القدس بل إلغاءً لهذه القدسية.

ولقد تناول هذه المسألة العلامة الفرنسى رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبدالواحد يحيى) فى باب عنوانه «ملكيصادق» فى كتابه «مَلك العالم» حيث أورد نصاً من سفر التكوين جاء فيه: «وأخرج ملكيصادق ملك شليم خبَزاً وخمراً لأنه كان كاهناً لله العلى وبارك أبرام وقال:

«على أبرام بركةُ الله العلىّ
خالقِ السموات والأرضِ
وتبــــــارك الله العـــلىّ
الذى أسلم أعداءك إلى يديك
وأعطاه أبرامُ العُشر من كل شىء»

وكلمة «شليم» معناها «السلام». وعلق جينو على كلمة «شليم» قائلاً: «لابد أن نشير إلى أن كلمة «شليم» خلافاً للرأى الشائع لم تكن قط اسماً لمدينة. ومن الخطأ الاعتقاد بأن كلمة «شليم» هى الاسم الأول لأورشليم لأن هذه المدينة كان اسمها يبوس، وإذا كان اسم أورشليم قد أطلق على هذه المدينة عندما أقام العبريون مركزاً روحياً فيها فقد كان ذلك للدلالة على أنها صورة محسوسة من شليم الحقيقية، ويلاحظ أن الهيكل قد بناه فيها سليمان الذى اشتق اسمه «شلومو» من كلمة «شليم» أى «السلام» ومعناه «المسالم»[1].

(١) ملك السلام ص ٤٩. وقد أشار جينو رحمه الله بهذه المناسبة إلى اشتقاق الإسلام والسلام من جذر واحد، وأوضح أن الخضوع للإرادة الإلهية (وهذا هو المعنى الحقيقى للإسلام) هو الشرط الضرورى للسلام.

وأوضح جينو أن مباركة ملكيصادق لإبراهيم - عليه السلام - نقلت إليه «نفحة روحية» وجعلته على اتصال بالله العلىّ.. كما أن ملكيصادق أعلى رتبة من إبراهيم لأنه باركه؛ ومما لا خلاف فيه أن الأصغر يتلقى البركة من الأكبر ، وهنا كانت نقطة الاتصال بين التراث الأول الكبير وبين التراث العبرى(١).

وتحدث جينو عن مسألة «الأرض المقدسة» فأشار إلى أن ربوة صهيون هى المركز الروحى عند اليهود، ولكن جبل جرزيم يقوم بنفس الدور عند السامريين، حيث يوصف بأنه «الجبل المبارك» و«الربوة الخالدة» و«جبل الميراث» وهو «الجبل الأول» حيث كانت جنة عدن ولم يغمره الطوفان. ولكن بمجرد الابتغاد عن وجهة النظر اليهودية المحدودة يصبح لكل ذلك مغزى رمزى؛ ذلك لأن كل المراكز الروحية الثانوية التى تقام بوصفها تكييفاً للتراث الأول فى ظروف بعينها هى صور للمركز الروحى الأول، وصهيون ليس إلا مركزاً فرعياً ولكنه يتفق مع المركز الأعلى بسبب التشابه بينهما. كما أن أورشليم ليست إلا صورة من شليم الحقيقية، والأرض المقدسة ليست أرض إسرائيل وحدها(٢).

ويذكرنا هذا اللقاء بين ملكيصادق وإبراهيم بلقاء موسى - عليه السلام - مع الخضر صاحب العلم اللدنى. وإذا كان التراث الإبراهيمى الذى انبثقت منه اليهودية والمسيحية والإسلام صورة من التراث الكبير الأول أو مستمداً منه، فإن اليهودية مجرد شعبة منه، ولهذا فإن الأصح هو إطلاق تعبير «أرض مقدسة» على فلسطين وليس تعبير «الأرض المقدسة» الذى قد يوحى بأنه ليس هناك أرض مقدسة غيرها.

ومما يدل على أن هذه الأرض مباركة منذ إبراهيم - عليه السلام - أى قبل ظهور اليهودية ما جاء فى الآية ٧١ من سورة الأنبياء: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره «الكشّاف» أن هذه البركات ترجع إلى أن أكثر

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦، ٥٧.

ونشير هنا إلى أن العلامة جينو وُلد عام ١٨٨٦، واعتنق الإسلام عام ١٩١٢، وعاش فى مصر منذ الثلاثينيات حتى رحيله عام ١٩٥١، وقد دفن فيها وله مقام معروف. وهو من أكبر العقليات التى ظهرت فى أوربا فى القرون الأخيرة.

الأنبياء بُعثوا فى هذه الأرض، فانتشرت فى العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية، وهى البركات الحقيقية.

ولهذا فإن هناك أراضى مقدسة أخرى. وإذا كانت اليهودية شعبة من ملَّة إبراهيم، فإنا نلاحظ أن الإسلام برؤيته الواسعة يتطابق مع ملَّة إبراهيم فى سعة الأفق، حيث يقوم على الإيمان بكل الأنبياء، بينما لا يؤمن اليهود بالمسيح ولا بمحمد - عليهما السلام - كما أن المسيحيين لا يؤمنون بنبى الإسلام.. ونجد أننا مضطرون لتقرير أن المسيحية أوسع أفقاً من اليهودية، كما أن الإسلام أوسعُ أفقاً من اليهودية والمسيحية معا.

ودليل ذلك أن الإسلام لا يقف بأى حال موقف العداء من هاتين العقيدتين، بل إنه يحمى أتباعهما إذا كانوا يعيشون فى ظل دولته، وذلك أمر طبيعى لأن المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء والرسل، بل إن الإسلام يعتبر موسى وعيسى - عليهما السلام - من أُولِى العزم من الرسل الذين جاء ذكرهم فى الآية الكريمة رقم ٧ من سورة الأحزاب :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ . وأولو العزم من الرسل خمسة وهم: نبى الإسلام محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام .

وحتى نوضح هذه المسألة فإننا نشير بإيجاز إلى أن القرآن الكريم وجه اللوم إلى اليهود والنصارى لطعن كل فريق منهما فى الفريق الثانى حيث جاء فى الآية رقم ١١٣ من سورة البقرة : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وقد ذكر العلامة الزمخشرى فى تفسيره لها : «أى قالوا ذلك وحالُهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحقٌ من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به ألاّ يكفر بالباقى، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى شاهدٌ بصحته، وكذلك كتبُ الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً».

وتتضح سعة رؤية الإسلام التى تعادل سعة ملة إبراهيم - عليه السلام - فى الآيتين

١٣٥ ، ١٣٦ من سورة البقرة حيث جاء فيهما : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وقد أكد القرآن هذا المعنى وهو ضرورة الإيمان بكل الأنبياء والرسل في الآية ٨١ من سورة آل عمران حيث قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ولهذا يتحدث القرآن باحترام عن أنبياء بنى إسرائيل، وعندما يوبخ اليهود فإنه يفعل ذلك لمخالفتهم التوراة، بل إن أسفار اليهود وبختهم بصورة أقسى من القرآن الكريم، ولهذا فإنه من المثير للسخرية أن يدعى بعض اليهود أن فى القرآن الكريم آيات معادية للسامية! ولو صحَّ ذلك فإن أسفار اليهود تكون أكثر عداءً للسامية؛ فقد جاء في سفر أشعيا :

«عرف الثور مالكه والحمارُ معلف صاحبه لكن إسرائيل لم يعرفْ وشعبيَ لم يفهم

ويلٌ للأمة الخاطئة

الشعبِ المثقل بالآثام

ذرية أشرارٍ وبنينَ فاسدين»

* كما جاء فى أشعيا :

«كيف صارت المدينة الأمينة زانية؟

لقد كانت مملوءةً عدلاً

وفيها كان مبيتُ البر

أما الآن فإنما فيها قتلة

فضتك صارت خبثاً، وشرابُك مُزج بماء

رؤساؤك عصاةٌ وشركاءُ للسَّراقين

كلٌّ يحب الرشوة ويسعى وراء الهدايا

لا ينصفون اليتيم

ودعوى الأرملة لا تبلغ إليهم»

• كما جاء فى سفر ارميا:

« لذلك أعطى نساءهم لآخرين

وحقولهم للوارثين

لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم

يطمعون جميعاً فى المكاسب

من النبى وحتى الكاهن

يأتون الكذب جميعاً»

ويشير إرميا إلى أن الختان الذى اعتبره اليهود علامة العهد مع الله لن يجدى شيئاً؛ حيث قال:

«ها إنها تأتى أيام، يقول الربُّ أعاقبُ فيها كل المختونين فى أجسادهم! مصرَ ويهوذا وآدوم وبنى عمُّون وموآب وكل مقصوصى السوالف الساكنين فى البريَّة؛ لأن كل الأمم قُلف، وكلُّ بيت إسرائيل غلفُ القلوب».

بينما يقول حزقيال: «وتعلمُ الأممُ أن بيت إسرائيل إنما ذهبوا إلى الجلاء بسبب إثمهم» .

وأما بالنسبة للمسيحية فإن الإسلام يعتبر أتباعها أقرب إلى المسلمين من اليهود حيث جاء فى الآية ٨٢ من سورة المائدة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

ونرى أن القرآن يدافعُ عنَ المسيح - عليه السلام - ضد اليهود منكراً أنهم صلبوا

المسيح، وهو يفعل ذلك للدلالة على أنهم أهونُ شأناً وأعجز عن النجاح فى النيل منه - عليه السلام - وهذه نقطة يجبُ أن يلتفت إليها المسيحيون إذا أرادوا فهم منطق الإسلام فى نظرته إلى المسيحية؛ حيث يقول تعالى عن اليهود فى الآيات: ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

وهناك واقعة أخرى أكثر دلالةً على دفاع القرآن عن المسيح - عليه السلام - حيث جاء فى الآيات: ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ من سورة الزخرف : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

وقد فسر الزمخشرى هذه الآيات بقوله: «لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً فقال عبدالله بن الزبعرى : يا محمد.. أخاصةً لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ : «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: خصمتُكَ وربِّ الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبيٌّ وتثنى عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمتَ أن النصارى يعبدونهما، وعزيرٌ يُعبد، والملائكة يُعبدون، فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم؟!، ففرحوا وضحكوا، وسكت النبى ﷺ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

كما أن «ما» فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ إنما تدل على غير العاقل وهو الأصنام، ولهذا فقد ورد أن النبى ﷺ قال لابن الزبعرى: «ما أجهلك بلغة قومك».

أورشليم السماوية :

ولقد يكون من المناسب هنا أن نورد رأى القديس بولس فى مسألة القدس، مع ملاحظة أنه قام بدور كبير فى تاريخ المسيحية. وهو يرى فى رسالته إلى العبرانيين أن أورشليم فى السماء، وأن الوطن السماوى هو الغاية لا أرض كنعان.

يقول بولس فى هذه الرسالة : «بالإيمان لبَّى إبراهيمُ الدعوة فخرج إلى بلد قُدر له أن يناله ميراثاً، خرج وهو لا يدرى إلى أين يتوجه. بالإيمان نزل فى أرض الميعاد نزوله فى أرض غريبة، وأقام فى الخيام مع إسحق ويعقوب الشريكين فى الميراث الموعود عينه. فقد كان ينتظر المدينة ذات الأسس واللهُ مهندسها وبانيها»(١). وهذه المدينة ذات الأسس هى أورشليم السماوية.

وبعد ذلك يقول بولس : «فى الإيمان مات أولئك جميعاً ولم يحصلوا على المواعد بل رأوها وحيَّوها عن بعد واعترفوا بأنهم «غرباء نزلاء فى الأرض» فإن الذين يقولون هذا القول يدلُّون على أنهم يسعون إلى وطن. ولو كانوا يفكرون فى الوطن الذى خرجوا منه لكان لهم الوقتُ للرجوع إليه، فى حين أنهم يرغبون فى وطنٍ أفضل؛ أعنى الوطن السماوى»(٢).

كما يرى القديس بولس أن دخول كنعان لم يكن دخولاً فى راحة الله؛ حيث أشار إلى ما ورد فى المزمور ٩٥ من مزامير داود :

«اليوم إذا سمعتم صوته فلا تُقسوا قلوبكم كما حدث عند السخط يوم التجربة فى البرية، حيث جرَّبنى آباؤكم واختبرونى فرأوا أعمالى مدة أربعين سنة، لذلك استشطت غضباً على ذلك الجيل وقلت: قلوبهم فى الضلال أبداً ولم يعرفوا هم سبلى، فأقسمت فى غضبى أن لن يدخلوا راحتى».

وقد شرح بولس هذا النص قائلاً : «فإن الله عاد إلى توقيت يوم «اليومَ» فى قوله بلسان داود بعد زمن طويل ما تقدم ذكره «اليومَ إذا سمعتم صوته، فلا تقسُّوا قلوبكم».

فلو كان يشوع قد أراحهم لما ذكر الله بعد ذلك يوماً آخر(٣). وقد أراد بولس بذلك أن يشير إلى أن راحة الله هدف لم يدرك حتى فى عهد داود، وذلك بعد يشوع أو يوشع بن نون وَصِىٍّ موسى الذى دخل فلسطين، مما يعنى أن دخول أرض كنعان لم يكن دخولاً فى راحة الله. ومعنى ذلك أن أرض الميعاد التى وُعد بها اليهود إنما هى رمزٌ للوطن السماوى فى عالم الروح، ولكن مشكلة اليهود أنهم يتمسكون بحرفية النصوص؛ فهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار لأنهم من سلالة إبراهيم – عليه السلام – ولهذا فقد جاء

(١) الرسالة إلى العبرانيين: ١١/٨ – ١٠.
(٢) المرجع السابق: ١١/١٣ – ١٦.
(٣) المرجع السابق: ٣/٧ – ٨.

فى إنجيل متَّى أن يوحنَّا المعمدان كان يخاطب الفريسيين والصدوقيين قائلاً:

«ولا يخطر لكم أن تعللوا النفس فتقولوا «إن أبانا هو إبراهيم» فإنى أقول لكم إن الله قادر على أن يُخرج من هذه الحجارة أبناءً لإبراهيم. ها هى ذى الفأسُ على أصول الشجر، فكلُّ شجرةٍ لا تثمر ثمراً طيباً تقُطع وتُلقى فى النار»[1].

كما أوضح بولس فى «الرسالة إلى العبرانيين» أن عبادة اليهود فى العهد الأول - أى قبل ظهور المسيح - تعتبر عبادة صورة وظلٌّ للحقائق السماوية[2] ولهذا فإن الذبائح القديمة التى كانت تُقَرَّبُ كل سنة لا فائدة فيها حيث إن شريعة موسى كانت تشتمل على ظل الخيرات المستقبلة لا على تجسيد الحقائق، ولهذا فإنها عاجزةٌ أبد الدهور أن تجعل الذين يتقربون بتلك الذبائح كاملين[3].

وفيما يتعلق بصحة نسبة «الرسالة إلى العبرانيين» إلى بولس فإن البعض يرى أنها ليست من مؤلفات بولس؛ ومن هؤلاء كالفن وكذلك لوثر الذى يرى أنها ليست من عمل بولس. أما الكاثوليك فإنهم يرون أنها لبولس، ويرى أوريجينس أن أفكار الرسالة مناسبة لبولس، لكن أحد تلاميذه هو الذى كتبها وعبَّر بأمانة عن آراء معلمه.

وقد يَجمُل بنا أن نتحدث بإيجاز عن سيرة بولس؛ فقد كان يهودياً قبل تَنَصُّره، وكان اسمه شاول، وعُرِف بشدة عدائه للمسيحيين فى بداية الدعوة ولكن المسيح تجلَّى له وهو سائر إلى دمشق حيث سمع صوتا يقول له: «شاول، شاول لماذا تضطهدنى؟» وقد سقط شاول على الأرض حين رأى نوراً يسطع فى السماء، ثم نهض وهو لا يبصر شيئاً رغم أن عينيه كانتا مفتوحتين حسبما جاء فى سفر أعمال الرسل. ولكن المسيح جاء فى رؤيا لأحد تلاميذه واسمه حننيا الذى ذهب إلى شاول المسمَّى الطرسوسى حيث أبلغه باختيار المسيح له ليبلِّغ رسالته إلى الوثنيين والملوك وبنى إسرائيل.

وقد روى بولس قصة تنصُّره فى خطبته التى ألقاها بالعبرية فى أهل أورشليم حيث قال: «أنا رجل يهودى وُلدت فى طرسوس من قليقية، على أنى نشأت فى هذه المدينة وتلقيت عند قدمى جملائيل تربيةً موافقةً كل الموافقة لشريعة الآباء، وكنتُ ذا حمية لله شأنكم جميعاً فى هذا اليوم واضطهدتُ تلك الطريقة حتى الموت».

---

(١) متَّى: ٣/ ٩.

(٢) الرسالة إلى العبرانيين: ٨/ ٥.

(٣) المرجع السابق: ١٠/ ١.

وقص بولس بعد ذلك أنه رجع إلى أورشليم وأن صوتاً أمره بالخروج منها لأنهم لن يقبلوا المسيحية، وقال له هذا الصوت: «اذهب إني مرسلُك إلى بلاد بعيدة إلى الوثنيين».

وقد استفاد بولس - في مواجهة اضطهاد اليهود ومحاولتهم جلده بالسياط - من جنسيته كمواطن روماني حيث قال: «أيجوز لكم أن تجلدوا رجلاً رومانيّا ولم تحاكموه؟!».

ولقد عُرِف بولس بمهارته في الجدل؛ حيث أثار الانقسام بين الفريسيين والصدوقيين عندما حاكمه اليهود؛ إذ صاح في المجلس «أيها الإخوةُ أنا فريسي وابن فريسي، فمن أجل الرجاء في قيامة الأموات أحاكَم»، وعندئذ وقع الخلاف بين الصدوقيين الذين يقولون إنه لا قيامة ولا ملائكة ولَا روح، وبين الفريسيين الذين يؤمنون بذلك كله.

كما تآمر اليهود لقتل بولس في كمين، لكن ابن أخته أحبط هذه الخطة.

وكذلك جادل بولس وهو في أثينا بعض الفلاسفة الأبيقوريين والرواقيين حيث قال لهم: «إن الله الذي صنع العالم وما فيه والذي هو رب السماء والأرض لا يسكنُ في هياكل صنعتها الأيدي» . وقد انضم إليه بعض الرجال وآمنوا ومنهم ديونيسيوس الأريوباغي.

وقد فند بولس في «الرسالة إلى أهل رومة» ادعاءات اليهود بشأن الختان وغيره من الأمور التي يتمسكون فيها بالمفهوم الحرفي للنصوص حيث قال :

«لا شك أن في الختان فائدة إن عملتَ بالشريعة ولكن إذا خالفتَ الشريعة صار ختانُك قلفا، وإن كان الأقلفُ يراعي أحكام الشريعة، أفما يُعد قلفه ختانا؟» ثم يقول: «والختانُ ختانُ القلب العائد إلى الروح لا إلى حرف الشريعة»(١).

ويرى بولس أن إبراهيم - عليه السلام - أبٌ لجميع المؤمنين، وأن ذرية إبراهيم هم المؤمنون سواء كان أصلهم يهودياً أم وثنياً. كما يشير إلى أن الله تعالى إله الجميع وليس إله اليهود وحدهم حيث يتساءل: «أوَ يكون الله إله اليهود وحدهم؟ أما هو إله الوثنيين أيضاً؟ بلى هو إله الوثنيين أيضاً لأن الله أحد. بالإيمان يُبرّرُ المختون، وبالإيمان يُبرّرُ الأقلف، أفنبطل الشريعة بالإيمان؟ معاذ الله، بل نثبت الشريعة»(٢).

---

(١) الرسالة إلى أهل رومة: ٢/ ٢٥ - ٢٩.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٩ - ٣١.

ويقول بولس: «فلا فرق بين اليهودى واليونانى؛ فالربُّ ربهم جميعا يجود على جميع الذين يدعونه».

إن استعراض آراء بولس لا تخلو من فائدة لفهم المسيحية فهمًا جادًا لأن رسائله تتضمن كثيراً من التعاليم.. وهنا مسألة يجب الوقوف عندها قليلاً؛ فقد ظن البعض أن تسامح المسيحية الذى جاء كرد فعل على التشدد اليهودى يعنى التساهل وعدم الالتزام بالآداب والأخلاق، وهذا وهم كبير وخطأ لا يحسنُ السكوتُ عليه لأن الأديان السماوية لا يمكن أن تدعو إلا إلى الفضائل .

نعم ما أعظم كلمات المسيح حين قال: «أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضيكم وباركوا لاعنيكم».

وما أعظم كلماته وهو يوبخ علماء اليهود قائلاً :

«الويلُ لكم؛ فإنكم تبنون قبور الأنبياء

وآباؤكم هم الذين قتلوهم»

كما قال لهم: «الويلُ لكم يا علماء الشريعة؛ قد استوليتم على مفتاح المعرفة، فلم تدخلوا أنتم، والذين أرادوا الدخول منعتموهم!!».

وهنا نعود إلى مسألة التسامح والخلط الذريع الذى يقع فيه البعض؛ حيث روى فى إنجيل يوحنا أن الكتبة والفريسيين جاءوا إلى المسيح بامرأة اتهمت بالزنا، فقال لهم المسيح : «مَن كان منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها بحجر».

وقد ظن البعض أن هذا القول ينطوى على نوع من التساهل مع هذا الانحراف الخلقى، ولكن الحقيقة هى أن المسيح أراد أن يكشف زيف هؤلاء الكتبة الذين يهرعون إلى اتهام الآخرين ولا يتهمون أنفسهم حتى ولو كانوا يقترفون الآثام. ولهذا فإن المسيح قال للمرأة وهو ينهاها أن تعود إلى الخطيئة: «اذهبى ولا تعودى بعد الآن إلى الخطيئة».

أما بولس فقد حارب الإباحية ونهى عن الرذائل فى رسالته الأولى إلى أهل قورنتس حيث قال: «أما تعلمون أن الفجار لا يرثون ملكوت الله؟ فلا تضلوا؛ فإنه لا الفاسقون ولا عُبَّادُ الأوثان ولا الزناةُ ولا المخنثون ولا اللوطيُّون ولا السَّراقون ولا الجشعون ولا السكيرون ولا الشتامون ولا السالبون يرثون ملكوت الله»[1] .

---

(١) الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس: ٦/٩ – ١٠.

ودعـا إلى تطهيـر الأجسـاد قائلاً : «أوَ مـا تعلمـون أن أجسـادكم هى هيكل الروح القدس وهو فيكم قد نلتموه من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟» .

كما ناقش مسألة الزواج قائلاً : «وأقول لغير المتزوجين والأرامل إنه يحسنُ بهم أن يظلوا مثلى، فإذا لم يطيقوا العفاف فليتزوجوا؛ فالزواج خيرٌ من التحرّق»[1].

إذن فالمسيحية لا تتهاون فيما يتعلق بالأخلاق، وهذه مسألة مهمة؛ لأن ارتباط أوروبا بالمسيحية منذ عهد الدولة الرومانية جعل البعض يتوهم أن ما هو شائع من انحلال فى الغرب اليوم أمرٌ تقبله المسيحية..

والحقيقة أن الحضارة الغربية المعاصرة قد ابتعدت عن المسيحية، بل إنها تحاربها بكل سبيل وترفض أن يكون لها أى تأثير فى السلوك الإنسانى والاجتماعى والسياسى، وكل هذه الآثام التى نهى عنها بولس شائعة اليوم فى الغرب، بل إنها تلقى التشجيع كل التشجيع. ولهذا فإنه سيكون من الغريب أن ينساق بعض المسيحيين فى الشرق إلى تقليد هذا النموذج الغربى بحجة أن الغرب كان متمسكاً بالمسيحية فى يوم من الأيام، وهذا تقليد يرفضه المسيح نفسه حيث قال بدءاً من الآية ٣٤ فى الفصل العاشر فى إنجيل متى:

«لا تظنوا أنى جئتُ لأحمل السلام إلى الأرض، ما جئتُ لأحمل سلاماً بل سيفاً :

جئتُ لأفرق بين المرء وأبيه

والبنت وأمها، والكنَّة وحماتها

فيكون أعداء الإنسان أهلُ بيته ..

من أحبَّ أباه أو أمه أكثر مما

يحبنى فليس أهلا لى، ومن أحب

ابنه أو ابنته أكثر مما يحبنى فليس أهلاً لى».

كما قال فى إنجيل لوقا فى الفصل ١٢ من الآية ٥١ :

«أتظنون أنى جئتُ لأُحلَّ السلام فى الأرض؟ أقول لكم: لا بل الانقسام، فيكون بعد اليوم خمسةٌ فى بيت واحد منقسمين؛ ثلاثة منهم على اثنين واثنان على ثلاثة».

---

(١) الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس: ٧/ ٨ - ٩.

ولقد أراد المسيح هنا أن ينبه إلى أمر مهم، وهو رفضه الاستسلام للأمر الواقع وحرصه على تغيير هذا الواقع، وهذا هو جوهر أى رسالة سماوية... ولهذا فإنه يرفض السلام السهل ويصر على السلام الحقيقى الذى يقوم على الفضائل والعدل والحق.

ويذكرنا هذا بانقسام العرب عند ظهور نبى الإسلام محمد ﷺ؛ حيث كان يُسلم الابنُ ويضطهده أبوه أو أسرته، وعلى سبيل المثال كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مسلماً يحاربُ فى جيش النبى فى معركة بدر بينما كان أبوه عتبة فى الطرف الآخر مع زعماء كفار قريش رغم أنه كان يميل إلى السلام لولا عناد أبى جهل وصلفه، ولهذا قال النبى فى عتبة بن ربيعة: «إن كان فى القوم خيرٌ ففى صاحب الجمل الأحمر». وكذلك كانت واقعة عمر بن الخطاب مع أخته وزوجها وغضبه لإسلامهما، ثم انتهى الأمر بإسلامه.

ولهذا فإنه لا يليق بأتباع الأديان السماوية هذا التقليد الأعمى للسلوك المادى المعاصر، وجدير بهم أن يكونوا مستقلين فى تفكيرهم وسلوكهم.

ولعل تناول هذه المسائل هنا قد يبدو بعيدا عن مسألة القدس، ولكن الحقيقة هى أن هذه المدينة المقدسة ليست إلا رمزا للعلاقة بين الأديان السماوية الثلاثة، ومن ثم فإن ذكر بعض الحقائق قد يكون ضرورة لكشف بعض الغموض، كما أن ذلك يفيد فى الحوار بين أتباع هذه الأديان مع احترام حرية المؤمنين فيما يعتقدون.

ونعود إلى قول المسيح عليه السلام:

«لا تظنوا أنى جئت لأحمل السلام إلى الأرض؛ ما جئت لأحمل سلامًا بل سيفا».

فنؤكد أن السلام الذى يشير إليه المسيح هنا هو السلام الزائف؛ لأن رسول السلام لا يمكن أن يكون عدوا للسلام، كما أن كلمة السيف هنا ليست رمزا للحرب والقتال ولكنها ترمز إلى رفض الأمر الواقع إلا إذا كان مطابقا للتعاليم الدينية التى جاء بها المسيح.

ونشير هنا إلى الآية الأخيرة فى سورة «المجادلة» فى القرآن الكريم ونصها:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فهذه الآية القرآنية تشير إلى أن المؤمنين لا يوادون من يحاربون اللهَ ورسوله حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم.. ويذكِّرنا هذا بقول المسيح: «جئت لأفرِّق بين المرء وأبيه».

كما جاءت فى الآية القرآنية رقم ٤ من سورة الممتحنة إشارة إلى رفض إبراهيم عليه السلام والذين معه متابعة قومهم على الضلال حيث تقول الآية:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ.. ﴾.

رموز فى سِفْر الرؤيا:

إن الكتب المقدسة لا تخلو من أسلوب رمزى مما يستلزم بذل جهد لفهم المغزى الحقيقى لما يرد فيها من نصوص؛ مثل العدد ٦٦٦ الوارد فى «سفر الرؤيا» حيث جاء فى الآية رقم ٢١٨ من الفصل ١٣ فى رؤيا يوحنا: «فمن كان ذكيا فليحسب عدد اسم الوحش: إنه عدد اسم إنسان، وعدده ستمائة وستة وستون» فقد ذكر المفسرون أن هذا العدد يرمز إلى النقص الجذرى لأن العدد ٦ يرمز إلى النقص بينما يرمز العدد ٧ إلى الكمال، وأوضحوا أن العدد ٦٦٦ يساوى القيمة العددية للحروف الساكنة من اسم «نيرون قيصر» بالعبرية. وهذه الحروف الساكنة هى «قصر نرون» بعد استبعاد حرف الياء، وكان نيرون يضطهد المسيحيين.. وقد أشار إلى ذلك عالم اللاهوت الفرنسى «أوستى» فى شرحه لهذه الآية فى الترجمة الفرنسية للكتاب المقدس. كما أشار «أوستى» إلى أن رؤيا يوحنا تتعلق بفترات اضطهاد المسيحيين وتتنبأ بانتصار الحق على الظلم. وقد يكون من المناسب هنا أن نشير إلى لجوء بعض الجماعات فى الغرب مثل «الألفيين» إلى التمسك بمعنى حرفى لسفر الرؤيا مثل تصورهم عن معركة هرماجدون رغم أن ما جاء فى هذا السفر يتعلق فى المقام الأول باضطهاد الرومان للمسيحيين ويبشر بزوال هذا الاضطهاد ولا علاقة له بأحداث العصر الحاضر. ومن هنا تتضح أهمية التأويل الرمزى الذى يستند إلى معرفة حقيقية لا إلى الأوهام.

وقد ذكر يوسف كرم فى كتابه «تاريخ الفلسفة اليونانية» فى فصل عن الفيلسوف اليهودى فيلون الذى ولد قبيل المسيحية فى الإسكندرية أن يهود الإسكندرية كانوا يشرحون التوراة شرحًا رمزيًا على غرار شرح الفيثاغوريين والأفلاطونيين للميثولوجيا

وعبادات الأسرار؛ فكانوا يؤولون الفصل الأول من سفر التكوين بأن الله خلق عقلا خالصا فى عالم المُثُل هو الإنسان المعقول، ثم صنع على مثل هذا العقل عقلا أقرب إلى الأرض هو آدم، وأعطاه الحسَّ وهو حواء، فطاوع العقلُ الحسَّ وانقاد للذة (الممثلة بالحية)، فولدت النفس فى ذاتها الكبرياء (وهو قابيل)، وانتفى منها الخير (وهو هابيل).

كما أوَّلوا عبور البحر الأحمر بأنه رمز لخروج النفس من الحياة الحسية، وأغصانَ الشمعدان السبعة بأنها رمز للسيارات السبع، والحجرين الكريمين اللذين يحملهما الكاهن الأكبر بأنهما رمز للشمس والقمر أو لنصفى الكرة الأرضية[١].

وقد اصطنع فيلون هذا الضرب من التأويل ولكن دون مغالاة، وهو يرى أن الله ليس إله إسرائيل فحسب، بل إله العالم أجمع. كما استبعد فيلون من اليهودية كل طموح سياسى وقال إن اليهودى يهودى دينًا لا جنسية، ويجب عليه أن يكون مواطنا فى البلد الذى يقيم فيه، وأوَّلَ الوعود الإلهية فى التوراة بخيرات دنيوية ومستقبل سعيد لشعب إسرائيل بأنها وعود بخيرات روحية للنفس الصالحة، كما أول التئام شمل اليهود فى بلد واحد بعد تويتهم بأنه يعنى اجتماع الفضائل فى النفس بعدما أحدثته الرذيلة من تشتت[٢].

لقد تحدثت «رؤيا يوحنا» عن أورشليم الجديدة التى رآها صاحب الرؤيا نازلة من السماء، مما يدل على ارتباط بين الأرض والسماء، وذكر أن طولها وعرضها وعلوها سواء. وقد جاء فى «قاموس الرموز» فى طبعته الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨٢ أن المكعب رمز للعالم المادى والعناصر الأربعة، كما أنه رمز للثبات. كما أوضح المؤلفان أن المكعب يعتبر من وجهة النظر الصوفية رمزاً للحكمة والحقيقة والكمال الخلقى وهو نموذج لأورشليم القادمة التى وعد بها سفر الرؤيا وهى ذات أبعاد ثلاثة متساوية. وأشار القاموس إلى الكعبة بوصفها أقدس مكان إسلامى وإلى شكلها المكعب كما يدل اسمها وجاء فى هذه المادة :«من المثير ملاحظة أن الكعبة الأولى ترجع إلى مصادر الأديان السماوية؛ حيث جاء فى التراث أن آدم هو الذى بناها ثم أعاد بناءها إبراهيم وإسماعيل بعد الطوفان، ويتضح من ذلك أن الشكل المكعب بوصفه رمزا للكمال يكمن فى أصل حضارتنا؛ فهو صورة الخلود. وإذا اقترن المكعب مع الشكل الكروى كان ذلك رمزا لمجموع الأرض والسماء النهائى واللانهائى للمخلوق وغير المخلوق».

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية: ص٢٤٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٤٩.

وذكر الزمخشري في تفسيره للآية ١٢٧ من سورة «البقرة» ونصها : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾: أن هناك رواية تقول إن الله تعالى أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة وقال لآدم: أهبطتُ لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي، وأن آدم توجه من أرض الهند إليه ماشيا وتلقته الملائكة فقالوا: بَرَّ حجُّك يا آدم. ثم رفع الله هذا البيت من مكة أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببنائه، وعرَّفه جبريل مكانه، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء. وهذا كله يدل على وجود مثال في السماء للأماكن المقدسة.

وقد جاء في «قاموس الرموز» أن أورشليم ترمز في الوصف الذي أورده لها سفر الرؤيا إلى النظام الجديد للأشياء الذي سيحل محل النظام الحاضر في نهاية الأزمان، وأوضح القاموس ضرورة الانتباه إلى الشكل المربع لأورشليم السماوية مما يميزها عن الفردوس الأرضي الذي يصوَّر عادة في شكل كروي، وذلك لأن هذا الفردوس يعتبر بمثابة «السماء على الأرض» بينما تعتبر أورشليم الجديدة بمثابة «الأرض في السماء»؛ فالأشكال الكروية تتعلق بالسماء، والأشكال المربعة تتعلق بالأرض.

وتحوُّل العالم الذي ترمز إليه أورشليم الجديدة ليس عودة إلى ماضٍ مثالي ولكنه اتجاه إلى مستقبل غير مسبوق.

ويرى العلامة رينيه جينو أن «أورشليم السماوية» ترمز إلى نهاية دورة كونية وإنسانية، كما أن «الفردوس الأرضي» يرمز إلى بداية الدورة، ولهذا فإنه كروي الشكل؛ لأن الشكل الكروي يرمز به للبداية، أمَّا «أورشليم السماوية» فإن شكلها مربع وهو الشكل المناسب لحالة الثبات في نهاية الدورة، ولكن هذا الثبات لا يكون نهائيا إلا بالنسبة للدورة الحالية، أما بعد ذلك فإن «أورشليم السماوية» هذه هي التي ستصبح -طبقا لمبدأ الترابط السببي الذي لا يسمح بأي انقطاع فعلي - «الفردوس الأرضي» للدورة القادمة، أي أن نزول أورشليم السماوية هو في وقت واحد نهاية دورة قديمة وبداية دورة جديدة لأن تلك النهاية وهذه البداية ليستا في الحقيقة إلا لحظة واحدة ينظر إليها من جهتين متقابلتين(١).

---

(١) دولة الكم وعلامات الزمان: ص ١٣٨.

ولكن هذا الانتقال لا يمكن أن يتحقق، كما يقول جينو فى باب عنوانه «من الكروى إلى المكعب» فى كتابه «دولة الكم وعلامات الزمان»، إلا بتدخل مبدأ مفارق للمادة، وإذا لم يحدث هذا التدخل فلن يمكن إنقاذ شيء، وعندئذ سيفنى الكون، أما هذا التدخل فإنه سيؤدى إلى ظهور سماوات جديدة وأرض جديدة كما جاء فى رؤيا يوحنا، ويدل ذلك رمزيا على بداية دورة كونية وإنسانية جديدة[1].

ويتضح ذلك مما جاء فى الفصل ٢١ فى رؤيا يوحنا: «وقال الجالس على العرش: «ها أنذا أجعل كل شيء جديدا». وقال: «اكتب: هذا الكلام صدقٌ وحقٌّ». وقال لى: «قُضِى الأمر أنا الألف والياء، البداية والنهاية».

ويشير هذا النص إلى بداية دورة جديدة بعد نهاية الدورة الحالية حيث جاء فى بداية الفصل ٢١ من هذه الرؤيا:

«ورأيتُ سماءً جديدةً وأرضًا جديدةً؛ لأن السماء الأولى والأرض قد زالتا، والبحر لم يبق له وجود».

الصهيونية والمسيحية:

وقد يكون من المناسب فى هذا الباب الذى تناول وجهة النظر المسيحية بشأن القدس أن نعرض للمحاولات اليهودية لكسب تأييد المسيحيين؛ حيث بدأ تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية هذه المحاولات عندما سافر إلى روما فى عام ١٩٠٤ سعيا إلى طلب وساطة ملك إيطاليا فيكتور عمانويل الثالث لدى السلطان عبد الحميد لإقناعه بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين. كما أراد هرتزل أن يستميل رئيس الكنيسة الكاثوليكية ليؤيد المشروع الصهيونى.

وقد تحدث عن هذه الرحلة إسرائيل كوهين فى كتابه الصادر بالإنجليزية عام ١٩٥٩ بعنوان «تيودور هرتزل.. مؤسس الصهيونية السياسية»، حيث ذكر أن هرتزل توجه إلى روما فى أواخر يناير سنة ١٩٠٤ حيث التقى فى البداية مع الكاردينال ميرى ديل فال سكرتير دولة الفاتيكان وأبلغه برغبته فى الحصول على بيان من الفاتيكان بتأييد قضيته لكن الكاردينال رد عليه قائلا: «لست أدرى كيف نستطيع القيام بمبادرة فى هذا الشأن؟ إننا لا نستطيع إصدار بيان بهذا المعنى طالما ظل اليهود ينكرون ألوهية المسيح. وكيف

(١) دولة الكم وعلامات الزمان: ص ١٤١.

يسوغ لنا أن نعلن - دون التخلى عن مبادئنا العليا - أننا نؤيد عودة اليهود إلى امتلاك الأرض المقدسة؟!».

وعندئذ رد عليه هرتزل بقوله :«نحن نريد الأرض الدنيوية فقط.. على أن تتمتع الأماكن المقدسة بالحصانة».

فأجابه الكاردينال قائلا :«لن يكون من المناسب تخيلها وكأنها جيب».

وفى ٢٥ يناير ١٩٠٤ التقى هرتزل مع البابا ليون الثالث عشر الذى قال بعد أن شرح هرتزل ما يريد.. «لا نستطيع تأييد هذه الحركة.. صحيح أنه ليس بوسعنا منع اليهود من الذهاب إلى أورشليم لكننا لا يمكن أن نشجع ذلك؛ إن أرض أورشليم لم تكن مقدسة منذ الأزل لكنها تقدست بحياة المسيح. ولا يسعنى أن أقول غير ذلك بوصفى رئيسا للكنيسة. إن اليهود لم يعترفوا بالمسيح ولهذا فإننا لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودى»[١].

وعندئذ اقترح هرتزل أن تتمتع الأماكن المقدسة بالحصانة بحيث يكون لها وضع خاص مثل البعثات الدبلوماسية التى لا تخضع لقوانين البلاد التى تكون فيها، وأشار إلى الوضع القائم؛ أى: الدولة العثمانية.

فأجابه البابا قائلا :«أعلم أنه ليس من الأمور السارة أن يمتلك الترك الأماكن المقدسة وعلينا أن نتحمل ذلك. أما إظهار تأييدنا لليهود فى سعيهم لامتلاك الأماكن المقدسة فأمر لا نستطيعه».

ولما دعا هرتزل البابا إلى النظر إلى معاناة اليهود، قال ليون الثالث عشر:

«نعم.. لكننى بوصفى رئيسا للكنيسة لا أستطيع أن أفعل ذلك. وهناك بديلان: إما أن يتمسك اليهود بعقيدتهم ويظلوا على انتظارهم للمسيح الذى نرى نحن أنه قد جاء فعلا وعندئذ يكون اليهود قد أنكروا ألوهية المسيح وبذلك لا نستطيع مساعدتهم. وإما أن يعيشوا بغير دين وفى هذه الحالة أيضا لا نستطيع أن نقف إلى جانبهم».

ولا ريب أن اليهود واصلوا ضغوطهم على الفاتيكان الذى ظل يرفض الاعتراف بإسرائيل إلى عهد قريب. والواقع أن الفاتيكان يرى أن مستقبل القدس أو الأماكن

---

(١) تيودور هرتزل.. مؤسس الصهيونية السياسية: ص ٣٤٨، ٣٤٩.

المقدسة على الأقل لا يمكن أن يقرره الإسرائيليون أو الفلسطينيون وحدهم، كما أن فرنسا التى تعتبر نفسها حامية الأماكن المقدسة منذ فرانسوا الأول وكذلك ملك أسبانيا الذى يحمل لقب ملك أورشليم معنيًان بحل هذه المشكلة، ولقد أبدى الفاتيكان منذ بداية القرن العشرين قلقه من تزايد أعداد اليهود فى الأرض المقدسة، وفى عام ١٩٤٧ أيد الفاتيكان قرار الأمم المتحدة بأن يكون للقدس وضع خاص، ولم يتغير هذا الموقف، ولكن الفاتيكان اعترف بإسرائيل بعد اتفاقيات أوسلو، وذلك فى الاتفاق الأساسى الموقع فى ٣٠ ديسمبر ١٩٩٣، حيث أقام علاقات دبلوماسية مع إسرائيل.

ورغم ذلك فإن الفاتيكان ينظر دائما بارتياب إلى المحاولات الإسرائيلية لشراء الممتلكات العقارية التى تملكها الكنائس. والقدس هى المكان الوحيد الذى لابد لأى كنيسة فيها من الحصول على موافقة من روما لبيع أى من ممتلكاتها خوفًا من وقوعها فى يد إسرائيل. فقد حدث للبعض أنه باع عقارا وهو يظن أن المشترى شركة سويسرية ثم اكتشف أن العقار قد وقع فى قبضة إسرائيل.

إن اليهود يجيدون لعبة الابتزاز للحصول على تنازلات، وفى بداية مايو ١٩٩٨ نشرت صحيفة «جيروزاليم بوست» فى عددها الأسبوعى الصادر بالفرنسية مقالاً عنوانه «الخطوة القادمة» رحبت فيه بحرص البابا يوحنا بولس الثانى فى عيد القيامة على تبرئة اليهود من مسئولية قتل المسيح ولكن الصحيفة قالت إن العداء المسيحى للسامية استحوذ على نفوس الجماهير التى ما زالت تتجاهل نداءات الكنيسة، ثم رحبت الصحيفة بدعوة منظمة أمريكية اسمها «التحالف المسيحى من أجل إسرائيل» - وهى على صلة «بالسفارة المسيحية الدولية فى القدس» - آلاف المسيحيين من أصدقاء إسرائيل إلى القيام بدور فعال فى مكافحة العداء للسامية وذلك باعتبار أى مظهر من مظاهر العداء للسامية عملاً موجهاً ضد كنائسهم وعليهم أن يقاوموه بكل السبل.

وقالت الصحيفة التى تريد منع الفاتيكان من إعلان أى رأى لا يتفق مع السياسة الإسرائيلية: «لقد قام البابا يوحنا بولس الثانى بدور هام فى هذا التطور، لكنه يستطيع أن يفعل المزيد، ولو بالكف عن التعبير عن رأيه فى الجانب السياسى للصراع الإسرائيلى الفلسطينى، وكذلك بالحضور ليعلن رسالته من أرض إسرائيل: دولة إسرائيل».

وهذا هو مغزى عنوان المقال «الخطوة القادمة» إذ أن الاعتراف بإسرائيل لا يكفى، ومكافحة العداء للسامية لا يكفى، وتبرئة اليهود من قتل المسيح لا تكفى، ولكن لا بد

من تكميم الأفواه والخضوع المطلق لما تمليه السياسة الإسرائيلية، فهل يستجيب الفاتيكان لهذا الابتزاز؟ أم أنه لن يتراجع عن رسالة العدل والسلام التى جاء بها المسيح؟

إن ما أشارت إليه الصحيفة الإسرائيلية ليدعو إلى التفكير فى مسألة «الاختراق الصهيونى للمسيحية» حيث صدر كتاب بهذا العنوان فى القاهرة بقلم إكرام لمعى تحدث فيه عن انعقاد «المؤتمر المسيحى الصهيونى الدولى» فى أبريل ١٩٨٨ فى إسرائيل حيث افتتحه إسحق شامير رئيس الوزراء الذى دعا كل المسيحيين فى العالم إلى دعم دولة إسرائيل. وأوضح المؤلف أن المؤتمر بنى دعوته لتأييد إسرائيل على فكرتين:

١- علاقة إسرائيل الخاصة بالله كشعب.

٢- أن عودة اليهود إلى فلسطين وتأسيس الدولة - حسب فكرهم - يعجل بالمجئ الثانى للمسيح؛ لأن من شروط هذا المجئ فى رأيهم تأسيس دولة إسرائيل ليحكم المسيح من أورشليم العالم لمدة ألف عام[١].

وعلق المؤلف على ذلك بقوله إن فكرة حكم المسيح للعالم حكمًا حرفيا لألف عام من أورشليم ليس لها سند حقيقى من الكتاب المقدس، وكل ما يعتمدون عليه فيها هو بعض الآيات التى تُفسر بطريقة خاطئة ومغرضة[٢].

وقد أصدرت «هيئة السفارة المسيحية فى أورشليم» وهى المنظمة لهذا المؤتمر كتيبا عن المؤتمر تحت عنوان «الأسس الكتابية للصهيونية المسيحية» وضعت فيه آيات من الكتاب المقدس أُخذت من موقعها دون اهتمام بخلفية النص أو القرينة الدالة عليها، وقد انعكس عليها ظل الدولة الصهيونية؛ إذ تحول السيد المسيح رئيس السلام إلى رجل حربى ينحاز إلى إسرائيل، وبدلا من أن يكون هذا المؤتمر نداء للسلام بدا وكأنه دعوة إلى الحرب.. فقد حضره شامير ورابين وقادة الحركة الصهيونية المسيحية فى العالم[٣].

وذكر المؤلف أن هذا المؤتمر قد رفضه كل رؤساء الكنائس المسيحية فى أورشليم من الأثوذكس والكاثوليك والأنجليكان والإنجيليين وكل الكنائس والهيئات الإنجيلية فى الشرق الأوسط وكل الكنائس الغربية فى أنحاء العالم.. لكن المشكلة تكمن فى بعض الإنجيليين الغربيين والأمريكيين على وجه الخصوص والذين يقدر عددهم بأقل من ٧٪

(١) الاختراق الصهيوني للمسيحية: ص ١٣٥. (٢) المرجع السابق: ص ١٣٧.

(٣) المرجع السابق : ص١٣٨.

من سكان أمريكا وهم الذين تحظى إسرائيل بتأييدهم لها.. وكان هدف ذلك المؤتمر سياسيا بالدرجة الأولى؛ حيث استخدم الكتاب المقدس - والعهد القديم بصفة خاصة- لتأكيد حق إسرائيل فى احتلال الأرض(١).

ومن الغريب أن الذين تحدثوا فى المؤتمر لم يشيروا إلى يسوع المسيح ولكن إلى المسيا، ولم يكن واضحا هل هم يتحدثون عن المسيا حسب التفسير المسيحى (رسول السلام والحب لكل العالم) أم حسب التفسير اليهودى (المسيا العسكرى الذى يحرر اليهود)، كما أن نجوم المؤتمر لم يكونوا لاهوتيين بل كانوا من الساسة وضباط الجيش.

وقد تحدث المؤلف عن عقيدة المجئ الثانى للمسيح، فقال إنها من العقائد المتميزة فى المسيحية، وتعد من الأركان الأساسية للإيمان المسيحى، وقد كان المجئ الأول منذ ألفى عام ويعتبر توقع المجىء الثانى من أهم موضوعات الإنجيل، لكن هناك اختلافا حول كيفية وتفاصيل هذا المجئ، وكان هذا الاختلاف على كيفية المجئ هو الثغرة التى نفذت منها الصهيونية لتقنع بعض المسيحيين بأن إسرائيل الدولة العلمانية العسكرية تعتبر إحدى علامات المجئ الثانى(٢).

وأوضح مؤلف كتاب «الاختراق الصهيونى للمسيحية» أن نظريات المُلك الألفى جاءت نتيجة لما كتب فى سفر الرؤيا عن ملك المسيح لمدة ألف عام. وأشار إلى انقسام المسيحيين حول هذه النظرية إلى أربع فرق(٣) وهى:

١- نظرية القبل ألفين التاريخية: ويرى أصحاب هذا الرأى أن مجئ المسيح الثانى سوف يسبق الملك الألفى، لذلك سموا بالقبل ألفيين أو سابقى الملك الألفى، بمعنى أن المسيح سوف يأتى ثانية بشكل حرفى ثم يحكم الأرض لمدة ألف عام.

٢- نظرية القبل ألفين المحدثين: ويتفق هؤلاء مع أصحاب النظرية السابقة فى أن المسيح سوف يحكم الأرض بصفة حرفية لمدة ألف عام بعد مجيئه الثانى، لكن هناك فروقا كثيرة بين النظريتين.

وانتقد المؤلف اعتماد أصحاب هذه النظريات على التفسير الحرفى لكل الكتاب المقدس سواء كان النص أخلاقيا أم أدبيا أم تاريخيا.

---

(١) المرجع السابق: ص ١٣٩.
(٢) المرجع السابق: ص ١٨٧.
(٣) المرجع السابق : ص ١٨٩ إلى ص ٢٠٦.

٣- نظرية التفسير الروحى للحكم الألفى: وأهم ما يميز هذا الرأى (الذى يعتبر أكثر استقامة) هو القول بأنه بالمجئ الثانى للمسيح سوف تكون القيامة وأن الملك الألفى ليس حرفيا وليس لمدة ألف عام بالضبط وإنما هو فترة معينة تعود فيها الأمم إلى الله.

٤- نظرية من يرفضون الملك الألفى: ويتلخص رأى أصحاب هذه النظرية فى أنه لا يجب تفسير النبوة بشكل حرفى، ويرفض هؤلاء أى محاولة لتحديد المجئ الثانى للمسيح الذى سيأتى دون علامة مؤكدة، ويرون أن نبوءات العهد القديم تحققت من قبل ولا علاقة لها بأحداث اليوم، ويعلنون أن الكتاب لم يتحدث مطلقا عن عودة اليهود إلى فلسطين ولا عن ملك المسيح من أورشليم.

إن الاختراق الصهيونى للمسيحية مسألة هامة، وربما كان من الأهمية بمكان تحديد بداية هذا الاختراق أو بالأحرَى التمهيد لهذا التطور.. ويبدو أن ذلك قد بدأ مع ظهور البروتستانتية على يد عالم اللاهوت والمصلح الألمانى مارتن لوثر فى القرن السادس عشر. وقد نادى لوثر بضرورة التمسك بالكتب المقدسة وأولَى «العهد القديم» اهتماما كبيرا.. ويرى بعض المحققين أن حركة لوثر لم تكن دينية بحتة وإنما كانت وراءها أغراض سياسية؛ حيث أنه كان متحالفا مع بعض الأمراء الألمان الناقمين على البابوية فأراد أن يخدم مصالح هؤلاء الأمراء بالطعن فى سلطة البابا.

وقد استغل اليهود هذه الثغرة ونفذوا منها، واستطاعوا كسب التأييد بين البروتستانت، ولهذا فإنه لم يكن من الغريب أن تتحالف معهم بريطانيا البروتستانتية وتمنحهم وعد بلفور، ثم تحالفت معهم بعد ذلك الولايات المتحدة البروتستانتية أيضا.

ولقد فطن إلى هذه النقطة الدقيقة جمال أسعد الذى أوضح فى مقال نشره فى صحيفة «الأخبار» القاهرية فى ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٠ أن هذا التلاقى بدأ فى القرن السادس عشر عندما بدأت البروتستانتية تروج لفكرة العودة إلى الأصول «النصوص المقدسة» وتدعو المؤمنين للعودة إلى العهد القديم باعتباره مصدر المسيحية وأساسها.

ولقد وصف بعض العلماء البروتستانتية بأنها نهضة عبرانية أو تهويدية.. حتى أن كثيرا من البروتستانت أصبحوا على اقتناع بأن فلسطين أرض يهودية.

وأوضح الكاتب فى مقاله الهام أن «المسيحية المتهودة» على حسب تعبيره قامت على

الإيمان بثلاثة مبادئ وهى:

١ - أن اليهود هم شعب الله المختار وأنهم بذلك الأمة المفضلة على الأمم.

٢- أن هناك وعداً إلهيا يربط اليهود بالأرض المقدسة فلسطين.

٣- ربط الإيمان المسيحى بشأن عودة السيد المسيح بقيام دولة صهيون، وكأن ذلك شرط لظهور المسيح، وتلك هى عقيدة الحكم الألفى.

وتشكلَ هذه المبادئ الثلاثة قاعدة خطيرة للقاء بين البروتستانتية واليهودية.

ومن ناحية أخرى فإن اليهود قد استغلوا ظهور النِّحَل (جمع نحلة بكسر النون) أو الفرق الدينية فى الغرب، خاصة تلك الفرق أو الجماعات التى تؤمن بالعقيدة الألفية إيمانا حرفيا وتبشر بزوال العالم الحاضر وظهور المسيح ليحكم العالم طيلة ألف عام.

ومن أشهر هذه الجماعات تلك الجماعة التى تعرف باسم «شهود يهوه» التى أسسها تشارلز رسل عام ١٨٧٤ فى الولايات المتحدة، وكان اسمها فى البداية «دارسو الكتاب المقدس»، ثم أطلق عليها فى عام ١٩٣١ اسم «شهود يهوه» وكلمة يهوه كلمة عبرية معناها الإله.

ويقول جان فيرنيت فى كتاب بالفرنسية عنوانه "Les Sectes" أى النِّحَل أو الفرَق والذى صدر عام ١٩٩٧ إن شهود يهوه يرون أن الكنيسة هى «البَغِىّ» التى تحدث عنها سفر الرؤيا، كما يعتقدون أن العالم المسيحى شجرة عفنة سوف تقطع قريبا وتدمر بالنار(١).

ويرى شهود يهوه أيضا أن الله لم يعد يمثله أحد منذ انهيار مملكة إسرائيل سنة ٦٠٧ قبل الميلاد.

وقد بشر «شهود يهوه» بأن معركة «هرمجدون» ستقع قبل عام ١٩١٤ فى نهاية المرحلة الأخيرة من التاريخ الإنسانى، وأن «شهود يهوه» وحدهم هم الذين سوف تتحقق لهم النجاة، بينما سيكون الهلاك مصير أتباع الأديان الأخرى والخاطئين ومسئولى الكنائس والحكومات.

ومن الغريب أن هذه الجماعة التى تعتمد على قراءة حرفية للكتاب المقدس لم

---

(١) Les Sectes : ص ٢٣.

يزعجها أن نبوءتها حول وقوع معركة «هرمجدون» لم تتحقق قبل عام ١٩١٤ الذى نشبت فيه الحرب العالمية الأولى، ولم تتورع عن تغيير موعد هذه النبوءة لتجعله «بعد» عام ١٩١٤ وذلك فى كتيب طبعته عام ١٩٢٣، ولكنها غيرت فيه كلمة «قبل» ١٩١٤ وجعلتها «بعد»!![١].

وكان شهود يهوه يعترفون فى البداية بألوهية المسيح، ثم تراجعوا عن ذلك وأعلنوا أن المسيح ليس إلها ولا إنسانا ولكنه هو الملك جبريل قبل أن يولد، ثم عاد مرة أخرى بعد موته ليكون ملاكا وكائنا روحيا.

وقد تأثر «شهود يهوه» بفكر آريوس، وقد بدا ذلك فى رفضهم لفكرة الثالوث. كما يبدو أن هذه الجماعة تأثرت برأى القائلين بأن المسيح لم يمت بجسده حقا على الصليب[٢].

وذكر المؤلف الفرنسى أن كل فرع فى أى بلد لجماعة «شهود يهوه» يطلق عليه اسم «بيت إيل» وهى كلمة عبرية. وعرفت هذه الجماعة برفضها أداء الخدمة العسكرية.

مكانة المسيح فى الإسلام:

ولقد يكون من المناسب هنا اختتام هذا الباب بالحديث عن مكانة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فى الإسلام، وقد خصه الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى كتابه «الفتوحات المكية» بالباب العشرين وعنوانه «العلم العيسوى» حيث أوضح أن سبب الحياة هو النفخ الإلهى كما قال تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي.. ﴾[ص: ٧٢]، فأعطى عيسى علم هذا النفخ الإلهى فكان ينفخ فى الصورة الكائنة فى القبر أو فى صورة الطائر الذى أنشأه من الطين فيقوم حيا بالإذن الإلهى السارى فى تلك النفخة وفى ذلك الهواء. ولولا سريان الإذن الإلهى ما حصلت حياة فى صورة أصلا، فمن «نفَس الرحمن» جاء العلم العيسوى إلى عيسى.

ويتحدث ابن عربى فى الباب الرابع والعشرين من الفتوحات عن نزول عيسى ابن مريم الذى يصفه بأنه خاتم الولاية العامة فيقول:

«واعلم أنه لا بد من نزول عيسى عليه السلام ولا بد من حكمه فينا بشريعة محمد ﷺ».

(١) المرجع السابق : ص ٤١ و٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٤٢.

ثم يقول: «فكان من شرف النبي ﷺ أن «ختم الأولياء» في أمته نبيٌّ رسولٌ مكرَّم وهو عيسى عليه السلام، وهو أفضل هذه الأمة المحمدية. وقد نبه عليه الترمذي الحكيم في كتاب «ختم الأولياء» وشهد له بالفضل على أبي بكر الصديق وغيره. فإنه وإن كان وليا في هذه الأمة والملة المحمدية، فهو نبي ورسول في نفس الأمر.

فله يوم القيامة حَشْران: يُحْشَر في جماعة الأنبياء والرسل بلواء النبوة والرسالة وأصحابه تابعون له، فيكون متبوعًا كسائر الرسل، ويحشر أيضا معنا وليًا في جماعة أولياء هذه الأمة تحت لواء محمد ﷺ تابعا له، مقدمًا على جميع الأولياء من عهد آدم إلى آخر ولي يكون في العالم، فجمع الله له بين الولاية والنبوة ظاهرا».

وهذا النص الهام لابن عربي يدل على المكانة الخاصة للمسيح عليه السلام ومدى توقيره والاحتفاء به في الإسلام، فهو نبي ورسول من أولي العزم، وهو مقدم على جميع الأولياء من عهد آدم إلى آخر الزمان.

ويرى ابن عربي أيضا في الباب السادس والثلاثين وعنوانه «في معرفة العيسويين وأقطابهم وأصولهم» أن شرع محمد ﷺ تضمن جميع الشرائع المتقدمة، وأنه ما بقي لها حكم في هذه الدنيا إلا ما قررته الشريعة المحمدية، فبتقريرها ثبتت، فتعبَّدْنا بها نفوسَنا من حيث إن محمدا ﷺ قررها، لا من حيث إن النبي المخصوص بها في وقته قررها. فلهذا أوتي رسول الله ﷺ «جوامع الكلم».

وواضح من هذه الكلمات أن ابن عربي فسر «جوامع الكلم» بزبدة وجوهر الشرائع السابقة التي تضمنها الإسلام.

ويشير ابن عربي إلى رواية عن وجود وَصِيٍّ لعيسى ابن مريم في زمن عمر بن الخطاب واسمه «زريب بن برثملا»، وأن أصحاب سعد بن أبي وقاص عثروا عليه في جبل أيام معارك القادسية، وأنه بكى بكاء طويلا حتى خضب لحيته بالدموع حين علم بموت النبي محمد ﷺ.

وأن أصحاب سعد سألوه: من أنت، يرحمك الله؟ فقال: أنا زريب بن برثملا وصي العبد الصالح عيسى ابن مريم عليهما السلام أسكنني هذا الجبل ودعا لي بطول البقاء إلى نزوله من السماء.

ثم أشار ابن عربي إلى نهْي النبي عليه السلام عن قتل الرهبان الذين اعتزلوا الخلقَ وانفردوا بربهم.

أما جلال الدين السيوطى فإن له كتابا عنوانه «نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان» أورد فيه أحاديث منها حديث جاء فيه:

«يلبث الدجال ما شاء الله، ثم ينزل عيسى ابن مريم مصدِّقاً بمحمد وعلى ملته إمامًا مهديًا وحكمًا عدلا فيقتل الدجال».

كما أورد السيوطى حديثا يقول فيه نبى الإسلام عليه السلام :«كيف تهلك أمةٌ أنا فى أولها وعيسى ابن مريم فى آخرها والمهدى من أهل بيتى فى وسطها؟!».

ومن الطريف أن السيوطى وضع هذا الكتاب للرد على سؤال ورد إليه يوم الخميس السادس من جمادى الأول سنة ٨٨٨هـ عن نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان وبماذا يحكم هذه الأمة: بشرع نبينا؟ أم بشرعه هو؟ ثم سأل السائل: هل يحكم المسيح بأحد المذاهب الأربعة؟ أم باجتهاد منه؟

وقد رد عليه السيوطى بأن المسيح سيحكم فى هذه الأمة بشرع نبينا لا بشرعه هو، وقد نص على ذلك العلماء. ثم أبدى عجبه من سؤال السائل عن المذهب الذى سيحكم به عيسى ابن مريم فقال:« هذا السؤال أعجب من سائله، وأشد عجبا منه قوله بمذهب من المذاهب الأربعة، فهل خطر ببال السائل أن المذاهب من هذه الشريعة منحصرة فى أربعة مذاهب؟

ثم أوضح أن المجتهدين فى هذه الأمة لا يُحصون كثرةً، وكل من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين له مذهب، وأنه كان فى زمنهم نحو عشرة مذاهب مقلَّدة أربابها مدونة كتبها.

وساق السيوطى رأيًا مماثلا لما ذكره ابن عربى فى «الفتوحات» عن اعتبار عيسى عليه السلام من أمة النبى محمد ﷺ مع بقائه على نبوته، وذكر أنه اجتمع بالنبى ﷺ مرات وهو حى مؤمنًا به ومصدقا فى غير ليلة الإسراء ولهذا فإنه يعد فى زمرة الصحابة.

وأورد السيوطى قول الذهبى فى كتابه «تجريد الصحابة» :إن «عيسى ابن مريم عليه السلام نبى وصحابى؛ فإنه رأى النبى ﷺ وسلَّمَ عليه، فهو آخر الصحابة موتًا» وقرر السيوطى أن جبريل سيتنزل بالوحى على عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ولكنه لن يكون وحيًا بشرعٍ ينسخ شَرْعَ الإسلام.

وفند القول بعدم نزول جبريل بعد موت النبى عليه السلام، واستدل على ذلك

بحديث أخرجه الطبرانى عن ميمونة بنت سعد. قالت: قلت يا رسول الله هل يرقد الجُنُبُ؟ قال: ما أحب أن يرقد حتى يتوضأ فإنى أخاف أن يتوفى فلا يحضره جبريل». فهذا الحديث كما يرى السيوطى يدل على أن جبريل ينزل إلى الأرض ويحضر موت كل مؤمن حضره الموت وهو على طهارة.

ثم أورد حديثا آخر ساقه الطبرانى عن ابن مسعود عن النبى عليه السلام فى وصف الدجال، قال :«يمر بمكة فإذا هو بخلق عظيم، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا جبريل بعثنى الله لأمنعه من حرم رسوله».

كما أشار السيوطى إلى نزول جبريل والملائكة فى ليلة القدر ليسلموا على المسلمين، وذكر أن ذلك هو تفسير الآية ﴿تنزَّلُ الملائكة والروح فيها﴾ حيث أن الروح هنا هو جبريل.

ثم يقرر السيوطى إمكان نزول الوحى فى آخر الزمان على عيسى ابن مريم؛ لأن النبى لا يذهب عنه وصف النبوة أبداً حتى بعد موته، وإنّ تخيل اختصاص الوحى للنبى بزمن دون زمن قول لا دليل عليه.

ونقل السيوطى عن السبكى قوله إن النبى ﷺ هو نبى الأنبياء؛ ولهذا فإن المسيح يأتى فى آخر الزمان على شريعته وهو نبى كريم على حاله لم ينقص منه شىء، وذلك لأن نبوة محمد ﷺ ورسالته أعَمّ وأشمل.

ويتضح من ذلك أن عيسى سينزل متبعا لنبى الإسلام مع بقائه على نبوته ونزول جبريل عليه بالوحى. كما أثبت السيوطى صلاة عيسى خلف المهدى، واستدل على ذلك بصلاة النبى ﷺ - وهو أرفع الأنبياء درجة - خلف عبد الرحمن بن عوف مرة وخلف أبى بكر الصديق مرة أخرى.

وكل ذلك يدل على المكانة الخاصة للمسيح عليه السلام فى الإسلام؛ حيث أنه نبى ورسول كريم من أولى العزم، وأمه مريم البتول عليها السلام التى كرمها القرآن الكريم بقوله فى الآية ٤٢ من سورة آل عمران ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾.

فالإسلام له رؤية أصيلة إزاء الأديان السماوية، وليس مجرد نسخة مكررة من اليهودية أو المسيحية كما يدعى بعض الأدعياء، ودليل ذلك أنه خالف كلاً منهما فى أمور كثيرة ؛ فاليهود لا يؤمنون بالمسيح ويتهمون أمه بأمر لا يقبله الإسلام، كما أن

الإسلام يخالف المسيحية فى القول بالتثليث وصلب المسيح.

ورغم هذا الاختلاف فإنه يعتبر المسيحيين واليهود أهل كتاب، وهذا هو التعبير الصحيح دون تعبير «أهل الذمة». ولكن الفقهاء قسموا أهل الكتاب إلى قسمين:

أولا- «أهل الذمة» وهم أولئك المرتبطون بعهد وذمة مع المسلمين ويتعايشون معهم فى سلام سواء كانوا فى دولة إسلامية أو فى دولة أخرى.

ثانيا- «أهل الحرب» وهم طائفةمن أهل الكتاب لا يرتبطون بعهد مع المسلمين، ولهذا فإن تعبير «أهل الذمة» الذى شاع قديما لم يكن يقصد منه إلا تمييز أهل الكتاب المسالمين للمسلمين ولا يمكن أن يفهم منه أى تحقير أو ازدراء.. كما أن هذا التعبير ليس ركنا من أركان الإسلام حتى يتمسك به المسلمون اليوم وربما كان جديرا بهم استخدام لغة مناسبة للعصر.

وخلاصة القول أن الإسلام يقوم على قواعده وعقائده الخاصة، لكنها ذات أفق متسع وروحانية نورانية، ويقبل التعايش مع الآخرين، بل إنه يحميهم ولا يقبل إلحاق الأذى بهم.

وليس من التسامح أن يتخلى دين عن عقائده لإرضاء الآخرين، ولكن التسامح هو أن يرضى بأن يخالفه الآخرون فلا يملى عليهم شيئا فى عقيدتهم شريطة أن تكون المعاملة بالمثل.

وقد وضع الإسلام أساس الأخوة الإنسانية فى الآية ١٣ من سورة الحجرات ونصها:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.



الباب الحادى عشر

مستقبل القدس

تعمل إسرائيل منذ احتلالها القدس الشرقية فى عام ١٩٦٧ على توسيع نطاق المدينة المقدسة فيما يسمى بالقدس الكبرى، وهى لا تفعل ذلك من منطلق دينى أو روحى حقيقى، ولكنها تتوسع فى الاستيلاء قدر ما تستطيع على أراضٍ فى الضفة الغربية حتى تحول دون قيام دولة فلسطينية متماسكة واضحة المعالم.

فالصهيونية استغلت العامل الدينى منذ البداية لأهداف سياسية؛ وذلك حتى تدفع اليهود للهجرة إلى فلسطين بعد إحجام كثير منهم عن مغادرة أوطانهم التى عاشوا فيها قرونا متطاولة. بل إن إسرائيل حاولت تنفيذ مشروع يسمى «مجمع العاصمة الكبرى» وهدفه ربط القدس بتل أبيب، وهذا أوضح فى دلالته على هدفها الحقيقى وهو ابتلاع الأرض الفلسطينية.

وليس هناك أى دليل يمكن لإسرائيل أن تستند إليه فى دعواها فى القدس، وذلك لأن داود لم يؤسس هذه المدينة التى كان عمرها ألفين من السنين عندما قام باحتلالها، ولم يكن سكانها يهودا بل كانوا كنعانيين وأموريين ويبوسيين وحثيين. وهذا ما ذكره المؤرخ الإسرائيلى زئيف فيلناى فى مؤلف ضخم بالعبرية عنوانه «موسوعة لمعرفة أرض إسرائيل»، وقد أشار المؤرخ الفلسطينى كميل جميل العسلى فى بحث عنوانه «القدس فى التاريخ»[1] إلى محاولة إسرائيل تزييف الحقائق بإقامة احتفال بذكرى مرور ثلاثة آلاف سنة على «إنشاء» داود للمدينة، رغم أن عمر المدينة يصل إلى خمسة آلاف سنة كما يرى المؤرخ الإسرائيلى فيلناى ومؤرخون إسرائيليون آخرون!!

والواقع أن أقدم اسم للمدينة وهو «أوروسالم» اسم أمورى؛ ذلك لأن كلمة سالم أو شالم هى اسم إله كنعانى أمورى، بينما تعنى كلمة أورو «أسس».. وذكر عالم الآثار الأمريكى أولبرايت أن أقدم ملكين للمدينة وهما «ساز أنو» و«ياچير أمو» كانا أموريين. بل إن العهد القديم نفسه يذكر أن الأموريين هم أول سكان أرض كنعان. وكان

(١) القدس المتعددة: ص ٣٦٣.

الأموريون يتكلمون لغة كنعان وينحدرون مثلهم من أصل سامى. ويرى كثير من المؤرخين أن الأموريين فرع من شعب كنعان الذى قدم من شبه الجزيرة العربية.

وليس هناك دليل أبلغ على ذلك مما جاء فى سفر حزقيال من العهد القديم فى الآية ٣ فى الفصل ١٦ ونصها : «وقل: هكذا قال السيد الرب لأورشليم: أصلك ومولدك من أرض الكنعانيين، وأبوك أمورى، وأمك حثية».

وفى الألف الثانى قبل الميلاد كان اليبوسيون هم الذين يسكنون فى القدس.. واليبوسيون هم الذين بنوا حصن صهيون.. بل إن كلمة «صهيون» كلمة كنعانية معناها «تل أو مرتفع أو قمة».

وكان «يبوس» هو الاسم الثانى للمدينة. ولقد كانت ثقافة يبوس كنعانية، وهى حضارة قديمة ازدهرت طيلة ألفين من السنين وشيدت كثيراً من التجمعات السكنية، ولم تكن هذه الحضارة تجهل الصناعة والتجارة، وكانت تستخدم أبجدية الكتابة، وكان لها دين، وقد اقتبس العبريون الأوائل كثيراً من إنجازات اليبوسيين.

وتحاول السلطات الإسرائيلية أن تتجاهل هذه الحقائق، كما يقول المؤرخ جميل العسلى، رغم أن العهد القديم نفسه وهو مرجع لا بد أن يعتمده اليهود ينص على أن القدس لم تكن ملكاً لبنى إسرائيل طيلة ألفى سنة؛ فقد جاء فى سفر القضاة فى الفصل ١٩ أن رجلاً لاويًا أى من سبط لاوى من بنى إسرائيل كان يقيم فى جبل أفرائيم واتخذ امرأة من بيت لحم يهوذا، فغضبت عليه امرأته هذه وخرجت من عنده إلى بيت أبيها ومكثت هناك أربعة أشهر. ثم قام زوجها وسار فى طلبها وقد تصالح معها ومكث عند أبيها بضعة أيام، وكان معه خادمه ثم أزمع الرحيل. ويروى سفر القضاة بعد ذلك: «وفيما هم عند يبوس، وقد مال النهار كثيراً، قال الخادم لسيده: «هلمَّ نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه فنبيت فيها». فقال له سيده: «لا نميل إلى مدينة غريبة ليس فيها أحد من بنى إسرائيل ولكن نعبر إلى جبع».

هذا نص فى سفر مقدس لدى الشعب اليهودى يتحدث صراحةً عن يبوس بوصفها مدينة غريبة ليس فيها أحد من بنى إسرائيل.

ومن الغريب أن هذا الرجل وخادمه وامرأته ساروا بعد ذلك إلى جبع، وسكانها من أبناء بنيامين، فاستضافهم شيخ أفرائيمى، ورغم ذلك فإن سكان المدينة أرادوا الاعتداء

على الرجل، فأخرج لهم الشيخ ابنته العذراء وزوجةَ الرجل الضيف لاغتصابهما من الليل إلى الصباح مقابل عدم الاعتداء على الرجل الذى قتل امرأته وأرسل أشلاءها إلى بنى إسرائيل.. وكانت تلك جريمة لم يكن ولم يُرَ مثلها منذ خروج بنى إسرائيل من مصر حسب تعبير سفر القضاة.

إنه تاريخ حافلٌ بالأفعال غير الأخلاقية التى لا يمكن أن تكون مبرراً لكى يكون هذا الشعب هو شعب الله المختار كما يزعمون.

وأورد جميل العسلى رأى الكاتب البريطانى كولن ثوبرون الذى قال فى كتابه «القدس» الصادر عام ١٩٦٩:

«لقد تعامل المسلمون فى القرون الأولى بتسامح مع اليهود وعاشوا معهم فى سلام بينما كانت أوروبا تمارس أعمال الاضطهاد».

وقد شهد بذلك يهودى من القرائين اسمه سلمان بن يروحام عندما أشار فى عام ٩٥٠م إلى سماح المسلمين لليهود بدخول القدس قائلاً:

«كما يعلم الكافة.. فإن القدس ظلت تحت حكم البيزنطيين أكثر من ٥٠٠ سنة لم يسمح فيها لليهود بدخول المدينة... وإذا ضبط أحدهم فيها فإن القتل كان مصيره المحتوم، ولما شاءت رحمة إله إسرائيل أن يتركنا البيزنطيون وأن تظهر مملكة إسماعيل (أى العرب)، فإن اليهود سُمح لهم من جديد بالحياة فيها».

بينما يتحدث الشاعر الأندلسى يهودا الحريزى عن تسامح صلاح الدين الذى سمح لليهود بدخول القدس بعد طرد الصليبيين منها ووصفه بأنه «أمير الإسماعيليين».

وعندما طُرد اليهود من أسبانيا فتحت الدولة العثمانية أبوابها لإيوائهم، بل إن المصرفى اليهودى الكبير دون يوسف ناسى وهو لاجئ من البرتغال عُيِّن مستشاراً للسلطان العثمانى.

وقد ازداد عدد اليهود فى القدس فى ثلاث مراحل:

١- بعد الفتح العربى .

٢- بعد انتصار صلاح الدين.

٣- بعد الفتح العثمانى .

فماذا كان ثمن هذا التسامح العربي الإسلامي؟

يستفاد من وثيقة مؤرخة في سنة ١٣٩٢م أن شيخ المغاربة في القدس احتج لدى الحاكم المملوكي في دمشق على قرار غير شرعي بحرمان قريبٍ ليهودي مات من الميراث.

لقد ظل المغاربة في القدس طيلة قرون يبسطون حمايتهم على جيرانهم اليهود ويتشفعون لدى حكام دمشق من أجلهم إذا لزم الأمر. ثم جاء الرد على هذا التسامح العربي في مساء الثامن من يونيو ١٩٦٧ بعد ثلاثة أيام فقط من احتلال إسرائيل للبلدة القديمة.. حيث تم هدم حي المغاربة المجاور للحرم القدسي الشريف عندما أنذر الجيش آلاف السكان بمغادرة بيوتهم وأمهلهم ساعتين، ثم أقدمت قواته (في تسامح لم يشهد له التاريخ مثيلاً إلا في عهد الصهيونية!) على هدم ١٣٥ منزلاً لهؤلاء المغاربة، وأصبح الحي الذي عاشوا فيه دهراً طويلاً مجرد أنقاض ليكون شاهداً على إنسانية الدولة اليهودية «واحة الديمقراطية والتقدم في الشرق الأوسط!» .

ويرى المؤرخ الفلسطيني جميل العسلي (الذي وُلد في القدس وقد رحل عن عالمنا عام ١٩٩٥) أن مشكلة القدس هي المسألة المركزية وهي المفتاح الحقيقي للسلام.

وأوضح أن أية تسوية يجب أن تتضمن المبادئ التالية :

١- عدم السماح لأي شعب بالسيطرة على شعب آخر أو اغتصاب حقوقه.

٢- حق تقرير المصير لعرب القدس .

٣- احترام الأماكن المقدسة وحرية الوصول إليها.

٤- تطبيق إعلان حقوق الإنسان والقرارات الدولية بشأن القدس .

وإذا صح أن الحلول السياسية تُعد تعبيراً عن توازن القوى، فإن الحلول العادلة هي التي تصمد أمام الزمن وتقبلها الأجيال.

لقد تعاقب المحتلون على القدس، وكلٌّ يؤكد أنها مدينته، وذهب المحتلون وبقيت القدس.

أما المفكر الفلسطيني المعروف إدوارد سعيد الذي ولد في القدس أيضاً فقد ألقى محاضرة في «المعهد الملكي للشئون الدولية» في لندن في يونيو ١٩٩٥ عنوانها «الحالة

الراهنة للقدس ومستقبل عملية السلام»[1] أشار فيها إلى أن إسرائيل قررت تحويل القدس المتعددة الثقافات والأديان إلى مدينة يهودية خاضعة لسيادتها».

وانتقد سعيد عجز الفلسطينيين عن كتابة تاريخ ضياع القدس من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ قائلاً: إن هذا النسيان التاريخي والإهمال السياسي كانت نتيجتهما ضياع القدس.

ثم تحدث عما فعلته إسرائيل بعد احتلال القدس الشرقية؛ حيث أزيل الحد الفاصل بين شطرى المدينة التى أصبحت حدودها البلدية تضم ٣٨ كيلو مترا مربعاً حيث يجري توسيع المدينة ومصادرة أراضى العرب ومحاصرتها بالمستوطنات للعمل على أن تكون القدس مدينة يهودية رغم وجود الفلسطينيين فيها.

ويتحدث الجغرافى الدانماركى يان دى يونج عن هذه الخطة الإسرائيلية قائلاً: «إن مفاجأة غير سارة تنتظر أولئك الذين يظنون أن خريطة القدس عندما تُبسط على مائدة المفاوضات لن تغطى إلا القدس بحالها بعد عام ١٩٦٧. ولكن الواقع أن المدينة قد تمتد من بيت شمش ومود غربًا (عند منتصف الطريق إلى تل أبيب) حتى حلحول والخليل جنوبا ثم إلى رام الله شمالاً لتنتهى على مسافة بضعة كيلو مترات من أريحا شرقاً. وتمتد هذه المنطقة الواسعة التى تعتبرها إسرائيل القدس العاصمة على مساحة نحو ١٢٥٠ كيلو مترا مربعاً تقع ثلاثة أرباعها فى الضفة الغربية» .

وعلق إدوارد سعيد على ذلك مشيراً إلى إغلاق القدس أمام غالبية سكان الضفة الغربية وغزة مما يُعرِّضهم لمحنة يومية؛ لأن القدس الشرقية هى المركز الحيوى للضفة الغربية.

ويقول إدوارد سعيد : «إن ما تفعله إسرائيل عدوان على الجغرافيا والثقافة والتاريخ والدين».

ويقرر المفكر الفلسطينى أن التأثير الإسلامى كان قوياً فى القدس رغم أنه لا ينفى أنه كان هناك قبل ذلك تأثير يهودى ومملكة يهودية لفترة وجيزة قبل ظهور المسيحية، وأوضح أن ذلك لا يبيح لإسرائيل أن تعلن أن القدس عاصمتها الأبدية مما يعنى تجاهل سكانها الفلسطينيين وماضيها المتعدد الثقافات.

---

(١) القدس المتعددة: ص ٣٧٧.

وانتقد سعيد الموقف الأمريكي واستخدام حق الفيتو لحماية سلوك إسرائيل الإجرامي في القدس، وعدم رد المجتمع الدولي على ذلك، لكن الأغرب في رأيه هو موقف العرب والمسلمين والفلسطينيين الذين لم يُعبئوا طاقاتهم للتصدي لخطط إسرائيل في القدس.. وأشار إلى وجود منظمات صهيونية تعمل في الأردن لشراء أراضٍ فلسطينية في القدس.. كما أنه لم يكن مجرد مصادفة أن تستبعد القدس من المفاوضات في المرحلة الانتقالية، وذلك لأن إسرائيل تريد هدنة لتنفيذ خطتها الاستيطانية في جميع الأراضي المحتلة ومنها القدس .

ويدعو إدوارد سعيد إلى وقفة عربية إسلامية مسيحية، والعمل على كشف تهافت القول بأن القدس مدينة يهودية، وخوض معركة إيديولوجية مع إسرائيل لأنها ستكون في موقف ضعف في هذه الساحة الفكرية؛ حيث إن كثيراً من الأوروبيين والأمريكيين وبعض اليهود يترقبون حلاً آخر لمسألة القدس، ولكن هناك بعض المخاوف من هذا النقاش الفكري لأنه قد يتحول إلى نقد لبعض السياسات العربية فيما يتعلق بالحياة المدنية وحقوق الإنسان والديمقراطية، غير أنه لا يمكن التضحية بالنقاش حول القدس بسبب مثل هذه المخاوف .

ويرى المؤرخ الإسرائيلي ميرون بنفنستي مساعد عمدة القدس السابق أن مشكلة القدس فريدة في بابها وعقدة تتشابك فيها المشكلات الوطنية والدينية والعرقية، وأشار إلى أن كثيرين يحاولون عرض اقتراحات لحل المشكلة ومنها اقتراح بتقسيم السيادة إلى سيادتين وطنيتين وسيادة دينية عالمية. وأوضح أن هناك من يحتجون على محاولة تبسيط الأمور ويركزون على «عالمية» مشكلة القدس والخطر الذي تمثله على السلام العالمي.

ويقول بنفنستي في بحث عنوانه «حل اللغز» [1] إن اتفاقية سايكس - بيكو عام ١٩١٦ هي أول اتفاقية دولية عن المستقبل الجيوبوليتيكي [2] للمدينة.. وقد قسم هذا الاتفاق الذي اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا الشرق الأوسط إلى مناطق نفوذ مباشر أو غير مباشر بين الدول الكبرى... وأُلحقت بهذا الاتفاق خريطة حُددت فيها منطقة تقام فيها إدارة دولية يتم تحديد شكلها بعد التشاور.

---

(١) القدس المتعددة: ص ٣٩٤.

(٢) أي الجغرافي السياسي .

وتشمل هذه المنطقة الدولية أرض فلسطين من عكا إلى طبرية شمالاً ومن رفح إلى بئر سبع جنوباً.. كما أشار هذا الاتفاق إلى مدن عديدة مثل دمشق وحلب وحيفا وعكا ومدن أخرى، لكنه أغفل ذكر القدس.

ولا شك أن هذا الاتفاق على تدويل الأرض المقدسة كان مرجعه إلى ضرورة التوصل إلى حل وسط بين مطالب فرنسا ومطالب بريطانيا. فقد كانت فرنسا تعتبر نفسها وريثة للصليبيين وتطمح إلى السيطرة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط من أنطاكية إلى غزة. أما بريطانيا فإنها كانت تريد استخدام أرض فلسطين لتأمين قناة السويس.. وفى ذلك الوقت كان يتردد أن بريطانيا ترى أن «طريق الهند يبدأ من حيفا».

ولم تكن فرنسا وبريطانيا تعتقدان أن اتفاقية سايكس بيكو اتفاقية نهائية، بل إن فرنسا حاولت إلغاءها بتأييد الروس، بينما عملت بريطانيا فى عهد لويد جورج على توطيد نفوذها فى فلسطين حيث اقترنت المصالح الامبريالية البريطانية بزغبة صادقة فى تحقيق «العودة إلى صهيون» على حد تعبير المؤرخ اليهودى.

وتحدث بنفنستى عن اقتراحات إسرائيلية؛ ومنها اقتراح بتقسيم المسألة إلى ثلاثة جوانب :

١- السيادة .

٢- الأماكن المقدسة.

٣- الإدارة البلدية.

بحيث تكون القدس الموحدة تحت السيادة الإسرائيلية، بينما تكون الأماكن المقدسة تحت السلطة الكاملة للطوائف الدينية، مع ضمان حرية الوصول إليها وتمتعها بوضع يشبه «الحصانة الدبلوماسية»، بالإضافة إلى سلطات بلدية لا مركزية فى كل حى ولكن تحت سلطة مجلس بلدى مركزى.

ولكنه أوضح أن العرب يريدون التقسيم الجيوبوليتيكى للقدس والعودة إلى الوضع القائم قبل ١٩٦٧. ويقول العرب: يكفى التنازل المؤلم عن القدس الغربية.

ويقول بنفنستى : إن العرب بمطالبتهم بالقدس الشرقية وقولهم إنهم سيضمنون حرية

الوصول إلى الأماكن اليهودية المقدسة يتجاهلون العلاقة اليهودية بالقدس والحى اليهودى فيها.

وذكر أن البعض اقترح حل هذه المشكلات بالعمل على تضييق دائرة «القداسة» فى القدس وتحويل البلدة القديمة إلى منطقة محايدة. فقد اقترح عدنان أبو عودة فى عام ١٩٩٢ ألاَّ تكون القدس داخل الأسوار تابعة لأى دولة، وألاَّ تخضع لأى سيادة سياسية، وأن يقوم بإدارة البلدة القديمة مجلس من السلطات الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية. أما بقية مناطق القدس التى ستجرد من طابعها المقدس والرمزى فيمكن تقسيمها إلى قطاعات عربية يرفرف عليها العلم الفلسطينى وقطاعات يهودية يرفرف عليها العلم الإسرائيلى؛ على أن تطبق فى الأحياء اليهودية فى القدس الشرقية نفس الاتفاقيات السارية فى المستوطنات فى الأراضى المحتلة.

وهكذا فإن عدنان أبو عودة بدلاً من توسيع دائرة «القداسة» فى القدس وتقسيمها إلى منطقتين تخضع كل منهما لسيادة مستقلة كما يقترح البعض، لجأ إلى تصور عكسى وهو حصر المكان المعروف بالقدس فى دائرته القديمة المحدودة وإخراجه بذلك من دائرة الصراع الإسرائيلى الفلسطينى.

وأوضح بنفنستى أن اقتراح توسيع دائرة القداسة لا يقبله الفلسطينيون، أما اقتراح تضييق دائرة القداسة فإنه مرفوض من الطرفين الإسرائيلى والفلسطينى معا.

كما أن محاولة تدويل القدس لم تنجح؛ لأن العرب وإسرائيل لم يريدوا الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الوطنية، ويرون فى البلدة القديمة رمزاً دينياً ورمزاً للهوية الوطنية فى آن واحد.

وهناك نقطة هامة أشار إليها المؤرخ الإسرائيلى حيث أوضح أن الانتفاضة الفلسطينية قضت على البقية الباقية من أوهام الإسرائيليين عن «التعايش فى سلام فى المدينة الموحدة»، وذلك لأن أعمال العنف وإضرابات التجار فى القدس الشرقية أدت إلى وجود فاصل عرقى فى المكان، وإلى توقف اليهود عن الذهاب إلى الأحياء العربية، وبذلك حلت «جغرافيا الخوف» محل «الجغرافيا المقدسة» وساد الشعور بضرورة التوصل إلى تقسيم عرقى وإنسانى.

وقال بنفنستي متحدثاً عن تأثير الانتفاضة : «وكلما ازداد اللجوء إلى العنف إبان الانتفاضة كلما تبدد الوهم فى التوصل إلى تسوية نهائية تكون فيها القدس موحدة تحت سيطرة إسرائيلية» .

كما يرى الباحث الإسرائيلى أن الرغبة فى التخلص من العرب وإقامة حد فاصل بينهم وبين الإسرائيليين كانت السبب فى عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، وأدت إلى اتفاق حول «الوضع المؤقت» للأراضى، لكن هذه العملية لم تشمل القدس، ورغم ذلك فإن الرغبة «فى الفصل» تخصها أيضاً .

بل إن بنفنستي يرى أن اتفاقيات إعادة الانتشار فى الضفة الغربية/ أوسلو ٢/ ساهمت بصورة حاسمة فى إعطاء قاعدة على الأرض للسلطة الفلسطينية فى منطقة القدس؛ لأن وجود سيطرة فلسطينية على مدن مثل رام الله والبيرة وبيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور، وعلى قرى تقع شرق القدس خلق نوعًا من التقسيم يكاد يقترب من التقسيم الجيوبوليتيكى.

وبعد عرض آراء اثنين من الفلسطينيين هما كميل جميل العسلى وإدوارد سعيد، ورأى أحد اليهود وهو ميرون بنفنستي، يمكن عرض آراء سفير فرنسى سابق عمل دبلوماسيا فى تل أبيب فى سنة ١٩٧٣ وهو جاك دى لافيريير الذى يرى أن القدس كانت مسرحا لتغيير جذرى للفكر الإنسانى، كما أشار الدبلوماسى الأوروبى إلى العهود المتعاقبة التى شهدتها القدس منذ الكنعانيين حتى فتح عمر بن الخطاب السلمى للمدينة.

ويقول دى لافيريير إن القدس الأرضية تعتبر فى الأديان السماوية الثلاثة صورة للقدس السماوية.. ولهذا فإن أهمية القدس ترجع إلى أسباب دينية فى المقام الأول لأن هذه المدينة ليست لها أهمية استراتيجية ولا قيمة اقتصادية.

ويؤكد الدبلوماسى الأوروبى أن الفلسطينيين هم أصحابُ المدينة الشرعيون وقلبُها الخفاق منذ ألفين من السنين، وهم عرب يدينون بالإسلام أو المسيحية (١).

ويدافع جاك دى لافيريير عن عمليات التنقيب عن الآثار فى مدينة القدس رغم ظهور اعتراضات سياسية ودينية على ذلك مما أدى إلى مناقشات شهيرة حول هذه

---

(١) القدس المتعددة: ص ٤٢٤.

المسألة في اليونسكو.. وحجة الدبلوماسى الأوروبى فى ذلك أن هذا التنقيب عن الآثار فى مدينة القدس التى تعتبر من أقدم المدن فى العالم سيفيد كثيراً فى معرفة العصور القديمة لأنه يمكن الكشف فى هذه الأطلال عن آثار للعبريين وأقاربهم فى الهلال الخصيب، وهم هؤلاء الساميون الذين وضعوا أسس حضارتنا وهى: الكتابة، والمدينة، والدولة، والتطلعات الميتافيزيقية.

ويتحدث جاك دى لافيرير عن المطالب الفلسطينية واليهودية فى مدينة القدس؛ حيث يستند اليهود إلى ذكرى مملكة سليمان، كما يرون أن التوراة تعتبر صك ملكية لأرض «إسرائيل الكبرى» غير قابل للتقادم.

ثم يقول : إن العرب يستندون إلى ١٣ قرنًا من الحياة الإسلامية والمسيحية تشهد عليها مبان فى كل أنحاء المدينة، ولهذا فإن الفلسطينيين فى الحقيقة هم ورثة هذا التاريخ الطويل، بل إن جذورهم كما يقول الدبلوماسى الأوروبى تمتد إلى أبعد من ذلك لأنهم ينحدرون من سلالة الكنعانيين وهم حقا سكان البلاد الأصليون مع عدد قليل من الأسر اليهودية القديمة.. ويصعب أن يقال ذلك عن غالبية الإسرائيليين الذين تغيبوا عن المدينة طيلة ألفين من السنين ثم عادوا إليها بسمات طبيعية وأخلاقية اقتبسوها من مصادر شتى.

ويشير جاك دى لافيرير إلى أن القدس ظلت طوال العهد الإسلامى تتمتع بحماية عهد الخليفة عمر المتسامح الذى جدده صلاح الدين الأيوبى حيث فرغ أهلها للصلاة والعلم.. وأوضح أن المدينة عرفت أسوأ أزماتها عندما استولى عليها الصليبيون وذبحوا اليهود والمسلمين، ثم عادت إلى التوازن والتعايش السلمى حيث عاشت قرونا سادها الهدوء، ثم عادت لتصبح مسرحاً للتوتر السياسى والعنف حيث سالت دماء المسلمين فى ساحة الحرم، ولم يكن سكانها هم السبب، وإنما توسع الحركة الصهيونية بعد انهيار الدولة العثمانية مما أدى إلى خلل فى النظام القائم طيلة ثلاثة عشر قرنا.

بل إن اليهود لا يكفيهم احتلال القدس؛ حيث يشعرون بالمرارة لاجتماعهم عند حائط المبكى فى ظلال مساجد المسلمين حيث يعلو صوت المؤذن. وقد حصلت الحكومة الإسرائيلية على بيان من بعض الحاخامات بأنه يحرم على اليهود الصعود

إلى ساحة الحرم القدسى قبل ظهور المسيح، وذلك فى محاولة لمنع المواجهة بين اليهود والمسلمين.. ولكن فتوى بعض الحاخامات يمكن أن تنقضها فتوى عدد آخر من الحاخامات.

ويشير دى لافيرير إلى أن أوروبا لم تعد لديها مطامع إقليمية فى فلسطين منذ أن قضى صلاح الدين على فرسان الصليبيين فى حطين، ولكنها تتطلع إلى ضمان حرية الدخول إليها، ولهذا فإن الفاتيكان يقترح منذ ١٩٤٧ أن تكون القدس (البلدة القديمة والمدينة الحديثة التى تحيط بها) كيانا سياسياً يتمتع بحكم ذاتى ويدير شئونه بحرية مع الانفتاح غرباً على اليهود وشرقاً على العرب.

ويقول دى لافيرير إن إسرائيل على استعداد لتقديم تنازلات فى الخليل ونابلس وليس فى القدس، ولدى إسرائيل الوسائل الدبلوماسية والعسكرية لفرض إرادتها بتأييد واشنطن، ولكنه يرى أن العالم الإسلامى الذى يبدو اليوم فى موقف العاجز لن يتنازل أبداً عن القدس، ولن يقبل أن تكون أرضاً إسرائيلية، وسوف يترقب ساعته ويومه وعصره.

ويعتقد هذا الدبلوماسى الأوروبى أن مصير القدس ستحسمه القوة، وأنها ستظل فريسة تُقتنص من عصر إلى عصر طبقًا لقانون توازن القوى، وربما تشهد مرة أخرى إراقة الدم والدموع.

أما **وليد الخالدى** فإنه يرى فى بحث عنوانه: «الإسلام والغرب والقدس»(١) أنه ليس هناك ما يدعو إلى التفاؤل بالنسبة إلى مستقبل القدس؛ لأن هناك ذكريات لدى الجانبين نبعت من الصراع التاريخى بشأن القدس قد تؤدى إلى مواجهة طويلة فى القرن الحادى والعشرين تصطف فيها قوى المسيحية الغربية واليهودية فى جانب وقوى الإسلام والمسيحية العربية فى جانب آخر.

وأشار الخالدى فى هذا الصدد إلى أن المنطلق الرئيسى لأنصار مذهب «صدام الحضارات» هو أن الإسلام يقع خارج التراث اليهودى المسيحى.. وهذا هراء فى رأيه لأن منطلق الإسلام الرئيسى أنه مكمل، بل هو ذروة للتراث اليهودى المسيحى؛ حيث

---

(١) مجلة الدراسات الفلسطينية صيف ١٩٩٧، ص٣.

يؤمن بكل الكتب المقدسة السابقة وبكل الأنبياء .

وأوضح الخالدى أن هناك أسبابا ثلاثة لمكانة القدس فى الإسلام وهى :

١- القدس كانت أولى القبلتين .

٢- كان إليها الإسراء ومنها المعراج.

٣- ارتباطها بالصلاة التى فُرضت فى المعراج.

وقد فتح الخليفة عمر بن الخطاب القدس فتحاً سلميًّا، وأمَّن سكانها من غير المسلمين على أرواحهم وممتلكاتهم ودور عبادتهم، وظل «عهد عمر» نموذجاً يُحتذى حيث طبقه صلاح الدين والسلطان العثمانى سليم الذى عُرضت عليه نسخة من عهد عمر فوضعها على رأسه طاعةً واحتراماً. وكان جبل الهيكل عندما دخل عمر القدس خالياً حيث استخدمه البيزنطيون لإلقاء النفايات فيه، لكن عمر بدأ بنفسه فى تطهير هذا المكان الذى يضم الصخرة التى انطلق منها معراج الرسول ﷺ، وقد بنى عليها عمر أول مسجد إسلامى. ومن ناحية أخرى فإن الكتابات الرؤيوية اليهودية اعتبرت حينئذ فتح القدس على يد عمر عتقاً وتحرراً من ظلم البيزنطيين.

وتحدث وليد الخالدى – وهو مقدسى ومواطن أمريكى– عن احتمالات الحل؛ فأشار فى البداية إلى قرار التقسيم الصادر فى عام ١٩٤٧، وهو القرار ١٨١ الذى أوصى بدولة يهودية وأخرى فلسطينية مع نظام خاص للقدس بحيث تكون فى «جزء منفصل» تحت وصاية الأمم المتحدة... ولهذا فإن السيطرة اليهودية على القدس الغربية اليوم تعتبر خرقاً لقرار التقسيم، ومن ثم فإن المجتمع الدولى لم يعترف بصورة واضحة حتى الآن بالسيادة الإسرائيلية حتى على القدس الغربية التى ضمت أراضى القرى التى احتُلت أو دُمرت مثل دير ياسين وعين كارم وروميما والشيخ بدر.

ويؤكد تحليل وليد الخالدى ما سبق أن أشرنا إليه من قبل وهو أن توسع إسرائيل فى القدس وتوسيع حدودها البلدية له هدف واحد وهو ابتلاع الأراضى الفلسطينية؛ حيث يقول: «وليست الحدود البلدية الموسعة الراهنة للقدس هى تخوم طموحات إسرائيل بالنسبة إلى القدس؛ فإسرائيل طوقت القدس الشرقية بأطواق من المستوطنات على أراضى الضفة الغربية خارج الحدود البلدية لكنها

متواصلة معها. والخطة التى أصبحت فى طور متقدم كثيراً هى دمج هذه المستوطنات فى بلدية القدس الموحدة من أجل خلق القدس الكبرى». وتستهدف هذه الخطة أن تغطى القدس الكبرى ضعف مساحة بلدية «القدس الموحدة» وذلك لانتزاع أكبر مساحة ممكنة من أراضى الضفة الغربية حتى يتقلص المجال المادى والسياسى للفلسطينيين فى الضفة. ويعتقد الباحث الفلسطينى أن تطورات وضع القدس صورةٌ مصغرة لما جرى فى فلسطين منذ سنة ١٩٤٨. ولا بد لأى مصالحة تاريخية أن ترتكز على مبادئ أربعة :

١- ألاّ يحتكر طرف واحد السيادة على شطرى المدينة وهذا هو المفتاح الرئيسى.

٢- عدم منح أحد الأديان وضعاً مميزاً على حساب الآخرين.

٣- ألاّ تكون هناك علاقة غالب ومغلوب بين سكان القدس .

٤- الاعتراف المتساوى بالبعدين الدينى والسياسى للقدس بالنسبة إلى كل الأطراف ولهذا فإنه لا يمكن للقدس أن تكون عاصمة لأمة واحدة أو لمذهب واحد .

واقترح وليد الخالدى عشر نقاط لحل مشكلة القدس؛ وأهم هذه النقاط:

- أن تكون القدس الشرقية عاصمة فلسطين، وأن تكون القدس الغربية عاصمة لإسرائيل.

- أن تتبع الحدود بين القدس الشرقية والقدس الغربية خطوط سنة ١٩٦٧، على أن تكون مفتوحة فى الاتجاهين طبقا لفكرة «سيادة بدون أسوار» بموجب ترتيبات أمنية متفق عليها.

- أن يحظى الحى اليهودى فى البلدة القديمة وساحة حائط المبكى والمقبرة اليهودية على جبل الزيتون بمنزلة إقليمية خارجية.

بين التقسيم والتدويل :

وهنا يمكن أن يثور تساؤل عن السبيل الأمثل لحل مشكلة القدس: هل هو اللجوء إلى التدويل طبقا للقرار ١٨١ الذى يقضى بأن يكون للقدس وضع خاص؟ أم اللجوء إلى التقسيم طبقا للقرار ٢٤٢ الصادر عام ١٩٦٧؟

ويمكن للجانب العربى أن يستند إلى القرارين معًا دون أن يكون هناك تناقض بينهما. وذلك لأن الاستناد إلى القرار ١٨١ ضرورى لقيام دولة فلسطينية لأن الدولة اليهودية قامت على أساس هذا القرار فإذا رفضت اليوم قيام دولة فلسطينية فإنها بذلك تنسف أى أساسٍ شرعى لوجودها. أما الاستناد إلى القرار ٢٤٢ فإنه ضرورى لإنهاء الاحتلال للأراضى العربية واستعادة القدس الشرقية، وهذا هو أرجح الاحتمالات؛ لأن إسرائيل إذا رفضت الانسحاب من القدس الشرقية فإنها ستكون مطالَبة بقبول تدويل القدس كلها، وعندئذ سوف يتعين عليها التخلى عن سيادتها على القدس الغربية أيضاً. ولهذا يتعين الضغط عليها بالتمسك بالقرارين معا؛ فإما أن تقبل بتدويل القدس فلا يكون لها أى سيادة على القدس الغربية أو القدس الشرقية، وإما أن تقبل بتقسيم المدينة المقدسة وبذلك يتعين عليها الانسحاب من القدس الشرقية. ولهذا فإنها قد تفضل هذا الحل الأخير وهى كارهة، بشرط أن يكون هناك ثقل عربى وإسلامى ودولى للضغط عليها لأن هناك مصالح فى القدس لألف مليون مسلم وهذا أمر يتجاوز المشكلة الفلسطينية ويجعل للمسألة بعداً دولياً لا يمكن التحايل عليه.

إن بعض الدوائر الغربية تتحدث عن احتمال نشوب صراع عالمى بسبب المساس بمصالح الغرب الحيوية فى ثلاثة ميادين هى: البترول، والسلاح النووى، والقدس... أى أن الغرب يريد ضمان مصالحه الاقتصادية والعسكرية بالإضافة إلى ترك القدس تحت السيطرة الإسرائيلية.. وهنا لا بد أن يفيق العرب من غفوتهم وأن يدركوا أنهم يمثلون قوة لا يستهان بها إذا أحسنوا تعبئة طاقاتهم ووحدوا صفوفهم حتى يحافظوا على مصالحهم وحقوقهم. فالغرب يريد بترولهم بأرخص الأثمان، ويريد منهم ترك القدس لإسرائيل بالإضافة إلى عدم الحديث عما تمتلكه من سلاح نووى.. العرب إذن مطالبون بضمان مصالح الآخرين دون مقابل.. العرب إذن مطالبون بتقديم كل شىء دون الحصول على أى شىء.

لقد تحرك الغرب أخيراً ليطالب بتخفيض أسعار البترول، وتحدث عن صدمة بترولية ثالثة فى الشهور الأولى من سنة ٢٠٠٠، وأشار إلى مصالح المستهلكين بعد أن وصل سعر البرميل إلى أكثر منْ ثلاثين دولارا، ولكن هذا الغرب لم يتحدث فى أى وقت عن

مصالح المتنجين عندما انخفض سعر البرميل إلى ثمانية دولارات .

الغرب إذن لا يؤمن بمبدأ المصالح المتبادلة، لكنه يؤمن بمصالحه هو، وذلك فى نزعة أنانية غير مسبوقة فى التاريخ.

ولا بد للعرب أن يفكروا كثيراً فيما حدث للشريف حسين الذى وعدته بريطانيا بتتويجه ملكاً مقابل مساعدته لها فى الحرب العالمية الأولى، فكانت النتيجة كما قال أمير الشعراء أحمد شوقى فى رثائه :

قُم تَحَدَّثْ أبا علىٍّ إلينا ... كيف غامرتَ فى جوار الأراقمْ
كلُّنا واردُ السرابِ وكلٌّ ... حَمَلٌ فى وليمة الذئبِ طاعمْ
قد رجونا من المغانم حظًّا ... ووردنا الوغى فكنَّا الغنائمْ

والذين وردوا السراب هم العرب، والذئب صاحب الوليمة هو الغربُ المخادع المخاتل.

لا يُلام العربُ إذا ضحوا فى سبيل المصالح العالمية، ولكن بشرط أن يضحى الغرب مرة واحدة فى تاريخه فى سبيل هذه المصالح، وغيرُ مقبولٍ أن يكون العرب دائماً هم الذين يقدمون التضحيات أو أن يكونوا هم الضحايا .

لقد ضاعت فلسطين بتخطيط غربى، ثم ضاعت معها القدس، ويراد أيضاً ضياع البترول بحيث يفقد العرب أرضهم ومقدساتهم وثرواتهم... فهل يمكن أن يقال اليوم إن هؤلاء العرب عقلاء أو حكماء أو سياسيون أصحاب حنكة ودهاء؟!

إنه التمزق العربى، والتراجع العربى، وانعدام الوعى العربى الذى يؤدى إلى كل هذه الكوارث، ولكن العرب سعداء طالما أن الغرب يبتسم لهم ويسوق إليهم كلمات حلوة معسولة كتلك التى ساقها رئيس الوزراء الفرنسى الاشتراكى عن المقاومة اللبنانية، حيث كشف عن حقيقة «النزعة الإنسانية» الغربية الزائفة.

لا يخدعوك بليِّنٍ من قولهم ... فاللينُ بعضُ حبائل الحيَّاتِ

لقد فقد الغربُ مسيحيته اليوم ولكنه لم ينس عداءه للإسلام؛ فالغرب المسيحى فى

العصر الوسيط كان على الأقل يستند إلى مبادئ المسيحية، فيحسن أحياناً ويسيء أحيانا.. ولكن الغرب المعاصر الذى لا يستند إلى أى أسس دينية أو أخلاقية يسيء كثيراً إلينا؛ لأنه ينطلق من النزعة الفردية التى لا تعرف إلا المصالح الشخصية ولا تعرف للآخرين كرامةً أو مصالح أو حقوقاً تُصان.

فليأخذ الغربُ البترول العربى بأرخص الأثمان، ولكن بشرط عودة جميع اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم العربية فى فلسطين، وقيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس الشرقية ولها كل حقوق الدول لا ينتقص منها شيء، وبشرط نزع سلاح إسرائيل النووى، وبشرط الكف عن تشويه الإسلام والمسلمين فى الإعلام الغربى صباح مساء.. ويكون الغرب بعد هذا كله هو المنتصر لأن فلسطين عربية والقدس عربية.. أما أن يتحيز لإسرائيل ولا يتحرك لتأييد قيام دولة فلسطينية ولا يفرض عقوبات ضد إسرائيل التى لا تطبق القرارات الدولية وأن يلتهم الثروة البترولية العربية دون مقابل؛ فإن سكوت العرب على ذلك واستسلامهم ليس إلا نوعًا من الغباء الذى لم يعرفه التاريخ إلا فى هذا العصر العجيب.

إن بعض الكتاب الغربيين يرون أن النهضة الأوروبية قامت على أساسين: أحدهما فكرى وثقافى وذلك بالاتصال والتأثر بالثقافة العربية الإسلامية والاستفادة منها، والثانى مادى: وهو الذهب الذى جاءت به بريطانيا من أمريكا فأنشأت به قوتها المادية، بينما أقامت أسبانيا بهذا الذهب القصور وضيعته فى ترف لم يكن له من نتيجة سوى تقهقرها عن سائر الدول الأوروبية.

أما العرب اليوم فإن لديهم الأساس الفكرى والثقافى والدينى، ولديهم الأساس المادى وهو البترول.. وإذا لم يحاولوا النهوض قبل فوات الأوان لاستعادة قوتهم وحماية وجودهم وحقوقهم ومقدساتهم فإن مصيرهم سيكون عرضة لأكبر الأخطار».

إن الوقفة العربية الإسلامية مطلوبة لحماية المصالح العربية الإسلامية، بل لحماية المصالح الإنسانية؛ لأن الدور العربى الإسلامى مطلوبٌ لتحقيق توازن فى هذا العالم.

يضاف إلى ذلك أن الوقفة القوية هى التى سترغم إسرائيل على التراجع؛ لأن اليهود يتراجعون كثيراً إذا أحسوا أنهم فى موقف ضعف، ويهجمون ويتوغلون ويقتحمون كثيراً إذا أحسوا أن العرب فى موقف ضعف.

كمـا أن اليهود يحسنون التصـرف وهم ضعفـاء ويتحلّون عندئذ بالأخـلاق، أما إذا امتلكوا أسـباب القوة ولم يجـدوا أحداً يعيـد إليهم صوابهم، فـإنهم يتمادون فى غـيهم مثلما فـعلوا ويفعلون مع الشعب الفلسطينى فى مثـلٍ واضح لظاهرة «أخلاق الضعف» باعتراف بعض اليهود أنفسهم.

اليهـود تراجعـوا أمام الانتفـاضة، وتراجـعوا أمام مـصر وسـوريا فى حرب ١٩٧٣، وترجعوا أمام بضع مئات من رجال المقاومة اللبنانية...

وإذا أدركوا أن احتلالهم للقدس سيعرضهم لمحنة أو مواجهة حقيقية فإنهم سيعيدون حساباتهم ألف مرة خاصةً وأنهم كما يقـول بعض المحققين يقعون تحت «برج العقرب» الذى يرمز إلى خطر الفناء، ومن هنا كان إحساسهم الدائم بالخوف وعدم الأمن.

ومن الغريب أن الـيهود يستغلون المذابح التى تعـرضوا لهـا فى ألمانيا لتحـقيق أكـبر المكاسب سيـاسيًا واقـتصاديًا، أمـا العرب فإنهم لم يطلبـوا من بريطانيا تعـويضات رغم جريمتها فى فلسطين ومسئوليتها عن اغتصاب فلسطين، ولم يطلبوا تعويضات من فرنسا رغم مساعـدتها للدولة اليهودية فى امـتلاك السلاح النووى، بل إنهم لم يطلبـوا اعتذاراً عن تلك الجرائم!!...

وقد يكون من المناسب هنا أن نقول إن اقـتراف ألمانيا النازية للمذابح ضد اليـهود أمرٌ لا ننكره، ولا يعنينا إنكاره، لأن هذا التصرف لم يكن إلا نتاج الحـضارة الغربية المعاصرة التى شهدت حربين عالميتين فى فترة وجيزة رغم كثرة الحديث فـيها عن السلام. نحن لا ننكر هذه الجرائم ضد اليهود، كما أننا لسنا مسئولين عنها. إن الغرب يحرم التشكيك فى هذه الجرائم ويقبل تقـديم تعويضات عنها ويشعـر بتأنيب الضمير على وقـوعها، ولكن أليس من حق الشـعب الفلسطينى الذى تعـرضٍ للمذابح والطرد من أرضـه أن يعـترف اليهود بالنكبة التى أصابته على أيديهم وأن يعـوّض عما أصابه طيلة عشرات السنين من محنٍ وأهوال؟

إن العرب لم يثيروا مثل هذا التساؤل، والغربُ لم يُعن كـثيراً بهذه المسألة الأخلاقية، لا سيما أنه يمكن أن يدان فيها.

ورغم هذا فإننـا لا ننكر ما تعرض له الـيهود من اضطهـاد فى أوروبا، وذلك لأننا لا

نردُّ بتزييف التاريخ على تزييف اليهود للحقائق فيما يتعلق بأرض فلسطين وشعب فلسطين، كما أننا لا نردُّ على اليهود بأى نوع من الانتقاص لأنبياء بنى إسرائيل أو لبعض الحقائق فى تاريخهم، وذلك لسبب واحد وهو أن للإسلام رؤية تتجاوز النزعات الوطنية والقومية والمصالح الذاتية لأنها رؤية عالمية، بل يتسع أفقها لتكون رؤية كونية، وهذا سبب قوى من أسباب قوة الإسلام.

ونعود إلى مستقبل القدس حيث يرى **عبدالله الأشعل** فى كتاب عنوانه «المسلمون والنظام العالمى الجديد»[1] أن الصراع العربى الإسلامى تحول من قضية عربية قبل عام ١٩٦٧ إلى قضية إسلامية بعد احتلال القدس الشرقية، وأن منظمة المؤتمر الإسلامى قد أنشئت لدعم هذه القضية.

وتحدث الأشعل عن احتلال إسرائيل للقدس الغربية بوصفه أول خرق لقرار التقسيم ١٨١ الصادر فى ١٩٤٧، كما أن إسرائيل عملت منذ احتلال القدس الشرقية على تهويد المدينة وتشجيع الاستيطان اليهودى وتقليص الوجود العربى فيها وتغيير هويتها الحضارية والجغرافية والسكانية ثم محاولة فرض أمر واقع دولى بتشجيع نقل مقار البعثات الدبلوماسية إليها على أساس أن الدولة فى القانون الدولى هى التى تختار عاصمتها وعلى البعثات الدبلوماسية فى مختلف الدول أن تقيم فى العاصمة.

وعندما قرر الكنيست فى عام ١٩٨٠ اعتبار القدس عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل، أصدر مجلس الأمن القرار ٤٧٨ بعدم الاعتراف بهذا التشريع الإسرائيلى.

وأشار المؤلف إلى محاولات إسرائيل إغلاق «بيت الشرق» الذى يؤكد به الفلسطينيون مركزهم الدولى فى القدس.

وأكد أهمية أن تتحرك الحكومات العربية لتعزيز الملف القانونى للقدس، وأن يشمل هذا التحرك مستويين، على أساس أن وضع القدس يستند إلى مصدرين للمرجعية هما: قرار التقسيم وقرارات الأمم المتحدة اللاحقة. والمقصود هنا هو القدس الغربية والشرقية معًا حيث نص قرار التقسيم على الاحتفاظ للقدس بوضع خاص Corpus Separatum إلى أن يتفق الطرفان على وضع متفق عليه للمدينة المقدسة. وليس هناك أى أساس

(١) ص ٢٧.

قانونى لاستيلاء إسرائيل على القدس الغربية[1].

ويرى المؤلف أنه ليس هناك تناقض بين ما جاء فى قرار التقسيم بشأن القدس وما قرره مجلس الأمن فى قراره ٢٤٢ الذى نص على انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة ومنها القدس الشرقية، وهو ما يعنى عدم التسليم أو السكوت على احتلالها للقدس الغربية.

وأوضح الأشعل أنه يمكن اللجوء إلى التحكيم على أساس اتفاق واشنطن الموقع عام ١٩٩٣، كما يمكن اللجوء قضائيًا إلى محكمة العدل الدولية، بحيث تطلب أى من الدول ذات المصلحة فى قضية القدس أن تقوم محكمة العدل الدولية بالفصل فى النزاع حول القدس طبقًا لقرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧؛ لأن هذا القرار يعطى المحكمة أساس الاختصاص فى نظر كل نزاع ينشأ حول تفسير أو تطبيق المسائل الواردة فى قرار التقسيم ومنها القدس.

كما يجوز للسلطة الفلسطينية اللجوء إلى محكمة العدل الدولية لعرض النزاع حول القدس عليها بوصفها - أى السلطة الفلسطينية - الطرف المختص صاحب المصلحة المباشرة فى النزاع، ويجوز للسلطة الوطنية أن تطلب كإجراء عاجل قيام المحكمة بفرض إجراءات لوقف الأعمال الإسرائيلية والأمريكية التى من شأنها التأثير على الحق الفلسطينى المفترض فى القدس.

ويمكن مطالبة المحكمة ببيان المركز القانونى للقدس فى ضوء قرار التقسيم والتزامات الأطراف فى اتفاق أوسلو.

ولا يجوز إغفال أهمية تعزيز الملف القانونى للقدس بسبب الآمال فى فرض التسوية السياسية؛ لأن لكل من السياسة والقانون وظيفته فى هذه المواجهة المعقدة، كما يرى المؤلف، الذى طالب بضرورة الاتفاق على رأى موحد إسلاميًا ومسيحيًا حول القدس.

وتحدث المؤلف عن الاتجاه الذى يجب أن يسلكه الموقف العربى والإسلامى؟ هل يتخذ قرار تقسيم فلسطين أساسًا لتكون القدس الشرقية والغربية ذات وضع خاص؟ أم يتمسك بالقدس الشرقية لتكون عاصمة الدولة الفلسطينية وتترك القدس الغربية لإسرائيل؟

---

(١) ص ٤٠.

وأشار إلى بحوث واقـتراحات شتى حـول هذه المسألة منها اقتـراح بأن تظل القدس موحدة جغرافيًا ومقسمة سياسيًا حـسب الأحياء العربية واليهودية، ومنها اقتراح بالتمييز بين البلدة القديمة داخل الأسـوار والمناطق الواقعة خارج الأسـوار، على أن تخضع البلدة القديمة لمجلس عـالمى يمثل الأديان الثلاثة[1]، وهو اقتـراح قريب من فكرة تضـييق «دائرة القداسة» الذى تحدث عنه المؤرخ الإسرائيلى ميرون بنفنستى الذى أشرنا إليه من قبل.

ويتمسك الفلسطينيون وفى طليـعتهم فيصل الحسينى مسئـول ملف القدس باستعادة القـدس الشرقـية، على أن تبـقى الحدود مـفتـوحة بـينها وبين القـدس الغربيـة، وأن يتم الانتقال بدون تأشيرة بين الجانبين.

* * *

(١) ص ٤٦.

مؤامرة نسف المسجد الأقصى

لا يمكن الحديث عن مستقبل القدس دون الحديث عن الخطر الذى يهدد المسجد الأقصى الذى يصفه اليهود بأنه «شناعة الخراب»، وهى كلمة تستحق الوقوف عندها قليلاً لشرح أبعادها ومغزاها فى عمق التاريخ اليهودى.

لمَّا فتح الإسكندر الأكبر مصر وسوريا خَلَفَهُ قواده فى حكم هذين البلدين؛ حيث حكم البطالمة مصر، والسلوقيون بلاد الشام، وأدى ذلك إلى اتصال وثيق بين اليهود وبين الثقافة اليونانية التى كانت سائدة آنذاك. وقد منح أنطيوخس الثالث من ملوك السلوقيين اليهود حرية ممارسة شعائر عبادتهم فى سنة ١٩٨ قبل الميلاد، لكن أنطيوخس الرابع إيبفانيوس أراد توحيد امبراطوريته بحيث لا تكون فيها ثقافات أو عقائد متنوعة، وفرض على اليهود بناء مذابح وهياكل للأصنام وذبح الخنازير، بل إنه قام فى سنة ١٦٧ق.م ببناء مذبح زوس الأولمبى على مذبح المحرقات فى الهيكل.. وقد أطلق اليهود على مذبح زوس الأولمبى هذا وصف «شناعة الخراب» كما جاء فى سفر المكابيين الأول.. كما منع هذا الملك اليهود من ختان أبنائهم..

وقد أشار دانيال فى نبوءاته عن المستقبل إلى هذه الحادثة فى الفصل التاسع من سفره حيث قال: «وفى جناح الهيكل تكون شناعة الخراب».

كما يتحدث دانيال عن هذه الحادثة فى الفصل الحادى عشر من سفره حين يشير إلى تولى أنطيوخس الرابع ايبفانيوس الملك قائلا: «ويقوم مكانه حقير لم يعط جلال الملك» ثم يقول عن حادثة مذبح زوس الأولمبى الذى أقيم فى الهيكل: «وتقوم منه قوى وتدنس المقدس القلعة، وتزيل المحرقة الدائمة، وتقيم فيه شناعة الخراب».

وأدى ذلك إلى حرب شنها الكاهن متتيا بن يوحنا الذى كان له خمسة أبناء منهم يهوذا المكابى الذى كافح لتطهير الهيكل من الأوثان والشعائر الوثنية التى فرضها هذا الملك اليونانى.

وواضح أن وصف «شناعة الخراب» قد أُطلق على الأصنام، مما يعنى أن اليهود حين يطلقون هذا الوصف اليوم على المسجد الأقصى فإنهم يعتبرونه مكانًا للوثنية، رغم أن مساجد المسلمين كلها ليس فيها تماثيل ولا صور وإنما هى مساجد لله كما جاء فى القرآن

الكريم فى الآية ١٨ من سورة الجن: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

والإسلام هو الذى أعاد الوحدانية إلى نقائها الأول، ولو أن مساجد المسلمين كانت معابد وثنية أو فيها أى شبهة وثنية من بعيد أو قريب لما أفتى الفيلسوف اليهودى المعروف موسى بن ميمون لليهود بجواز الصلاة فى مساجد المسلمين وهو الذى عاش فى ظل الإسلام وكان طبيبًا فى مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى، بل إن ابنه إبراهيم تأثر بالإسلام فأمر اليهود بتقليد المسلمين فى بعض الأمور عند الصلاة.

ويبدو أن اليهود ظنوا أن الوحدانية دين خاص بهم، وأن كل ما عدا ذلك مما يخالف تقاليدهم يعتبر وثنية.. ولكن الحقيقة هى أن الوحدانية أسبق من الشعب اليهودى منذ أن خلق الله الإنسان الأول، وقد جددها الأنبياء جيلاً بعد جيل منذ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وهم الرسل الخمسة أولو العزم.

فى أبريل ١٩٨٤ اعتقلت الشرطة الإسرائيلية مجموعة إرهابية يهودية قامت باغتيال عدد من طلبة جامعة الخليل الإسلامية، وقد تم كشف هذه المجموعة فى الوقت الذى كان يستعد فيه بعض أعضائها لنسف عدد من الأتوبيسات العربية بينما كان عدد آخر من أعضائها يضع خطة لنسف مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

ويقول الباحث الفرنسى چيل كيبل وهو باحث فى «المعهد الوطنى للبحث العلمى» وأستاذ فى «معهد الدراسات السياسية» فى باريس فى كتاب يتناول بالتحليل الجاد التيارات الدينية المتطرفة فى اليهودية والمسيحية والإسلام[١]: «إن اكتشاف هذه المجموعة السرية اليهودية قد صدم جانبًا كبيراً من الرأى العام الإسرائيلى خاصة بعد ملاحظة أن كثيراً من المتهمين ينتمون للنواة القيادية فى جماعة «جوش إيمونيم» وهى حركة سياسية دينية نشأت فى أعقاب حرب ١٩٧٣ التى انتهت بهزيمة نفسية للدولة اليهودية، وزعزعة كثير من الأفكار الثابتة، واهتزاز القيم كما يقول الباحث الفرنسى الذى أوضح أن هدف جوش إيمونيم (كتلة المؤمنين) هو إعادة تهويد إسرائيل فى مواجهة دولة ومجتمع كان يسيطر عليهما حتى ذلك الحين تصور علمانى واشتراكى للصهيونية.

ولم تكن جوش إيمونيم إلا أحد أشكال حركة إعادة فرض الصبغة اليهودية فى إسرائيل وبين يهود الشتات، وهى تعتبر القطب السياسى الذى يريد التأثير فى الدولة..

(١) ص ١٩٥ من كتاب: LA REVANCHE DE DIEU .

وقد لجأت إلى إقامة المستوطنات ومقاومة الانسحاب من سيناء، وصاغت المفهوم التوراتى لأرض إسرائيل بدل المفهوم القانونى لدولة إسرائيل.. كما أضفت شرعية على احتلال الأرض استناداً إلى «عهد إلهى خاص مع الشعب المختار».

ويتحدث كيبل فى تحليل هام عن تأثير حرب ١٩٦٧ فى ظهور هذا التيار المتطرف قائلاً: «رغم أن هذا الانتصار قد حققه جيش دولة علمانية، لكنه أدى إلى ظهور قيم دينية كانت الصهيونية قد أخفتها».

كما أشار إلى بكاء المظليين الإسرائيليين عند حائط المبكى وإلى قول موشى ديان وزير الدفاع آنذاك: «من لم يكن متديناً أصبح اليوم متديناً».

وقد صاغ أتباع الحاخام كوك هذا الاتجاه فى نموذج إيديولوجى.

وهنا تظهر مسألة تستحق الإيضاح وتتعلق بموقف التيار الدينى التقليدى من الصهيونية التى عارضها فى البداية ثم سعى إلى التعايش معها بعد ذلك.

لقد كان التيار الدينى اليهودى التقليدى يمقت الصهيونية بوصفها نسخة يهودية من القوميات العلمانية التى انبثقت من فكر عصر التنوير والثورة الفرنسية.

ولكن الحاخام أبراهام إسحق كوهين كوك (١٨٦٥ - ١٩٣٥) - وهو أول حاخام أكبر لليهود الأشكناز فى فلسطين فى عهد الانتداب البريطانى - كان أول حاخام نشأ فى ظل التراث التقليدى اليهودى فى وسط أوروبا يخرج على رفض هذا التيار الدينى للصهيونية السياسية.

فقد حاول كوك المزج بين فكر إلهى وشعور قومى مع مشروع لتحقيق هذا الاتحاد فى هياكل سياسية وفى مسيرة التاريخ، وسمى هذا المزيج «الصهيونية الدينية» التى تجسدت فى قيام إسرائيل بعد موت الحاخام بثلاثة عشر عاماً، ولكن ابنه الحاخام زفى يهودا كوك (مات فى ١٩٨٢) واصل التعبير عن فكر أبيه فى الدولة الجديدة، ويرى زفى كوك أن إسرائيل تعتبر دون وعى منها أداة للإرادة الإلهية، وقد اعتبر أتباع كوك عام ١٩٦٧ بمثابة العام الأول على طريق الخلاص؛ حيث اعتقد كوك الابن أن جيش الدولة الصهيونية العلمانية كان أداة لتحقيق الخطة الإلهية، وهو يظن أنه يحقق أهدافاً عسكرية بحتة، وذلك لأن هذا الجيش جعل حدود إسرائيل هى حدود أرض الميعاد.

ولما جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ بصدماتها للإسرائيليين الذين أصابتهم الحيرة،

خرجت أفكار كوك وأتباعه من دائرة محدودة لكى تتجسد فى إنشاء حركة جوش إيمونيم[1].

وقد أشار چيل كيبل إلى تأثير حرب ١٩٧٣ عالميًا؛ حيث أدت إلى انهيار اليوتوبيات التقدمية، وظهور حركات سياسية دينية، وارتفاع أسعار البترول مما أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الأولية وازدياد التضخم وانتشار البطالة.

أما فى إسرائيل فإن عواقب الهزيمة النفسية أمام العرب جاءت بعدها الآثار الاقتصادية البعيدة المدى، بينما تجلى تأثيرها السريع فى ظهور حركات دينية تريد فرض الصبغة اليهودية[2].

ويرى كيبل أن عبور الجيش المصرى للقناة واجتياحه للدفاعات الإسرائيلية بالإضافة إلى الهجوم السورى كان فشلاً للغطرسة الإسرائيلية رغم نجاح الهجوم المضاد على حد قوله.

وأوضح الباحث الفرنسى أن الأزمة النفسية التى أصابت المجتمع الإسرائيلى بسبب هذه الحرب أدت إلى تشكيك جذرى فى المؤسسة العمالية الحاكمة[3].. وكان رد فعل حركة مثل «جوش إيمونيم» على ذلك هو رفض الانسحاب من أى شبر من الأرض حيث إن الحركة أرادت تجاوز الصهيونية العلمانية بإرساء مبدأ أرض إسرائيل التوراتية بدلاً من دولة إسرائيل.

وقد أنشئت جوش إيمونيم فى فبراير ١٩٧٤ بعد حرب أكتوبر بعدة أشهر فى اجتماع عقده عدد من أتباع الحاخام زفى يهودا كوك فى كفار عتسيون جنوب بيت لحم. وكان الهدف المعلن للحركة هو تأكيد السيادة الإسرائيلية الكاملة على جميع «أرض إسرائيل» ومعنى ذلك معارضة أى انسحاب إسرائيلى من الأراضى المحتلة واستيطانها لضمان استمرار السيطرة اليهودية عليها.

ويرى أتباع كوك أن ضم الأراضى تمهيدٌ لخلاص إسرائيل، ولهذا فإنهم عارضوا الانسحاب من سيناء واعتبروا المعاهدة مع مصر استسلامًا لمطالب «الجوييم» أى الوثنيين أو غير اليهود.

---

(١) المرجع السابق: ص ٢١٤. (٢) المرجع السابق: ص ٢١٥.

(٣) المرجع السابق: ص ٢١٦.

وقد لجأت جوش إيمونيم إلى العنف المسلح حيث أيد الحاخام موشى ليفنجر زعيم المستوطنين فى الخليل الإرهاب المضاد.

وعندما اكتشفت المجموعة السرية اليهودية فى بدايات عام ١٩٨٤، أظهرت التحقيقات مع المتهمين وجود مؤامرة لنسف المسجد الأقصى، وهو أمر كان يمكن أن يؤدى إلى حرب عالمية ثالثة كما يرى بعض الخبراء فى مركز هارفارد للشئون الدولية(١).

وأورد كيبل رأى خبير متخصص فى فكر حركة «جوش إيمونيم» وهو الأستاذ الجامعى جيدعون أران الذى يرى أن هذه المجموعة بحثت بالفعل نسف قبة الصخرة والمسجد الأقصى اعتقاداً منهم بأن نسف «شناعة الخراب» وهو الوصف الذى يطلقونه على المسجد الأقصى وقبة الصخرة «سيدفع مئات الملايين من المسلمين إلى الجهاد، الأمر الذى سيدفع الإنسانية كلها إلى مواجهة شاملة ينظرون إليها باعتبارها حرب يأجوج ومأجوج بكل نتائجها الكونية... ويمكن لانتصار إسرائيل فى نهاية هذه المواجهة التى طال انتظارها أن يمهد السبيل لظهور المسيح»(٢).

وهكذا، كما يقول كيبل، فإن مؤامرة نسف المسجد الأقصى تمثل الانتقال إلى بعد آخر فى منطق إعادة التهويد من أعلى، حيث لم يعد الأمر يقتصر على السعى إلى الحلول محل دولة تتساهل مع مبدأ السيطرة اليهودية على «أرض إسرائيل»، ولكن الهدف الجديد هو التعجيل بتحويل هذه الدولة الصهيونية العلمانية إلى «مملكة إسرائيل التى تحمل الخلاص للإنسانية».

وكشف الباحث الفرنسى عن ظهور فكرة نسف المسجد الأقصى عقب حرب ١٩٦٧ فى بعض الدوائر الدينية بعد احتلال القدس الشرقية، حيث طلب الحاخام الأكبر للجيش «تطهير» المكان أى نسف الحرم القدسى، ولكن وزير الدفاع آنذاك موشى ديان عارض ذلك. طبقًا لما جاء فى كتاب حجاى سيجال الذى يدافع عن الإرهاب اليهودى وعنوانه «المجموعة اليهودية السرية فى الضفة الغربية» وقد صدر عام ١٩٨٨ فى القدس(٣).

لقد ظلت المعاهد التلمودية وكذلك الحاخامية الكبرى فى إسرائيل على اعتقاد بأن الشريعة اليهودية تمنع اليهود من دخول ساحة الحرم القدسى (التى يرون أنها ساحة

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٢٤. (٢) المرجع السابق: ص ٢٢٤.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٢٥.

الهيكل)، طالما أن المسيح لم يظهر.

ولهذا فإن أصحاب هذا الرأى لم يروا أى ضرورة عاجلة لنسف المسجد الأقصى وأن الأفضل هو التريث.. وكان ذلك أيضًا هو رأى مؤسسى جوش إيمونيم الذين كان شاغلهم الأكبر هو الاستيطان.

ولكن لما بدأت مفاوضات السلام مع مصر فى ١٩٧٧ بدأ هذا التيار الدينى يشعر بخيبة أمل فى دولة إسرائيل وفى حكومة بيجين، لهذا فقد بدأ التفكير فى خطط أكبر وأخطر.

لقد بدأ هؤلاء المتدينون المتطرفون يتساءلون عما إذا كانت هذه الدولة الصهيونية العلمانية التى تنفذ رغم كفرها - حسب تصور الحاخام كوك - الخطة الإلهية دون وعى منها لا تزال تقوم بهذه المهمة رغم أنها تستعد للسلام مع مصر والانسحاب من سيناء؟. ومن هنا بدأ التفكير فى فرض أمر واقع أخطر من الاستيطان يجعل السلام مع العرب والانسحاب من الأرض المحتلة أمرًا مستحيلاً.. ومن هنا جاء التفكير فى نسف المسجد الأقصى لمنع أى سلام مع العرب[1].

إنه لأمر غريب حقًا أن يتطرف اليهود فى أعقاب حرب ١٩٦٧ عندما أدى الاحتلال إلى السيطرة على ما يعتبرونه «أرض إسرائيل التوراتية»، وغريب أيضًا أن يتطرفوا كرد فعل على الهجوم العربى الناجح فى حرب ١٩٧٣، ولكن الأغرب من ذلك كله أن يزداد تطرفهم ليصل إلى ذروة الطيش والجنون عندما بدأت مفاوضات السلام مع مصر وهم الذين يطالبون بالسلام ويتباكون على السلام ويتغنون بالسلام! حيث تخطط مجموعة منهم لنسف المسجد الأقصى ولو أدى ذلك إلى حرب عالمية ثالثة، وهم واعون بذلك ومدركون أن المسلمين لن يقفوا موقف المتفرج بل ربما أدى ذلك إلى أكبر الأخطار على وجود إسرائيل ذاتها.. ولكن لا بأس طالما أن هذا كله سيؤدى إلى نتيجة عظيمة وهى منع السلام مع العرب.

ولا بد للعرب أن يعيدوا حساباتهم طالما أن هزيمتهم تؤدى إلى تطرف الإسرائيليين، وطالما أن انتصارهم يؤدى أيضًا إلى تطرف الإسرائيليين.. وطالما أن مفاوضات السلام بينهم وبين إسرائيل يمكن أن تؤدى إلى تطرف الإسرائيليين..

(١) المرجع السابق: ص ٢٢٥، ٢٢٦.

فإذا كانت النتيجة فى كل الحالات واحدة وهى التطرف اليهودى، فلتكن للعرب وقفة قوية على المستوى الفكرى والمستوى السياسي والاقتصادى والمستوى العسكرى لتلقين هؤلاء المتطرفين درسًا لعلهم يخرجون من حالة الهذيان التى يعانون منها منذ أن توهموا أنهم الطرف الأقوى.

لقد ظل اليهود يتباكون بسبب اضطهادهم فى أوروبا ويطلبون النجاة بأرواحهم ويلتمسون ملاذاً يعيشون فيه مطمئنين فى أى مكان فى العالم. ثم إذا بنا نفاجأ بأن هؤلاء المساكين لا يكفيهم اللجوء إلى فلسطين، ولا يكفيهم إقامة دولة يهودية فى فلسطين، ولا يكفيهم الانتصار على العرب ولا أن يوقع العرب معهم معاهدات سلام.

بل إنهم يريدون الأرض العربية والثروة العربية والمياه العربية والمقدسات الإسلامية والسيطرة الاستراتيجية والهيمنة الاقتصادية.. لماذا؟ لأن العرب أبناء أَمَة اسمها هاجر، وهم أبناء سيدة اسمها سارة.. بل إن حاخامًا يهوديًا تحدث عن أهمية التدرّج فى التراث العبرى، وأعرب عن أسفه لأن سارة زوج إبراهيم عليه السلام تعجلت طلب الذرية وهى عاقر، حيث طلبت من إبراهيم أن يعاشر هاجر التى ولدت إسماعيل.

ويقول الحاخام أو الحكيم اليهودى: لو أن سارة لم تتعجل طلب الذرية وتمهلت قليلاً، حيث رزقت بعد ذلك بإسحق، لما كان هناك إسماعيل الذى خرج منه العرب.. ولما كان إذن هناك هؤلاء العرب الذين ينغصون عيش اليهود..

قال هذا الحاخام ذلك فى نهاية القرن العشرين، بعد قيام إسرائيل بنحو نصف قرن، وبعد السلام مع مصر وغيرها من العرب.. ورغم هذا كله فإن الحاخام أو الحكيم اليهودى كان يتمنى ألاّ يخرج إسماعيل إلى الوجود، وألاّ يكون للعرب وجود حتى يصفو الجو لليهود!.

ونعود إلى مؤامرة نسف المسجد الأقصى التى يرجع إلى الباحث الفرنسى چيل كيبل الفضل فى كشف أبعادها؛ حيث أوضح أن صاحب هذه الفكرة التى اختمرت فى ذهنه هو شبتاى بن دوف الذى كان مقاتلاً فى صفوف القوات الصهيونية فى عهد الانتداب البريطانى، وهو عصامى اغتنم السنوات الست التى قضاها فى السجون البريطانية فى الاطلاع وتعلم اللغات الأوروبية؛ حيث قرأ كثيراً فى كتب التاريخ وعلم النفس والاقتصاد السياسى، وآمن فى النهاية بأن خلاص إسرائيل حتمية مطلقة، وأن هذا

الخلاص يتجلى فى قيام مملكة إسرائيل المسيطرة على كل أرض الميعاد[1].

وقد قرأ شبتاى ما كتبه الحاخام أبراهام كوك لكنه اختلف معه فى تصوره؛ حيث يرى شبتاى ضرورة تجاوز الدولة الصهيونية بالمواجهة معها، وعندما بدأت المفاوضات المصرية الإسرائيلية رأى بن دوف أنه ينبغى اكتشاف عنصر يكون بمثابة حافز لتنشيط عملية الخلاص ولو أدى ذلك إلى الصدام مع الدولة الصهيونية.

وفى الوقت نفسه فإن بعض أعضاء جوش إيمونيم الذين باغتتهم هذه المفاوضات مع مصر كانوا يبحثون عن عمل أقوى تأثيرا من مواصلة الاستيطان اليهوى فى الأراضى المحتلة، وقد اكتشف أحدهم - وهو يهودا عتيسيون - فكر شبتاى بن دوف، فالتقى معه وناقشه واقتنع بأن «تطهير شناعة الخراب» التى أقيمت فوق ساحة الهيكل تعتبر العنصر الحافز الذى طال البحث عنه..[2].

و«شناعة الخراب» عندهم رمزٌ كما سبق القول إلى الحرم القدسى الشريف. وقد بارك بن دوف هذه الخطة وهو يموت فى عام ١٩٧٩.

وقد انضم ضابط فى الجيش ومهندس ميكانيكى متبحر فى دراسة التوراة إلى يهودا عتسيون الذى كون مجموعة صغيرة من المتآمرين وأراد قبل تنفيذ خطته الحصول على موافقة سلطة دينية، وعندما سأل الحاخام زفى يهودا كوك عن رأيه فإن كوك لم يعلق برفض أو موافقة، وفهم المتآمرون أن موقف كوك هو «عدم استنكار» خطتهم، ولكن غالبية الحاخامات يرون أو على الأقل يعلنون أن بناء الهيكل الثالث لن يكون عملاً إنسانيًا، وأنه سيقوم تلقائيًا مع خلاص الشعب المختار وعودة المسيح، ولذلك فإنه لا ضرورة «لتطهير» ساحة الهيكل أى نسف المسجد الأقصى. لكن المتآمرين لم يقتنعوا بذلك، ورأوا أن نسف المسجد الأقصى سيشعل حربًا مع العرب ويوقف عملية السلام، وسوف يدفع ذلك الدولة الصهيونية إلى الطريق المؤدى حتمًا إلى تحولها لتصبح مملكة إسرائيل وإلى الخلاص[3].

وقد ازداد عدد المتآمرين.. ومن الغريب أنه كان بينهم مثقف فرنسى كان بروتستانتيا واعتنق اليهودية وهو دان بيرى، ويبدو أن ذلك مثال واضح للاختراق الصهيونى

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٢٦.　(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٢٧.

للمسيحية خاصة للبروتستانتية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

لقد كان دان بيرى هذا بروتستانتيا ثم شيوعيًا ثم يهوديًا، وقد تعلم العبرية وسجل اسمه فى الوكالة اليهودية وعاش فى كيبوتز.. ولقد شعر دان بأنه إسرائيلى رغم مسيحيته، كما أنه شعر بخيبة الأمل لأن القديس بولس لم يقبل فكرة الشعب المختار وأراد إلغاء الفوارق بين بنى إسرائيل وسائر الأمم(1) مما جعل هذا البروتستانتى يعتقد اعتقادًا غريبًا هو عداء المسيحية للسامية لمجرد أن القديس بولس يرفض تمييز اليهود على غيرهم، رغم أن بولس نفسه قال فى بعض رسائله إن رفض اليهود لرسالة المسيح أدى إلى تحويل هذه الرسالة إلى الوثنيين، لكن بولس أكد أن باب الخلاص سيظل مفتوحًا أمام اليهود ليؤمنوا بالمسيح.. فأى عداء للسامية إذن فى المسيحية؟

ولهذا فإن دان ترك المسيحية وتوجه إلى إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧، وهناك التحق بالجامعة العبرية حيث قرر اعتناق اليهودية وعمره ٢٦ عامًا فى عام ١٩٦٩. ولكن طلبه اعتناق اليهودية قوبل برفض قوى صدم مشاعره وجعله يعيش تجربة مؤثرة ورغم ذلك فإن «العلامة» دان أصر على اعتناق اليهودية وصبر طويلاً حتى ينال بغيته، وكل ذلك للهرب من عداء المسيحية للسامية، وقد ساعده فى ذلك الحاخام كوك وليون أشكنازى الذى سبقت الإشارة إليه، وهو يزعم أن الإسلام ورث عن المسيحية العداء لليهودية.

وقد درس دان القبالا، واستكمل دراسته إبان حرب ١٩٧٣، ثم تفرغ للتدريس وأنشأ مدرسة تلمودية للأطفال عام ١٩٧٨ فى مستوطنة كريات أربع اليهودية فى الخليل، وهناك ارتبط بحركة جوش إيمونيم، وعندما اتصلت به مجموعة المتآمرين التى تريد نسف المسجد الأقصى أبدى حماسه وإصراره على تنفيذ هذه الخطة. ورأى العلامة البروتستانتى الشيوعى اليهودى دان بيرى أنه لا حاجة لطلب رأى الحاخامات؛ لأنه وهو المتبحر فى دراسة الكتب المقدسة يستطيع تكوين رأى فى ذلك نظرًا لأنه مطلع على كل دقائق هذه النصوص.. وقد ذكر دان بيرى ذلك بنفسه للباحث چيل كيبل فى لقاء بينهما فى كريات أربع يوم ٢ مارس ١٩٩٠(2).

وقد قام أعضاء المجموعة بتقسيم العمل بينهم مثل: مسح المكان، وقياس كثافة التردد عليه، وتعطيل أجهزة الإنذار، وتكديس المتفجرات التى سيضعونها أسفل الحرم القدسى

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٢٨.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٩.

فى يوم التنفيذ... ولكن البعض منهم تردد قبيل تنفيذ الخطة لأن الانسحاب من ياميت وسط حالة من اللامبالاة جعلهم يؤجلون خطتهم إلى حين.. ثم شاءت الأقدار أن تكتشف هذه المؤامرة وأن يعتقل أصحابها فى أبريل ١٩٨٤.

بقى أن نؤكد أن القرآن الكريم حين تحدث عن «المسجد الأقصى» فى سورة الإسراء فإنه كان يشير إلى بيت المقدس أى إلى القدس كلها وذلك من قبيل إطلاق الجزء على الكل مثلما أطلق الجزء وهو «المسجد الحرام» فى نفس الآية على مكة المكرمة، ودليل ذلك أن النبى عليه السلام أُسرى به من بيت أم هانئ وليس من المسجد الحرام. تقول الآية: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ وهذه إشارة إلى أرض فلسطين التى قال تعالى عنها فى الآية ٧١ من سورة الأنبياء: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ كما أن الآية الأولى من سورة الإسراء تتحدث عن المسجد الأقصى باعتبار ما سيكون، وبهذا فإنها تكون قد وضعت الأساس الأول لبناء هذا المسجد فى تاريخ الإسلام، وذلك أسلوب معروف فى البلاغة العربية حيث جاء مثلاً فى الآية ٣٦ من سورة يوسف: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ والحقُّ أنه يعصر عنبًا ولكنه قال: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ باعتبار ما سيكون.

ونضيف إلى ذلك أن اليهود يتمسكون بالنص الحرفى فيما يتعلق بالقدس رغم أن مرورهم فيها كان عابرًا، أما المسيحيون فإنهم يركزون على القدس السماوية وهو أمر يتفق مع الروحانية التى تغمر المسيحية.

وأما الإسلام فإنه يقدس القدس التى فى السماء والقدس التى فى الأرض، على أن تكون قدس الأرض صورة فى السلام لقدس السماء.

والإسلام هو الدين السماوى الوحيد الذى جعل من قدس الأرض صورة لقدس السماء؛ حيث عامل الآخرين بتسامح فاحترم عقائدهم ومعابدهم، بينما أقدم الصليبيون على ذبح اليهود والمسلمين معًا.. واليوم يجثم الاحتلال اليهودى فوق القدس التى تترقب اليوم الذى تعود فيه إلى سابق عهدها مدينةً للسلام والتعايش بين جميع الأديان فى حرية ووئام.

نعم إنه دين لا يعرف الهدم ولا الإبادة.. إنه دينٌ لا يريد إرغـام الآخرين على اعتناقه وإلا كان مصيرهم القتل مثلما فعلت محاكم التفتيش، ولا يريد هدم معابد الآخرين لأنه قرر منذ البداية حرية العقيدة فى قوله: ﴿لا إكراه فى الدين﴾.

إنه دين يؤمن بكـل الرسالات وكـل الكتب المقـدسـة، وكلٌّ من آمن بنبى أو كـتـاب سماوى فإنه يعتبر فى نظر الإسلام من «أهل الكتاب» الذين يدعو إلى حسن معاملتهم.. وهو أمـر قرره التـاريخ فى صفـحاته منذ أن ظهـر الإسلام الذى طالما أنصف الآخـرين، ويأبى الآخرون اليوم إنصافه إلا كارهين.

***

الباب الثانى عشر

القدس بين الشرق العربى الإسلامى
والغرب الأوروبى المسيحى

هرقل والإسلام:

كانت القدس مثاراً للصراعات بين أوروبا المسيحية والشرق الإسلامى، تجلى ذلك فى الحملات الصليبية وحروبها الهائلة بين الجانبين حتى لقد ظن اليهود حينئذ أنها حرب يأجوج ومأجوج التى تدور بين أكبر قوتين فى العالم والتى يأتى بعدها الخلاص من وجهة نظرهم.

لقد احتل الصليبيون القدس فى سنة ١٠٩٩م، وحررها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى فى سنة ١١٨٧م أى بعد ٨٨ عاما، وقد سار صلاح الدين على خطى قائده الأول نور الدين محمود فى جهاد الصليبيين وفى الحرص على أن يكون حكمه عادلا وفى احترامه للعلم والعلماء.. فهؤلاء القادة العرب إذن لم يكونوا مجرد محاربين أو قادة عسكريين، بل يمكن القول بأنهم كانوا حكاماً مثقفين وقادة جيوش محنكين.. وسوف نرى على الجانب الآخر أمثلة مشابهة؛ الأمر الذى جعل هؤلاء القادة ينظر بعضهم إلى بعض باحترام مما أدى فى بعض الأحيان إلى قيام صلات وثيقة وعلاقات صداقة وتحالف بينهم مثلما حدث فى حالة نادرة تستحق الوقوف عندها وهى العلاقة بين الملك الكامل الأيوبى والإمبراطور فريدريك الثانى.

وكنت قد أردت الحديث بنوع من التفصيل عن هذه العلاقة التى تعتبر نموذجا للتعايش بين أوروبا المسيحية والشرق الإسلامى، ثم خطر لى أن أبدأ باستعراض الاتصالات الأولى بين المسلمين والروم منذ عهد النبى محمد عليه السلام، الذى بعث برسالة إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام، بل إن علاقة المسلمين بالروم ترجع إلى أبعد من ذلك قليلا، وذلك عندما هزم الفرس الروم ونزلت آيات من القرآن الكريم تتنبأ بانتصار الروم بعد حين، وبعد ذلك كان فتح عمر للقدس ثم جاء صلاح الدين الذى كان مثلا للقائد العبقرى المدافع عن الحقوق والمتسامح مع الأعداء من موقع القوة.

وتأتى بعد ذلك علاقة الكامل الأيوبى وفريدريك الثانى.

يقول عارف باشا العارف فى كتابه «تاريخ القدس»[1] إن الضعف دب فى دولة الروم فى عهد هرقل، حيث احتل الفرس إيلياء (وهى القدس) سنة ٦١٤م وقتلوا من سكانها ٩٠ ألف مسيحى وهدموا كنيسة القيامة.. ويعتقد بعض المؤرخين أن الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود.. ولكن هرقل عاد وجمع قواه وانتصر على الفرس، ودخل هرقل إيلياء فى ١٤ سبتمبر ٦٢٩ حاملا على كتفه خشبة الصليب التى استردها من الفرس.

وقد أشار الأسقف سيبيوس فى كتاب له بالأرمنية عنوانه «تاريخ هرقل» إلى استيلاء الفرس على القدس سنة ٦١٤م ثم استيلاء العرب عليها سنة ٦٣٥م حيث ذكر أن الفرس استولوا عليها وقتلوا معظم سكانها وأسروا الباقين ومنهم البطريرك زخريا وحارس الصليب وأخذوا الصليب المقدس، وأشار إلى استعادة هرقل لهذا الصليب بعد ذلك، وتحدث سيبيوس عن ظهور الإسلام تحقيقا لنبوءة وردت فى سفر التكوين فى التوراة فى الآية القائلة عن إسماعيل: «يده على الجميع ويد الجميع عليه»[2].

وذكر سيبيوس أن أبناء إسماعيل بعثوا برسالة إلى هرقل جاء فيها «إن الله منح هذه الأرض لأبينا إبراهيم ولذريته من بعده، ونحن بنو إبراهيم، ولقد ملكت بلادنا طويلا فدعها فى سلام ولن نغزو أرضك، وإن لم تفعل فسوف نسترد منك ما أخذت» ورفض الإمبراطور التخلى عن بلاد الشام وقال للعرب: «هذه الأرض ميراثى وأما ميراثكم فهو الصحراء فاذهبوا إليها فى سلام». وجمع هرقل جيوشه ولكن الله بث الرعب فى قلوب الروم كما يقول الأسقف سيبيوس الذى عاش فى القرن السابع الميلادى[3]. وقد تحدث ابن العبرى فى كتابه «تاريخ مختصر الدول»[4] بإيجاز عن هذه الوقائع حيث قال إن هرقل ملك نحو إحدى وثلاثين سنة وأنه دعا فى بداية عهده ملك الفرس إلى الصلح فلم يجبه، بل إنهم فتحوا القدس فى السنة الخامسة لملك هرقل، وأن هرقل غزا بلاد الفرس فى السنة الخامسة عشرة لملكه. وقد تحدث القرآن الكريم عن هزيمة الروم وأنبأ بأنهم سيهزمون الفرس فى بضع سنين كما جاء فى مفتتح سورة الروم: ﴿ الٓمٓ ①

(١) تاريخ القدس: ص ٣٩، ٤٠.
(٢) القدس المتعددة: ص٦٤، ٦٥.
(٣) المرجع السابق: ص٦٦.
(٤) تاريخ مختصر الدول: ص٩١.

غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ويذكر المفسرون أن الفرس لما هزموا الروم شق ذلك على المسلمين لأن الروم أهل كتاب فهم أقرب إلى المسلمين من المجوس الذين لا كتاب لهم، بينما فرح المشركون، ولما نزلت هذه الآيات قال أبو بكر الصديق للمشركين: «والله لتظهرنَّ الروم على فارس بعدبضع سنين» فقال له أبي بن خلف: «كذبتَ.. اجعل بيننا أجلا أُناحِبُكَ عليه»، والمناحبة هي المراهنة.. وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكرٍ بأن يزيد الأجل من ثلاث سنين إلى تسع سنين، ومات أُبَيٌّ في تلك الفترة بضربة من الرسول ﷺ بينما ظهرت الروم على فارس يوم الحديبية.

وذكر الزمخشري في تفسيره «الكشاف» أن البضع ما بين الثلاث إلى العشر.

وقد أشار إلى هذه الواقعة المؤرخ ابن الأثير في كتابه «الكامل» حيث قال:

«وكان النبي ﷺ والمسلمون قد ساءهم ظفر الفرس أولاً بالروم لأن الروم أهل كتاب، وفرح الكفار لأن المجوس أميون مثلهم، فلما نزلت هذه الآيات راهن أبو بكر الصديق أبيَّ بن خلف على أن الظفر يكون للروم إلى تسع سنين، والرهن مائة بعير، فغلبه أبو بكر، ولم يكن الرهن ذلك الوقت حراما، فلما ظفرت الروم أتى الخبرُ رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية».

والمعروف أن الرسول عليه السلام بعث إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام في سنة ست من الهجرة حيث بعث إلى كسرى كتابا جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فإن تُسلم تَسلم وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك»، وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أن كسرى لما قرأ الكتاب شقه وقال: «يكتب إليَّ بهذا وهو عبدي؟!» وأن الرسول دعا عليه قائلا: «مزَّق الله ملكه».

بينما بعث الرسول عليه السلام بكتاب إلى هرقل مع دحية الكلبي جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن إثم الأكاريين عليك».

ويسهب المؤرخون المسلمون فى الحديث عن احتفال هرقل بكتاب النبى عليه الصلاة والسلام، بل يذكرون أنه فكر فى أن يُسلم فعلا أو على الأقل فى مصالحة نبى الإسلام ولكن رجال دولته أبوا ذلك.. «ويمكن القول بأن هرقل وقف موقف المتردد من الإسلام وأنه كان يبحث عن يقين.

فقد ذكر الإمام البخارى فى «باب الوحى» فى صحيحه أن هرقل كان ينظر فى النجوم وأنه قدم إيلياء (القدس) فأصبح مضطربا فسأله بعض بطارقته عن ذلك، فقال لهم: «إنى رأيت الليلة حين نظرتُ فى النجوم مُلك الختان قد ظهر.. فمن يختتن من هذه الأمة؟» قالوا: «ليس يختتن إلا اليهود»..

ثم يقول البخارى فى روايته «فبينما هم على أمرهم أُتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر» وأورد البخارى فى رواية عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وهم بالشام فى فترة صلح الحديبية فأتوه وهو فى إيلياء (القدس) وحوله عظماء الروم حيث سأل أبا سفيان عن النبى وشأنه، ثم قال لأبى سفيان بعد ما سمع منه ما سمع: «فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمىّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أننى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت منك لغسلتُ عن قدميه».

وذكر ابن كثير أن الشافعى قال إن قيصر أكرم كتاب رسول الله ﷺ ووضعه فى مسك، فقال رسول الله ﷺ: «ثبّت الله ملكه» وإنه إن ثبت للروم ملك فإنه ببركة دعاء الرسول ﷺ حين عظموا كتابه رغم زوال ملك قيصر عن الشام بالكلية مصداقا لقول الرسول ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده».

وهناك واقعة أخرى ترجع إلى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق حيث ذكر

البروفسور محمد حميد الله فى مقال بالفرنسية عنوانه «سفارة الخليفة أبى بكر إلى الامبراطور هرقل وكتاب بيزنطة فى التنبؤ بالأقدار» أن رسل الخليفة وهم عبادة بن الصامت وهشام بن العاص ونعيم بن عبدالله توجهوا إلى بيزنطه فى بداية عهد أبى بكر وقبل أن تشتعل الحرب الشاملة مع الروم وهناك التقى بهم هرقل ذات ليلة وأمربإحضار تابوت كبير وأخذ يخرج منه قطعًا من الحرير الأسود على كل منها صورة إنسان، وكان يسأل فى كل مرة رسل أبى بكر عما إذا كانوا يعرفون صاحب هذه الصورة أو تلك فكانوا يجيبون بالنفى، وأخبرهم هرقل بأنها صور آدم ونوح وإبراهيم.. وبعد ذلك كانت الصورة التالية تحمل قسمات وجه نبى الإسلام محمد ﷺ متبسما، وقد أورد ذلك البيهقى فى «دلائل النبوة» حيث ذكر هشام بن العاص أن هرقل سألهم: أتعرفون صاحب هذه الصورة؟ فقالوا: نعم إنه محمد رسول الله.. وطفقوا يبكون.

وعندئذ وقف هرقل قائلا: «أناشدكم الله أهو حقا؟» فقالوا: نعم.

فصمت برهةً ثم قال: «الحقُّ أن هذا هو البيت الأخير، ولكنى فتحته قبل غيره لأمتحنكم» وذكر هرقل أن آدم أراد أن يرى الأنبياء من سلالته وسأل ربه ذلك، فطبع الله له صورهم على قطع من حرير الجنة، وقد نسخ دانيال نسخا من هذه الصور، ونسخُ دانيال هذه هى التى كانت لدى هرقل.

وقد علق الكاتب الأوروبى المسلم ميشيل فالسان على هذه الروايات فأشار إلى أن التاريخ البيزنطى المسيحى لم يورد فيما يبدو شيئا عن هذه الاتصالات بين هرقل وأبى بكر، وأما فيما يتعلق بحقيقة هذه الصور فإنه يصعب القطع فيها بيقين، ولكن المرجح كما يرى فالسان أنها «كنز» فلكى لا مجرد صور، حيث إنها حفظت بطريقة خاصة وأحيط أمرها بالكتمان(١).

كما أن هذه الصور التى قيل إنها كانت لدى هرقل ليست إلا نسخا «نبوية» يرجع عهدها إلى النبى دانيال من الصور الأصلية «الإلهية» التى تلقاها آدم من ربه والتى كانت مودعة فى «خزانة آدم» التى أحضرها ذو القرنين من مغرب الشمس. وقد انطلق فالسان من هذه النقطة ليربط بين خزانة هرقل هذه وبين تابوت بنى إسرائيل وتابوت موسى

---

(١) الإسلام ودوره،رينيه جينو: ص٨٣.

الذى أُلقى فيه وهو طفل وليد وتابوت آدم فى مطلع عهد الإنسانية.. واستخلص من ذلك أن هناك علاقة بينها جميعا؛ لأنها كانت بمثابة وعاء يحفظ التراث الروحى للإنسانية والذى كان يتكيف فى شكله ومضمونه حسب ظروف كل عصر وشعب مع بقاء جوهره دون تغيير.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تابوت بنى إسرائيل أو تابوت العهد فى الآية رقم ٢٤٨ من سورة البقرة وذلك فى سياق الحديث عن طلب بنى إسرائيل من نبيهم شمويل أن يجعل لهم ملكًا ، وهو شاول الذى يسميه القرآن طالوت، وكان ذلك بداية عهد الملكية فى بنى إسرائيل بعد عصر القضاة. تقول الآية: ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن التابوت هو صندوق التوراة، وأن موسى عليه السلام كان يقدمه إذا قاتل فتسكن نفوس بنى إسرائيل فلا يفرون، أما «البقية» فهى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة.

أما الكلمة نفسها فأصلها من «التوب» وهو الرجوع؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء. وقرأ أبىّ وزيد بن ثابت «التابوه» بالهاء وهى لغة الأنصار.

وإذا كان التراث اليهودى يرجع بتاريخ صنع هذا التابوت إلى عهد موسى، فإن المفسرين المسلمين يرجعون به إلى عهد أسبق من موسى.

واستعرض فالسان آراء المفسرين فى هذه الآية التى ورد فيها ذكر التابوت حيث قالوا إن الله تعالى أنزل من الجنة لآدم تابوتا فيه صور الأنبياء من ذريته حتى خاتم النبيين محمد عليه السلام، كما ذكر الطبرى أن آدم نزل من الجنة ومعه هذا التابوت والركن الذى عرف فيما بعد باسم الحجر الأسود.

وبعد ذلك أصبح هذا التابوت لدى شيث بعد موت أبيه آدم، ثم انتقل كميراث للنبوة حتى وصل إلى إبراهيم وإسماعيل ثم إلى أنبياء بنى إسرائيل وفى طليعتهم موسى، وقد أشار الثعالبى فى «قصص الأنبياء» إلى أن التابوت انتقل من إسماعيل إلى ابنه قيدار الذى أراد فتحه فلم يستطع، وقد سمع صوتا يأمره بتسليمه إلى ابن عمه يعقوب لأن

التابوت لا يفتحه إلا نبي، وقد استجاب قيدار وعندئذ بشره يعقوب بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام[1].

وأشار فالسان إلى الروايات التى تتحدث عن اختلاف تابوت آدم وتابوت موسى مما يدل على تغيير فى شكل ومضمون التراث الذى يصونه كل منهما رغم أن هذا التراث أو الذخر الروحى لا يتغير إلا بمقدار ليتناسب مع ظروف معينة وعقلية بعينها[2].

ثم انتقل فالسان إلى الحديث عن تابوت آخر أشارت إليه الآيات القرآنية رقم ٣٧ و٣٨ و٣٩ فى سورة طه والتى تقول:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]، وقد أوضح أن كلمة تابوت هنا تقابلها بالعبرية كلمة «تيباه» التى قد تقرأ «تيبات». وإذا كان تابوت العهد يشير إلى معنى «العودة»، أى عودة الرحمة الإلهية إلى بنى إسرائيل، فإن التابوت الذى ألقى فيه موسى وهو طفل ينطوى أيضا على معنى «العودة» حيث عاد موسى إلى أمه حسب خطة إلهية،وقد تحققت هذه «العودة» فى قصر فرعون حيث تمت التنشئة المقدسة للنبى القادم، وكانت مصر فى ذلك الحين تقوم بدور المركز الروحى والمدرسة النبوية للشعوب المجاورة، وأقام فيها بنو إسرائيل للتنشئة الروحية، ثم كانت القطيعة بسبب انحراف فرعون ووصول بنى إسرائيل إلى نوع من النضج الروحى[3]. ويرى فالسان أن التابوتين فى الحقيقة تابوت واحد، وهو أداة إلهية، وهناك روايات تنسب صنع التابوت إلى مؤمن آل فرعون، الذى قيل إن اسمه حزقيل المشابه لاسم النبى حزقيال ومعناه «قوة الله» مما يدل على إشارة إلى التدخل الإلهى[4].

كما قيل إن تابوت موسى لا يفتح إلا من الداخل وهو بذلك يشبه تابوت آدم الذى لم يستطع قيدارفتحه لأنه لا يفتحه إلا نبى.. وقد حاول رجال فرعون فتحه أو كسره فلم يستطيعوا مما يدل على أنه ليس مجرد صندوق، ولكن آسية وهى فى التراث الإسلامى زوج فرعون اقتربت منه فرأت نورا فيه لم يره سواها، وقد عالجت فتحه دون مشقة

---

(١) المرجع السابق: ص٨٩، ٩٠.
(٢) المرجع السابق: ص٩٢.
(٣) المرجع السابق: ص٩٧.
(٤) المرجع السابق: ص٩٨، ٩٩.

فوجدت فيه طفلا صغيرا ينبعث من بين عينيه هذا النور الذى رأته قبل فتح التابوت وهو نور النبوة.

وخلاصة القول أن أم موسى وضعته فى التابوت المطلق والدائم الذى يحفظ الكنوز الروحية فى فترات الخطر الخارجي.

وهناك قرينة لغوية على وجود علاقة بين تابوت موسى الذى صانه وهو طفل وأنقذه من الخطر وبين تابوت آدم حيث جاء فى الآية ﴿أن اقذفيه فى التابوت﴾ [طه:٣٩] حيث استخدم التابوت بحرفِي التعريف ولم يقل فى «تابوت»، مما يعنى أن التابوت موجود ومعروف من قبل، وهذه إشارة إلى التابوت الدائم أو إلى إحدى صوره.

وترتبط فكرة التابوت بآدم أولاً؛ حيث قيل إن آدم أوصى ابنه شيث بتعطير جسمه بالمر والبخور ووضعه فى تابوت فى مركز الأرض... بل قيل إن آدم كان فى «تابوت» فى سفينة نوح فى عهد الطوفان مما يدل على أنه رمز لذخر التراث الروحى والحقائق العليا التى يجب على الأجيال أن تحفظها وتصونها جيلاً بعد جيل.

وقد اختتم ميشيل فالسان بحثه القيم الذى نشر بالفرنسية فى سنة ١٩٦٢ بالإشارة إلى آية قرآنية تدل على علاقة آدم بالتابوت وذلك من ناحية لغوية وهى فى سورة البقرة والتى تقول: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧] حيث أوضح أن هذه هى المرة الأولى التى تظهر فيها فكرة التوبة فى التاريخ المقدس والتى يرتبط بها معنى كلمة التابوت فى العربية، وهى صفة قد تطلق على العبد بمعنى التوبة من الذنوب، وعلى الخالق بمعنى الصفح عن عباده، ولهذا فقد جاءت بعدها فى الآية صفة الرحيم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. إن ما ذكره الكاتب الأوروبى ميشيل فالسان عن تابوت آدم يستند إلى تراث قديم أشار إليه عدد من المؤرخين حيث تحدث ابن العبرى فى «تاريخ مختصر الدول» عن وجود هذا التابوت فى سفينة نوح قائلا: «وقيل إن تابوت أبينا آدم كان معهم فى الفلك»(١) كما أورد رواية تقول إن نوحاً أوصى ابنه شام بقوله: «إنى إذا متُّ فأخرج تابوت أبينا آدم من الفلك وخذ معك من أولادك ملكيزدق لأنه كاهن الله تعالى وسيرا معاً بالتابوت إلى حيث يهديكما ملاك الرب» فعملا بهذه الوصية، وهداهما الملاك إلى جبل بيت المقدس ووضعا التابوت على قلة

(١) تاريخ مختصر الدول: ص٩.

هناك فغاص فيها، فعاد شام إلى أهله ولم يعد ملكيزدق، لكنه بنى ثَمَّ مدينة اسمها أورشليم أى قرية السلام ولذلك تَسمى هو أيضا مليخ شليم أى ملك السلام»[١]، ويتضح من هذا النص أن إضفاء القداسة على بيت المقدس أسبق من وجود الشعب اليهودى بقرون طويلة، كما أنه يرتبط بآدم عليه السلام، ثم بأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام. ولهذا فإن أحدا لا يستطيع احتكار الحقيقة الإلهية أو النبوة وأن يلغى التراث الروحى للشعوب الأخرى.

أما اليعقوبى فقد ذكر فى تاريخه أن آدم هبط من الجنة إلى جبل قيل إنه فى الهند وقيل إنه جبل أبى قبيس بمكة، وأنه نزل فى مغارة فى ذلك الجبل سماها مغارة الكنز ودعا الله أن يقدسها[٢].

ولا شك أن هذه الرواية تنطوى على إشارة إلى تراث روحى للهند وإلى تراث روحى فى بلاد العرب.

ثم تحدث اليعقوبى عن توبة آدم التى تعنى العودة إلى التراث الروحى الأصيل فقال: «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه، وأنزل له من الجنة التى كان فيها الحجر الأسود، وأمره أن يصيره إلى مكة فيبنى له بيتا، فصار إلى مكة وبنى البيت»[٣].

وهذا يدل على ارتباط المراكز الروحية الكبرى بأصل إلهى تستند إليه، كما أن الحجر الأسود الذى نزل من السماء يدل على الأصل الإلهى للدين ويرمز إلى ثباته وقوته رغم تقلبات الأيام. وأشار اليعقوبى إلى وصية آدم لابنه شيث أن يحفظ جسده ويجعله إذا مات فى مغارة الكنز، وظل أبناء آدم وأحفاده يوصى بعضهم بعضا بحفظ جسد آدم وأن يصلُّوا عنده ويقدِّسوا الله كثيرا.

ولما دنا موت يرد بن مهلائيل دعا بنيه ونهاهم عن الهبوط من الجبل المقدس، لكنه توقع هذا الهبوط فى نهاية الأمر فقال: إنكم لا محالة تهبطون إلى الأرض السفلى فأيكم كان الآخر هبوطا فليهبط بجسد أبينا ثم ليجعله وسط الأرض[٤]، كما تلقى نوح أمراً بأن يجعل جسد آدم فى وسط البيت الأعلى من السفينة، فإذا ذهب الطوفان فإن عليه أن

---

(١) المرجع السابق: ص١٠.
(٢) تاريخ اليعقوبى: ص٥، ٦.
(٣) اليعقوبى: ص٦.
(٤) المرجع السابق: ص١١.

يصلي عند جسد آدم وأن يوصى ساماً أكبر بنيه بأن يذهب بجسد آدم حتى يجعله فى وسط الأرض، وليَجعل معه رجلا من أولاده يقوم عليه، وليكن حبراً لِلَّه، وإن الله مرسل معه ملكا من الملائكة يدله على وسط الأرض ويؤنسه.

وبعد ذلك ذكر اليعقوبي أن ملكيزدق أمر بأن يرافق جسد آدم فى وسط الأرض، وألاَّ يفارقه، وتحدث اليعقوبى عن روايات تقول إن جسد آدم وُضع بمسجد منى، وروايات أخرى تقول إنه فى الشام فى الأرض المقدسة[1].

* * *

(١) المرجع السابق: ص١٦، ١٧.

الفاروق عمر فى بيت المقدس

لقد أشرنا من قبل إلى دور عمر بن الخطاب رضى الله عنه بوصفه فاتحا للقدس، وإلى ورود نبوءات عنه فى كتب اليهود الخفية التى تحدثت عنه بوصفه «الملك الثانى» الذى يرمم الهيكل ويقيم عليه مسجدا، وهى كتب منشورة بالإنجليزية.

ويعنينا هنا أن نتحدث عن شخصية عمر التى تتسم بصفات هامة منها العدل، والاجتهاد فى الفقه، والثقافة، والتى تمثلت فى ملكته النقدية فى ميدان الشعر العربى.

وكل هذا يدل على أن عمر لم يكن مجرد حاكم أو قائد، بل إن أبعاد شخصيته تتجاوز ذلك لتجعله من أكبر الشخصيات فى تاريخ الإنسانية. ومن أهم صفات عمر عدله وحرصه على أن يصل هذا العدل إلى كل إنسان، وذلك أنه لم يكن يكتفى بتعيين أفضل الولاة، بل كان يتابعهم فى أعمالهم ويراقب تصرفاتهم؛ لأن المستقيم يمكن أن ينحرف، فلم يكن هناك بد من المتابعة والمراقبة.

كما أمر عمر ولاته بألاّ يغلقوا أبوابهم دون أصحاب الحاجات، وسوف نرى هذه الصفة واضحة أيضا فى شخصية صلاح الدين الأيوبى الذى كان يحارب هذه الجيوش الصليبية ولكنه يفتح بابه لأصحاب المظالم، مما يعنى أن الحاكم مهما كانت شواغله لا بد أن يرعى فى نهاية المطاف مصالح المواطنين وأن يراقب أصحاب المناصب حتى ولو كانوا يتمتعون بالنزاهة والكفاءة لأنهم عرضة للانحراف بسبب الضعف الإنسانى الكامن فى كل إنسان.

كما كان يحرص على الحياة فى مستوى الناس؛ حيث كان لا يأكل إلا الخبز والزيت فى عام الرمادة ويقول: بئس الوالى أنا إن شبعتُ والناسُ جياع. ولقد قال على رضى الله عنه لعمر: لقد أتعبتَ الخلفاء من بعدك.

وأمر عمر ولاته بحسن معاملة الرعية والامتناع عن ضربهم والاستيلاء على أموالهم حيث قال :«ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم». ولم يكن عمر رغم عدله وإحسانه راضيا عن نفسه بل إنه سأل سلمان:

أمَلكٌ أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان :«إن أنت جبيتَ من أرض المسلمين درهماً أو أقل أوَ أكثر ووضعتَه فى غير موضعه فأنتَ ملك لا خليفة»، فبكى عمر.

وعمر العادل الزاهد كان قويا لا يميل إلى التواضع المصطنع حتى قيل فيه: كان عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو واللهِ ناسك حقا.

أما اجتهاد عمر فى الفقه فهو أمر معروف فى تاريخ التشريع الإسلامى؛ حيث انقسم العلماء إلى أهل الحديث وأهل الرأى. وكان عمر من أئمة أهل الرأى، وتبعه فى ذلك عبد الله بن مسعود الذى كان يميل إلى استعمال الرأى، وتأثر بطريقة عمر فى الاستنباط، ونشر هذا الاتجاه فى العراق، بينما انتشر اتجاه أهل الحديث فى الحجاز.

ومن الطريف أن عمر هو أول من كتب التاريخ، وأول من دُعى أمير المؤمنين، وأول من عاقب على الهجاء، وأول من جمع الناس على إمام يصلى بهم التراويح فى رمضان، وجلد فى الخمر ثمانين قياسا على حد القذف، كما فتح الفتوح، ودوّن الدواوين.

أما فتح بيت المقدس فقد كان سنة ١٥ بعد الهجرة، وقيل سنة ١٦هـ.

وقيل عن سبب قدوم عمر إلى الشام أن أبا عبيدة بن الجراح حاصر بيت المقدس، فطلب منه أهله أن يصالحهم على صلح مدن أهل الشام، وأن يكون المتولى لعقد الصلح عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة، وذكر ابن الأثير أن عمر كتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية، فلما قدم إليها قال له رجل من اليهود: «يا أمير المؤمنين إنك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء»[1].. وإيلياء هو الاسم الذى أطلقه الرومان على القدس.

وذكر ابن كثير أن جندا من بيت المقدس جاءوا إلى أمير المؤمنين يطلبون منه الصلح والأمان حين سمعوا بقدومه، فأجابهم عمر إلى ما سألوا وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة، وشهد فى الكتاب خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان، وهو الذى كتب الكتاب.

وقد كان فتح بيت المقدس بعد انتصار المسلمين على الروم فى اليرموك سنة ١٥هـ وذكر الواقدى فى «فتوح الشام» أن أبا عبيدة بن الجراح بعث إلى عمر يسأله إلى أين يوجه جيوشه بعد موقعة اليرموك، فجاءه كتاب من عمر يقول فيه:

---

(١) الكامل: ج٢، ص٣٤٨.

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام أبي عبيدة. أما بعد.. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه، وقد ورد على كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه إليها، وقد أشار ابن عم رسول الله ﷺ بالسير إلى بيت المقدس فإن الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك والسلام عليك»(١).

وعندئذ وجه أبو عبيدة سبعة من كبار القادة في طليعتهم خالد بن الوليد كل منهم على خمسة آلاف مقاتل إلى بيت المقدس، فحاصروها نحو أربعة أشهر. وروى الواقدي أن أحد البطاركة قال إنه يجد صفة عمر في العلم الذي ورثه عن المتقدمين، وأنه إذا قدم فلا سبيل إلى قتاله ولا طاقة بنزاله.. وطلب هذا البطرك أن يرى عمر ليتحقق أنه هو، وعندئذ فإنه سيسلم إليه المدينة.

وذكر الواقدي أن المسلمين قدَّموا إلى هذا البطرك خالد بن الوليد الذي كان أشبه الناس بعمر حتى يُسلم إليهم المدينة، فقال: «وحق المسيح كأنه هو، ولكن باقي العلامات ليست فيه»(٢).

وعندئذ بعث أبو عبيدة بكتاب إلى عمر جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبي عبيدة عامر بن الجراح. أما بعد.. السلام عليك.. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ، واعلم يا أمير المؤمنين أنا منازلون لأهل إيلياء نقاتلهم أربعة أشهر كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا، ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار إلا أنهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم، فلما كان اليوم الذي كتبتُ إليك الكتاب فيه أشرف علينا بطركهم الذي يعظمونه وقال إنهم يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدهم إلا صاحب نبينا واسمه عمر، وأنه يعرف صفته ونعته، وهو عندهم في كتبهم وقد سألنا حقن الدماء. فسِرْ إلينا بنفسك وانجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك».

وقد نقل الكتاب إلى عمر ميسرة بن مسروق العبسي.. ولما تلقاه عمر شاور المسلمين، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يسير بنفسه لأن ذلك فتح للمسلمين ولأن التردد قد يدفع الروم في إيلياء إلى طلب المدد من بلادهم فيواصلون القتال. وقد قبل عمر رأي علي.

---

(١) فتوح الشام: ج١، ص٢٢٩.

(٢) المرجع السابق: ج١، ص٢٣٥.

وذكر اليعقوبى والواقدى معاً أن عمر وهو فى طريقه إلى الشام مر على حى من بنى مرة فإذا بقوم منهم قد أقيموا يعذّبون فى الخراج وليس عندهم مال يدفعونه، فقال عمر: دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :«لا تعذبوا الناس فى الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة». وهذا دليل واضح على عدل عمر ومنعه التعذيب.

ولما أشرف عمر على بيت المقدس نظر إليه قائلا: «الله أكبر.. اللهم افتح لنا فتحا يسيرا، واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا».

وجاء البطرك ليشاهد عمر فلما رآه قال: هذا والله-الذى نجد صفته ونعته فى كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه لا محالة. ثم قال لأهل بيت المقدس: يا ويحكم انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله.

وذكر الواقدى أن عمر أقام فى بيت المقدس عشرة أيام، وهناك لقيه كَعبُ الأحبار الذى كان يهوديا وأسلم على يديه حيث قال لعمر: أنا كعب الأحبار وإننى جئت أريد الإسلام والدخول فيه؛ فإنى وجدت صفة محمد ﷺ وأمته فى الكتب المنزلة. وكان كعب قد ورث عن أبيه ورقتين أوصاه ألا يفتحهما إلا إذا سمع بخبر نبى يبعث فى آخر الزمان اسمه محمد، وظل كعب يتردد فى اعتناق الإسلام حتى خلافة عمر الذى صحبه معه إلى المدينة وقال له :«حدِّث المسلمين بما رأيتَ فى الورقتين» فازداد الناس إيماناً بذلك(1).

وقد افتتح عمر بيت المقدس صلحا. وذكر اليعقوبى أن القوم اختلفوا فى صلح بيت المقدس؛ فقال البعض إنه صالح اليهود، وقال آخرون إنه صالح النصارى، والمجمع عليه أنه صالح النصارى وذلك فى رجب سنة ١٦هـ حيث كتب عمر لهم كتابا جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس؛ إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لا تُسكن ولا تُخرب إلا أن تحدثوا حدثا عاما». وأشهد عمر شهودا على الكتاب. وهناك روايات أخرى لهذا الكتاب.

ومن المشهور أن عمر رفض أن يصلى فى كنيسة القيامة مخافة أن يتبعه المسلمون وأن يُخرجوا النصارى من كنيستهم ويخالفوا عهد الأمان.. كما اعتذر عن الصلاة فى كنيسة

(1) المرجع السابق: ج١، ص٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤.

قسنطين المجاورة، وهناك رواية تقول إنه صلى على عتبتها فقط. وصلى عمر فى مكان قريب من الصخرة المقدسة التى كان منها معراج الرسول ﷺ إلى السماء، ومعروف أن عمر أقام فى هذا المكان مسجدا بسيطا هو الذى شيده المسلمون بعد ذلك وجعلوا منه مسجدا فخما هو المسجد الأقصى.

وقد فند محمد حسين هيكل ادعاء بعض المستشرقين أن عمر اعتذر عن الصلاة فى كنيسة القيامة لما كان بها من صور وتماثيل، فى محاولة منهم لتحويل تسامح عمر إلى تعصب. وأوضح أن هذا تفسير غير صحيح لحادث تاريخى جليل الخطر فى علاقة أهل الأديان المختلفة بعضهم ببعض فى مختلف بقاع الأرض.. ودليل ذلك أن عمر زار كنيسة المهد فى بيت لحم مع البطريق صفرونيوس بعد زيارته لكنيسة القيامة وصلى بها وفيها تماثيل وصور وصلبان، ولكنه خشى أن يتخذ المسلمون من صلاته فيها حجة فيُخرجون منها أصحابها، فكتب للبطريق عهدا خاصا يجعل هذه الكنيسة للنصارى، وأوضح هيكل أن اعتذار عمر عن الصلاة فى كنيسة القيامة يصور تسامحَ الإسلام وصدقَ عمر فى تمسكه بأنه لا إكراه فى الدين، ولو أن الملوك والساسة من أهل الأمم المختلفة أدركوا ما أدركه عمر فى ذلك العهد ولم يزعموا لأنفسهم حقا على فلسطين باسم أرض المعاد أو هيكل سليمان لاستراح العالم من العناء الذى لا تخلو منه قارة من القارات ولا أمة من الأمم(١).

* * *

(١) الفاروق عمر: ج١، ص٢٤٠.

صلاح الدين

بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين

السلطان الشهيد نور الدين محمود:

لئن كان الفاروق عمر هو الذى فتح القدس سنة ١٦هـ فإن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى هو الذى فتح القدس مرة ثانية سنة ٥٨٣هـ وكان الصليبيون قد احتلوا بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ.

وقد ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢هـ ووافته المنية سنة ٥٨٩هـ. وكان أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه من رجال السلطان المجاهد نور الدين محمود بن زنكى الذى قضى حياته فى الجهاد ضد الصليبيين وأخذ ينتزع منهم المدن التى يحتلونها فى بلاد الشام.. ويمكن القول إن صلاح الدين تربّى فى مدرسة نور الدين محمود الذى عُرف بالعدل واحترام العلماء والإقدام فى محاربة الأعداء.

وقد شهد له ابن الأثير حيث وصفه بأنه صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر؛ وقال: «وقد طالعت سيَرَ الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسنَ من سيرته.. ولا أكثرَ تحريًا منه للعدل»(١).

وكان نور الدين عارفا بالفقه على مذهب أبى حنيفة ولكن دون تعصب، وكان يُعظم الشريعة ويقف عند أحكامها، وبنى دار العدل التى كان يجلس مع القاضى فيها لينصف المظلوم – ولو كان يهوديا – من الظالم، وقد بنى أسوار مدن الشام وقلاعها، وأما شجاعته فكانت مضرب الأمثال.

ونور الدين محمود هو الذى بعث قائده أسد الدين شيركوه مع ابن أخيه صلاح الدين إلى مصر عندما استنجده الخليفة الفاطمى العاضد، بشعور نسائه، وانتهى ذلك بحكم صلاح الدين لمصر بعد أن خطب على المنابر للخليفة العباسى بأمر من نور الدين الذى كان حريصا على وحدة العالم الإسلامى فى مواجهة المخاطر الهائلة التى هددت وجوده فى ذلك الحين.

---

(١) الكامل: ج١٠، ص٥٦.

وقد ولد نور الدين محمود سنة ٥١١هـ ووافته منيته سنة ٥٦٩، ليتسلم عبء الجهاد من بعده القائد العربى الإسلامى الخالد صلاح الدين الأيوبى.. وسوف نرى بعد حين أن صلاح الدين عندما فتح بيت المقدس وضع فى المسجد الأقصى المنبر الذى أعده لذلك السلطان نور الدين محمود الذى كان يمنى نفسه بتحرير المدينة من الصليبيين.

ولهذا المنبر قصة تستحق الذكر رواها ابن كثير فى «البداية والنهاية» فى معرض حديثه عن فتح صلاح الدين للقدس، حيث قال إنه أرسل إلى حلب فأحضر المنبر الذى كان الملك العادل نور الدين الشهيد قد أعده لبيت المقدس الذى كان يؤمل أن يكون فتحهُ على يديه، فتمَّ ذلك على يد أحد أتباعه وهو صلاح الدين.

وقد حدث أن أحد المفسرين وهو أبو الحكم الأندلسى المعروف بابن برّجان أورد فى تفسيره الذى يرجع تاريخه إلى حوالى سنة ٥٢٢هـ أخبارا عن فتح بيت المقدس وأنه يُنزع من أيدى الصليبيين سنة ٥٨٣هـ وقال ابن برجان إنه أخذ هذا التاريخ من الآيات الأولى لسورة الروم وهى ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

ونقل ابن كثير عن بعض العلماء قولهم فيما أورده ابن برجان إنه لم يأخذ ذلك من علم الحروف رغم أنه قال ذلك قبل وقوعه، وقيل إن ابن برجان ادعى فى تفسيره لسورة القدر أنه لو علم الوقت الذى نزل فيه القرآن لعلمَ الوقت الذى يرفع فيه.

ويقال إن نور الدين محمود علم بما ذكره ابن برجان فى تفسيره عن فتح القدس سنة ٥٨٣هـ فطمع أن يعيش إلى هذه السنة لأنه ولد سنة ٥١١هـ فاستعد لذلك وأعد منبرا عظيما لبيت المقدس(١).

ولقد أطال ابن كثير فى ذكر مناقب نور الدين حيث وصفه بأنه الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود الملقب بالشهيد، وذلك لأنه مات بأوجاع فى حلقه منعته من النطق فاعتبر شهيدا لحسن بلائه فى الجهاد.

وتحدث ابن كثير عن عدله فقال إنه كان يعقد مجالس العدل ويتولاها بنفسه، وكان يصل إليه أى إنسان من المسلمين وأهل الذمة، ولم يكن هناك حاجب بينه وبين الناس، وكان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه عَمّ صلاح الدين كان قد عظم شأنه عند نور

(١) البداية والنهاية: ج١٢، ص٣٩٨، ٣٩٩.

الدين حتى صار كأنه شريكه فى الملك، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وكان القاضى ينصف كل من يلجأ إليه من جميع الأمراء إلا أسد الدين، فلما ابتنى نور الدين دار العدل، أمر أسدُ الدين نوابه بألاّ يظلموا أحدا لأن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين ظالما، ولما علم نور الدين بذلك سجد لله شكرا وقال: «الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم».

وكان مقر حكم نور الدين فى حلب بعد مقتل أبيه عماد الدين زنكى سنة ٥٤١هـ ثم افتتح دمشق سنة ٥٤٩هـ وقد دفن فيها.

وفى مثل هذه البيئة نشأ صلاح الدين، الذى لا شك أنه يشبه نور الدين محمود فى أهم صفاته وهى العدل والشجاعة وحب العلم والحلم والصفح والجهاد فى ثبات وقوة إرادة، لا تلين قناته مهما كانت الصعاب والتحديات.



صلاح الدين على مسرح التاريخ

يمكن القول بأن تأثير صلاح الدين الأيوبى لم يكن فى الساحة السياسية أو العسكرية وحدها، بل إنه تعدى ذلك ليكون مثلا أعلى للتسامح جعل الأوروبيين يغيِّرون كثيرا من آرائهم وأوهامهم حول الإسلام، حتى لقد قيل إن علم مقارنة الأديان نشأ بسبب سلوك صلاح الدين[1] الذى جعل الصليبيين يشكُّون فى كل ما قيل لهم عن «وثنية» المسلمين المزعومة التى خدعهم بها زعماؤهم الدينيون أو السياسيون ليدفعوهم إلى شن هذه الحملات التى توالت على مدى عشرات السنين.

ولئن كانت أخبار هذا البطل ووقائعه وأشهرها موقعة حطين ثم فتح القدس معروفة بل مشهورة، فإن ذلك لا يحول دون محاولة التأمل فى بعض جوانب حياته، والتمهل عند بعض الأحداث الكبيرة فى عصره.

ونبدأ من البداية الأولى بالحديث عن أصل الأيوبيين، حيث اشتهر أنهم من الأكراد، وهذا أمر محتمل، حيث امتزجت شعوب كثيرة فى دولة الإسلام وتعايشت ثقافات وعقائد مختلفة وإن جمعت بينها سمات مشتركة. فقد ذكر ابن الأثير أن أسد الدين شيركوه وأخاه نجم الدين أيوب ابنى شادى كانا من بلودين من أذربيجان وأن أصلهما من أشرف قبيل من الأكراد.

وقيل فى نسب الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إنه أيوب بن شادى بن مروان بن يعقوب، وزعم البعض أنه من سلالة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، ولكن ابن كثير رفض هذا الزعم قائلاً إنه غير صحيح وأوضح أنه لا يُعرف بعد شادى أحد فى نسبهم[3].

لقد كان لوصول صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر أكبر الأثر فى ظهور شخصيته والتمهيد لقيامه بدوره الكبير، حيث عينه الخليفة الفاطمى العاضد وزيرا، وهو الذى خلع عليه لقب الملك الناصر. وعُرف صلاح الدين برباطة جأشه وثباته فى اللحظات الصعبة، حيث لم يجرؤ أحد سواه على اعتقال الوزير شاور الذى

---

(١) ابن رشد (بالفرنسية) إرنست رينان ص ٢٢٠. (٢) الكامل: ج ١٠ ص ١٦.

(٣) البداية والنهاية: ج١٢ ص ٣٣٦.

كان يتلاعب بالفرنجة والمسلمين معًا؛ يتحالف مع هؤلاء تارة ومع أولئك تارة أخرى تبعا لمصالحه الشخصية، وقد قبض عليه صلاح الدين وانتهى الأمر بقتله.

وصلاح الدين هو الذى أعاد مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية رغم ضعفها، ولكنه فعل ذلك، بعد انهيار الدولة الفاطمية التى كانت قد فقدت كل عوامل القوة، سعيا منه إلى تشكيل جبهة قوية موحدة تضم الشام ومصر حتى يتمكن من مواجهة القوى الصليبية. كما أنه أرسل أخاه الأكبر شمس الدين تورانشاه إلى اليمن التى فتحها مما جعل للدولة الأيوبية السيطرة على البحر الأحمر وكان لذلك أهمية بالغة لحماية شواطئ الحجاز وتأمين سلامة الحجاج الذين كان الصليبيون يعترضون سبيلهم.

والمعروف أن البرنس أرناط صاحب حصن الكرك كان من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين، وكان يقطع طريق القوافل بين مصر والشام، وقد حاصر صلاح الدين حصنه مرة بعد مرة حتى خضع وطلب الصلح، لكنه عاد فغدر بقافلة كبيرة واستولى عليها وأبى أن يستجيب لطلب صلاح الدين بإطلاق الأسرى والأموال، فنذر أن يقتله إذا ظفر به، خاصة لما روى عنه أنه قال للمسلمين وهم فى الأسر كلمة تتسم بالخسة المعهودة فى أمثاله ممن تخدعهم القوة حيث تحداهم بقوله: «خلّوا محمدكم يُخَلِّصكم». وقتل أرناط رجال القافلة غدراً رغم أنه كان فى صلح مع المسلمين.

ولم يكتف هذا الصليبى الحاقد بذلك ولكنه أراد اعتراض قوافل الحجاج، بل إنه أراد المسير إلى مكة والمدينة أقدس مقدسات الإسلام فى استخفاف يدل على وقاحة وجهل واستهتار(١).

ولهذا فإن صلاح الدين نذر مرتين أن يقتل أرناط الذى كان اسمه قبل حضوره إلى منطقة الشام رينو دى شاتيون، ثم أصبح اسمه الأمير أرنولد صاحب الكرك، وقد حُرِّف بالعربية ليصبح أرناط.. وقد قتله صلاح الدين فعلا بيده بعد أسره فى موقعة حطين.

وقعة حطين:

بلغ صلاح الدين أن الصليبيين جمعوا جموعهم فى مرج صفورية بأرض عكا، فسار إليهم، وكانت هذه المعركة الخالدة يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ عند تل حطين إلى جوار قرية حطين حيث قبر شعيب عليه السلام.

---

(١) البداية والنهاية: ج١٢ ص٣٧٩.

وأسر في هذه المعركة ملوك وأمراء الصليبيين وفي مقدمتهم الملك جيفرى والبرنس أرناط. وأحضر هؤلاء الأسرى إلى خيمة صلاح الدين الذى ناول الملك الصليبي ماءً ليشرب، فسقى منه أرناط، فقال صلاح الدين للمترجم: أن قل للملك: أنت الذى سقيته. وذلك لأنه كان من عادة العرب أن الأسير إذا أكل أو شرب لدى من أسره أمنَ.

وأحضر أرناط بين يدى صلاح الدين الذى ذكرَّه بأفعاله وأقواله المتغطرسة وقال له: ها أنذا أستنصر لمحمد عليه الصلاة والسلام.. ثم عرض عليه الإسلام، فأبى. وعندئذ قتله بيده، ثم سُحبت جثته ورميت على باب الخيمة.

فتح القدس:

إن الأحداث التى حفل بها عصر صلاح الدين أكثر من أن تحصى، ولكن أهمها هو فتح القدس بعد تمهيد الطريق إليها عقب انتصاره فى حطين وتوجيه ضربة قاصمة إلى القوى الصليبية أفقدتها التوازن وجعلتها تترنح على طريق النهاية رغم محاولاتها المستميتة إعادة الأمور إلى ما كانت عليه مثلما فعل ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد الذى طالب صلاح الدين برد كل البلاد التى استولى عليها حتى يوافق على الصلح معه ظناً منه أنه سيستطيع بهذه الحشود الهائلة بث الرعب فى قلب البطل الذى لقَّن أوروبا دروساً لا تستطيع أن تنساها حتى اليوم.

نعم.. لقد حانت ساعة تحرير القدس من قبضة الصليبيين.. ولئن كانت هناك أسباب دينية قوية وراء ذلك الهدف، فإن ذلك لا ينفى الأهمية الاستراتيجية للمدينة لوقوعها على الطريق بين مصر والشام، الأمر الذى يحول بين اتصال الولايات الخاضعة لحكم صلاح الدين.

وقد أشار إلى ذلك المؤرخ الكبير ابن الأثير حيث قال: «لما ملكَ صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما ،كان أمرُ عسقلان والقدس أهم عنده لأسباب منها: أنهما على طريق مصر.. وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل....»(١).

وبعد أن فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان سار إلى بيت المقدس التى حاصرها وضيقَّ عليها الخناق، فاتفق رأىُ من فيها على طلب الأمان وتسليم المدينة، وأرسلوا

---

(١) الكامل: ج١٠ ص ١٥٣.

جماعة منهم فى طلب الأمان، غير أن صلاح الدين الذى أراد أن ينتقم للمسلمين الذين قُتلوا عند احتلال بيت المقدس قال لهم: «لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢هـ من القتل والسبى ، وجزاءُ السيئة بمثلها».

لكن الصليبيين هددوا بتخريب الصخرة والمسجد الأقصى وقتل أسرى المسلمين عندهم وهم خمسة آلاف أسير.

ولهذا قبل صلاح الدين - بعد أن شاور أصحابه - طلب الصليبيين الأمان، وقد سلّموا المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ، ولكن المسلمين لم يستطيعوا صلاة الجمعة فى المسجد الأقصى فى ذلك اليوم لضيق الوقت. ولما كانت الجمعة التالية فى الرابع من شعبان صلى المسلمون الجمعة ومعهم صلاح الدين فى المسجد الأقصى حيث صلى فى قبة الصخرة وكان الخطيب والإمام محيى الدين بن الزكىّ قاضى دمشق(١). ثم أمر بإحضار المنبر الذى كان السلطان نور الدين محمود قد أعده فى حلب للمسجد الأقصى، وكان بين صنع هذا المنبر ونقله إلى بيت المقدس أكثر من عشرين سنة، وقد احترق هذا المنبر فى الحريق الذى تعرض له المسجد الأقصى فى سنة ١٩٦٩م.

أوروبا تحشد جيوشها

لمّا فتح صلاح الدين بيت المقدس بدأ ملوك ألمانيا وفرنسا وانجلترا يجمعون الجيوش فى محاولة لاسترداد المدن والمواقع التى خسروها وأهمها بيت المقدس..

وذكر ابن الأثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» أن الصليبيين لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم، وأن جماعة منهم توجهوا إلى أوروبا يطوفون فى أنحائها ويستنجدون بأهلها ويحثونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس.. وقد بلغ بهم التضليل حداً جعلهم يصورون المسيح عليه السلام ويصورون معه رجلا عربيا يضربه وجعلوا الدماء على صورة المسيح وأخذوا يقولون للناس: هذا هو المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله(٢).

وكان ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا هو القائد الكبير لهذه القوات، رغم وجود

(١) الكامل: ج١٠ ص ١٥٨.

(٢) المرجع السابق : ص ١٨٣.

فيليب أوجست ملك فرنسا معه، لكن الخلافات بينهم كانت تتوالى.

وكان ريتشارد مغتراً بقوته في البداية؛ حيث أراد أن يستعيد بيت المقدس وكل البلاد التي فتحها صلاح الدين حتى يقبل الصلح، وكأنه وضع الأساس لما يردده قادة الدولة الصهيونية اليوم عن «السلام مقابل السلام» بدل «الأرض مقابل السلام». ولكن صمود صلاح الدين جعل ريتشارد يخفف من غلوائه، حتى أنه عرض تزويج أخته من الملك العادل شقيق صلاح الدين، لكنها رفضت، ثم عاد وقال إنه بعث إلى البابا يسأله رأيه في ذلك. ثم انتهى الأمر بعقد هدنة سنة ٥٨٨ هـ بين المسلمين والصليبيين مدتها ثلاث سنين وثمانية أشهر.

وقال أحد قادة الفرنجة للسلطان صلاح الدين: «ما عمل أحدٌ في الإسلام ما عملتَ، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم في هذه المدة، فإننا أحصينا مَن خرج إلينا في البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلتهم أنت، وبعضهم مات، وبعضهم غرق»[١].

ولما تقرر أمر هذه الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج بزيارة بيت المقدس، فزاروه ثم تفرقوا عائدين إلى بلادهم.

ويقول إبن الأثير إن الذى أقام ملكا على الفرنج بالساحل الشامي هو كندهرى الذى كان خيِّر الطبع قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبًا لهم. كما قال إن كندهرى هو ابن أخت ملك فرنسا من أبيه، وهى أخت ملك انجلترا من أمه، وأنه عاش إلى سنة ٥٩٤هـ، وأنه كان عاقلاً كثير المداراة والاحتمال؛ حيث أرسل إلى صلاح الدين بعد رحيل ملك انجلترا يستعطفه ويستميله. وقد حدثت اتصالات وتبادلٌ للرسائل بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد الذى بعث برسالة إلى السلطان الناصر صلاح الدين يعلن فيها تمسكه بالقدس التي يرفض أى تنازل عنها، وقد رد عليه صلاح الدين قائلاً:

«القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم؛ فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهى أيضا لنا في الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف مَن كان بها من المسلمين في ذلك الوقت».

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٨.

وقد ذكر بهاء الدين بن شداد فى كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» أن ملك انجلترا الذى اقترح تزويج الملك العادل من أخته أراد بذلك التوصل إلى حل وسط تكون بمقتضاه البلاد للمسلمين والفرنجة معا، وذلك على أساس أن الملك ريتشارد قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والفرنجية لهما، فأما الفرنجية فلها من جانب أخيها، وأما الإسلامية فتكون للملك العادل من جانب أخيه السلطان[1].

ولكن – ريتشارد تراجع عن اقتراحه هذا فى آخر رسائله بقوله: «إن معاشر دين النصرانية أنكروا علىَّ وضع أختى تحت مسلم بدون مشورة البابا- وهو كبير دين النصرانية – وها أنذا أسيِّرُ إليه رسولا يعود فى ثلاثة أشهر، فإن أذن فبها ونعمت...».

***

(١) النوادر السلطانية «نصوص مختارة» ص ٣١٢.

صلاح الدين يحارب والخليفة يُعاتب!

نظرة سريعة فى التاريخ الإسلامى فى عصر صلاح الدين

لا يستطيع أحدٌ أن يمارى فى أهمية الدور الحاسم الذى قام به السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى تطهير هذه المنطقة العربية الإسلامية من الاحتلال الصليبى، وقد سلف الحديث عن فتحه بيت المقدس والحروب التى خاضها قبل هذا الفتح وبعده.

ولماً عاد صلاح الدين إلى دمشق بعد هذا الفتح المبين وبعد صلاة الجمعة المشهودة التى أقيمت يوم الرابع من شعبان سنة ٥٨٣هـ وألقى الخطبة فيها ابن الزكى القرشى وهو من سلالة ذى النورين الخليفة الثالث عثمان بن عفان، كتب الخليفة العباسى فى بغداد، وهو الناصر لدين الله الذى تولى الخلافة بعد موت أبيه المستضيئ سنة ٥٧٥ هـ إلى صلاح الدين يعتب عليه فى أمور منها أنه بعث إليه فى بشارة الفتح بموقعة حطين شابا بغداديا كان وضيعاً عندهم، وأرسل بفتح القدس مع شخص ضئيل القدر، كما أنه لقّب نفسه بالناصر مثل الخليفة.. وقد مرّ أن الخليفة الفاطمى العاضد هو الذى لقب صلاح الدين بلقب الملك الناصر بعد أن ولاّه الوزارة. وذكر ابن كثير أن صلاح الدين تلقّى ذلك العتاب بالبشر واللطف والسمع والطاعة، وأرسل يعتذر مما وقع وقال إن الحرب شغلته عن التروِّى فى كثير من ذلك، وأن لقبه الناصر يرجع إلى أيام الخليفة المستضىء، وتأدب مع الخليفة غاية الأدب رغم أنه كان فى غنى عنه(١).

إنه لأمر غريبٌ حقاً أن يُعنى الخليفة بهذه المسائل رغم أن صاحب الكرك المعروف بالبرنس أرناط عقد عزمه فى سنة ٥٧٧هـ - أى بعد أن تولى هذا الخليفة منصبه بعامين - على قصد تيماء من أرض الحجاز ليصل منها إلى المدينة المنورة، فقام صلاح الدين، الذى كان يراقب تحركات الصليبيين، بل كان يتابع نواياهم فى طوايا نفوسهم، بتجهيز سرية من دمشق لتكون حاجزا بين أرناط السفيه وبين الحجاز، مما يعنى أن الخلافة العباسية كانت عاجزة عن الدفاع عن الأراضى الحجازية، ولكن الخليفة كان مشغولاً بالمظاهر والألقاب، وذلك من علامات الضعف الذى يعترى كيان الدول عندما تقترب من النهاية.

---

(١) البداية والنهاية ج١٢ ص ٤٠٠.

لقد ظهر صلاح الدين فى عصر غريب؛ حيث شهد أفول شمس الدولة العلوية فى مصر، وكانت الدولة العباسية فى حالة ضعف شديد.. والحقُّ أنَّ صلاح الدين لم يكن مسئولا عن سقوط الدولة الفاطمية؛ لأن عوامل الضعف كانت قد تمكنت منها قبل وصوله إلى مصر مع عمه للدفاع عنها ضد الصليبيين فى إطار خطة نور الدين محمود لمواجهة القوى الصليبية فى كل مكان فى هذه المنطقة حتى أصبح ذكر نور الدين وذكر صلاح الدين من بعده يثير الرعب فى نفوس الصليبيين.

ونضيف من ناحية أخرى أن الطعن فى نسب الفاطميين كان يتم الترويج له لخدمة الخلافة العباسية، حيث توقف كثير من المؤرخين فى مسألة نسب الفاطميين؛ فبينما أوضح ابن خلدون أنهم حقا من سلالة الإمام على، يرفض ابن كثير ذلك رفضا قاطعا. ولكن الغريب أن الشريف الرضى الذى ولى نقابة الطالبيين بعد أبيه فى بغداد كتب فى عهد الخليفة العباسى القادر قصيدة يتمنى فيها أن يتوجه إلى مصر التى يحكمها الخليفة العلوى حيث قال:

ما مقامى على الهوان وعندى ... مقولٌ صارمٌ وأنفٌ حَمِىٌّ

ألبسُ الذى فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوىُّ

وقد انزعج الخليفة العباسى القادر عند سماعه بأمر هذه الأبيات، فأرسل إلى والد الشريف الرضى الذى سأل الرضىَّ فأنكر أنه قالها، ولكنه رفض أن يكتب أبياتا يذكر فيها أن الحاكم بمصر دَعِىٌّ ولا يمت بصلة إلى العلويين.

نقول إن صلاح الدين لم يكن يعنيه أمر هذا الخليفة أو ذاك، علويا كان أو عباسيا، سنياً كان أو شيعياً؛ لأنه هو الذى بادر بعد موت نور الدين محمود إلى توحيد مصر والشام لضعف أبناء نور الدين بحيث يمكن أن يتهمه من لا عقل له بالجحود.. ولكن الحقيقة هى أن هذا القائد العظيم لم يكن يعنيه إلا شىء واحد هو إنقاذ هذه المنطقة وإنقاذ مقدساتها فى الحجاز والشام من الخطر الصليبى، وقد رأينا أن أرناط السفيه كان يعترض سبيل الحجاج والقوافل، وأنه كان يستعد للهجوم على مكة والمدينة.. فهل كان هناك خطر على الإسلام أكبر من ذلك الخطر حتى يُشغل به صلاح الدين؟ هل كان عند صلاح الدين وقت ليُشغل فيه بصحة نسب العلويين أو العبيديين أو الفاطميين فى مصر؟ وهل كان لديه وقت ليفكر كثيرا فى اختيار لقب له لا يزعج الخليفة ولا يكدر صفوه؟.

وهناك واقعة تستحق الإشارة إليها هنا لأنها تغنى فى هذا المقام عن كثير من التأويلات .. لقد سبق الحديث عن الهدنة أو الصلح الذى تقرر بين صلاح الدين وبين ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد فى شعبان سنة ٥٨٨ هـ، وقد عاد بعدها صلاح الدين إلى القدس حيث رتب أحوالها وعزم على الحج فى ذلك العام، وكتب إلى الولاة على الحجاز واليمن ومصر والشام بذلك.. فماذا حدث؟ هل استطاع القائد المجاهد أن يحج فى عامه ذاك؟.. لقد كتب إليه القاضى الفاضل ينهاه عن ذلك خوفاً على البلاد من استيلاء الفرنج عليها، وأوضح أن النظر فى أحوال المسلمين خير له فى عامه هذا؛ لأن العدوّ لا يزال مخيما بالشام، وهم يهادنون ليمكروا ويغدروا.. وقد سمع صلاح الدين لنصح القاضى الفاضل وظل مقيما بالقدس طيلة شهر رمضان فى صيام وصلاة وتلاوة للقرآن(١).

إذن لم يكن صلاح الدين الأيوبى مستريحاً هادئ البال لكى يشغل نفسه بالصراعات الظاهرة أو الخفية بين الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة العلوية فى مصر والخلافة الأموية فى الأندلس. لكن القدر هو الذى تدخل عندما استنجد العاضد بالقائد المجاهد نور الدين محمود الذى أرسل إليه أسدَ الدين شيركوه وابنَ أخيه صلاح الدين الذى توجه إلى مصر وهو كاره لذلك.. إن الإرادة الإلهية كانت تتدخل لتعيد إلى مسيرة التاريخ شيئا من التوازن بعد أن التوت وانحرفت، ولم يعد هناك مَناصٌ من قيام شخصية فذة مثل صلاح الدين بدورها التاريخى فى تلك الظروف العصيبة.

لقد أراد صلاح الدين الاستفادة من كل القوى دون النظر إلى المذاهب فى مواجهة الصليبيين، ومما يدل على ذلك أنه لجأ إلى سنان مقدم الإسماعيلية - وهى طائفة شيعية انبثقت من الفاطميين - طالبا منه قتل ملك انجلترا أو المركيز صاحب صور الذى كان سببا فى تأليب أوروبا على صلاح الدين بعد موقعة حطين وفتح بيت المقدس. وقد وعد صلاح الدين بدفع عشرة آلاف دينار إلى سنان إذا نجح فى قتل المركيز، وقد تمكن سنان من ذلك بلجوئه إلى الحيلة، حيث أرسل اثنين من رجاله فى زى الرهبان وأقاما فى صور ستة أشهر يظهران العبادة حتى اطمأن إليهما المركيز الذى وثب عليه الباطنيان، مما أدى إلى قتله(٢).

---

(١) البداية والنهاية ج١٢ ص ٤٢٦.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٢١٣.

إذن لم يكن صلاح الدين مشغولا بتلك القضايا المذهبية التى ضيَّع المسلمون فيها كثيرا من الجهود بدلا من التصدى للأعداء. والحق أن مسألة الشيعة والسنة تعتبر من المسائل المثيرة والغريبة فى التاريخ الإسلامى؛ لأن الخلاف كان فى البداية بين الإمام على ومعاوية، لكن البعض رده بأثر رجعى ليكون بين على رضى الله عنه وبين كبار الصحابة مثل أبى بكر وعمر.. وهذا هو السبب الحقيقى فى تعميق الخلاف والغلو فيه.

وإننا لا نصدق أن علياً كان يبغض أبا بكر لأنه كان يعلم مكانته وهو الذى نزلت فيه الآية التى تتحدث عن هجرته مع الرسول عليه الصلاة السلام: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. كما أننا لا نصدق أن علياً كرم الله وجهه كان يبغض الفاروق عمر، وكيف يجوز ذلك وقد زوَّجه من ابنته أم كلثوم وهى بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنها؟! بل إن واحدا من أكبر أئمة آل البيت وهو الإمام جعفر الصادق كان ينتسب إلى الإمام على من جهة أبيه وإلى أبى بكر الصديق من جهة أمه، فهو سليل الاثنين معاً. ولذا فإنه عارٌ على المسلمين أن يضيعوا وقتهم فى أوهامٍ، والأعداء يحدقون بهم من كل جانب، وأحرى بهم أن يقرِّبوا بين هذه المذاهب وأن يجمعوا شتاتهم وأن يقبلوا على الحياة بفكر جديد وروح جديدة حتى يؤدوا دورهم الذى خُلقوا من أجله.

أما مسألة المركيز صاحب صور الذى قتله الباطنية باتفاق مع صلاح الدين، فإنها تدل على شدة الخطر الذى كان المسلمون يواجهونه فى تلك الأيام. فقد أخطأ صلاح الدين، كما يقول المؤرخ ابن الأثير، بسماحه للصليبيين بعد استسلامهم فى الحصون والمدن التى فتحها بالذهاب إلى صور التى أصبحت مركزا خطيرا للصليبيين لم يتمكن صلاح الدين من السيطرة عليه[1]. وكان هذا المركيز، كما يقول بهاء الدين بن شداد، من أعظم الصليبيين حيلة وأشدهم بأسا، وهو الذى قام بتأليب أوروبا التى أرسلت حشودها البحرية إلى الشرق العربى.

وقد لجأ هذا المركيز إلى حيلة يستفز بها مشاعر الأوروبيين، وذلك أنه صوَّر القدس

(١) الكامل: ج ١٠ ص ١٦٠ و١٧٧.

فى ورقة كبيرة وصوَّر عليها كنيسة القيامة وفيها قبر المسيح الذى صوَّر عليه جوادا فوقه فارس مسلم وقد وطئ قبر المسيح وقد بال الجواد على القبر. وقد نجحت حيلته فى تعبئة أعداد لا تحصى للمسارعة إلى الثأر من المسلمين[1].

ويقول ابن الأثير عن المركيز صاحب صور إنه كان رجل الفرنج رأيًا وشجاعةً، وإنه هو الذى أثار كل هذه الحروب، وذكر أنه كان من شياطين الإنس، حسن التدبير والحفظ وكان له الدور الأكبر فى منع سقوط صور فى قبضة صلاح الدين الذى يعتبر المسئول عن ذلك لسماحه للصليبيين بالتجمع فيها؛ حيث احتشد فيها فرسانهم وأخذوا يراسلون الفرنج فى أوروبا طلبا للمدد. وأوضح ابن الأثير أن صلاح الدين قد ضيع الحزم فى هذه المسألة وذكر أن «الملك لا ينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار فَلأنْ يعجزْ حازمًا خيرٌ له من أن يظفر مفرطًا مضيعا للحزم». وهذا يذكرنا بضرورة التمسك بمبدأ الشورى مهما كانت النتائج. مثلما حدث فى موقعة أحد عندما رأى النبى ﷺ انتظارَ المشركين داخل المدينة المنورة، بينما رأى الأنصار الخروج إليهم، وقد هُزم المسلمون فى أحد. ولكن التأمل فى ذلك سيظهر أن الهزيمة لم تكن بسبب خروج المسلمين إلى قريش خارج المدينة، وإنما بسبب خطأ الرماة الذين تركوا مواقعهم التى أمرهم النبى ﷺ بالثبات فيها.. ومن هنا يتضح أن مبدأ الشورى غير مسئول عن تلك الهزيمة.

ولقد انتقد ابن الأثير سيف الدولة الحمدانى الذى أبلى بلاءً حسنا فى قتال الروم لأنه لم يكن يطبق مبدأ الشورى.

وقد ندم صلاح الدين على سماحه للصليبيين بالتمركز فى صور بعد استسلامهم له فى الحصون والمدن التى استولى عليها من أيديهم، ولكنه استطاع أن يوجه إليهم ضربة خطيرة بقتله للمركيز بالاتفاق مع الباطنية.. ويعتبر ذلك من صفات القائد الذى لا يستسلم للواقع ويحاول تغييره بكل الوسائل معالجاً للثغرات ومسدداً للضربات.

وخلاصة القول فى ذلك الصراع الهائل الذى دار بين جيوش صلاح الدين وجيوش الصليبيين أن الطرفين توصلا معًا فى الصلح الذى تقرر مع ملك انجلترا ريتشارد قلب

---

(١) النوادر السلطانية: ص ٢٠٨.

الأسد إلى حق كل طرف فى الوصـول إلى أماكنه المقدسـة، وهو أمر لا يمكن بدونه أى حل لمشكلة القدس.

فاحـترام مقدسـات الآخرين أمر لا يمكن تجاهلـه إذا أريد التوصل إلى حل لمثل هذه المشكلة المعـقـدة. ولكن التـاريخ يشـهد بأن المسلـمين وحـدهم هم الذين كـفلوا حـرية الوصول إلى المقدسات لأصحـاب الأديان جميعا، ولقد شهد بذلك شاعر أسـبانى كبير فى مطلع القرن السادس عشر، وقد نشير إليه بإيجاز فيما بعد.

* * *

صلاح الدين
مع أصحاب النفوس الفاضلة فى الكوميديا الإلهية

ظهر صلاح الدين على المسرح العالمى فى القرن الثانى عشر الميلادى، وفى القرن الثالث عشر وُلد الشاعر الإيطالى دانتى صاحب الكوميديا الإلهية، وكانت له مواقف سياسية ضد البابوية، وقد كان يرى ضرورة الفصل بين السطلتين الامبراطورية والبابوية، حيث كانت النزاعات بينهما سببا لكثير من الاضطرابات فى أوروبا إلى درجة أن ملك فرنسا فيليب أوجست الذى شارك ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد فى الحرب الصليبية الثالثة كان يغبط صلاح الدين لأنه مستريح من البابوية التى لا وجود لها فى الإسلام كما هو معروف.

وكانت للشاعر دانتى كتابات أخرى مثل كتابه «عن الملكية» الذى أحرق بعد موته.

ويرى العلامة الفرنسى رينيه جينو فى دراسة خاصة عنوانها «باطنية دانتى» أن هذا الشاعر الإيطالى لم يكن مجرد عبقرية أدبية، لكن كتاباته كانت تحتمل عدة معان - كما نص على ذلك دانتى نفسه - حيث قال فى بعض شعره فى كتاب «الجحيم» من الكوميديا الإلهية:

«يا أصحاب النظر السليم

انظروا إلى الحقيقة الباطنة

وراء حجاب هذا الشعر الغريب».

أما هذه المعانى المختلفة فهى: المعنى الحرفى لشعره، ثم المعنى الفلسفى واللاهوتى، ثم المعنى السياسى والاجتماعى، وأما المعنى الرابع وهو أهمها جميعا فهو المعنى الميتافيزيقى[(١)].

وقد أشار دانتى إلى أنه أراد بالسموات العلوم، ولهذا فإن كتابه «الفردوس» حافل بقضايا سياسية ودينية وميتافيزيقية هامة يتناولها فى كل سماء.

---

(١) باطنية دانتى: ص ٨.

ولا شك -كما يقول جينو - أن دانتى تأثر بفلسفة فيثاغورس، وظهر ذلك فى ربطه بين الموسيقى والأعداد[1]، ويقرر بعد ذلك أن «سلسلة التراث» لم تنقطع من فيثاغورس إلى فرجيل، ومن فرجيل إلى دانتى فى أرض إيطاليا[2].

والمعروف أن دانتى اتخذ فى رحلته السماوية من الشاعر القديم فرجيل مرشدا له وقائدا، ولكنه كان قد فكر قبل ذلك فى أن يتخذ من أرسطو قائدا له فى هذه الرحلة ثم عدل عنه إلى فرجيل.

وقد ظهرت دراسات فى الغرب عن تأثر دانتى فى رحلته السماوية التى صاغها فى عمله الخالد «الكوميديا الإلهية» بالتراث العربى الإسلامى، خاصة فكرة الإسراء والمعراج وكتاب «الفتوحات المكية» لابن عربى.

ولقد كان دانتى من رؤساء جماعة متصوفة اسمها «أمناء الحب» كانت ترتبط بعلاقات بالجماعات الصوفية الإسلامية.

ويعنينا هنا أن نتحدث عن مكانة صلاح الدين فى الكوميديا الإلهية التى تعتبر عملا عميقا لا مجرد خيال أدبى يقرأ للمتعة العابرة.

لقد تحدث دانتى فى إشارة عابرة عن صلاح الدين فى النشيد الرابع من كتابه «الجحيم»، حيث وصف المكان بأنه «الدائرة الأولى، حيث النفوس الفاضلة التى لم تنل حظها من التعميد ولا تعانى أى ألم سوى الرغبة الأبدية الجارفة التى لا تتحقق إلا فى رؤية الله».

يقول دانتى:

«فى الدائرة الأولى التى تحدق بالهاوية

كل ما سمعته هناك

لم يكن بكاء وإنما مجرد تنهدات

تجعل الهواء الأبدى يرتعش

وكان مصدر ذلك عناء بدون عذاب

---

(١) المرجع السابق: ص١٥.

(٢) المرجع السابق: ص١٦.

يشعر به جمهور كبير
من الأطفال والنساء والرجال
وقال لى أستاذى: ألا تسأل
مَن هؤلاء الذين ترى؟
إننى أريد لك أن تعلم قبل المضى قُدُماً
أن هؤلاء لم تكن لهم خطيئة، ولو كانت لهم مزايا
فإن ذلك لا يكفى؛ لأنهم لم ينالوا حظ التعميد
وهو باب العقيدة التى تؤمن بها
وهم لم يعبدوا الله كما يجب
وإننى لواحدٌ مِن هؤلاء» (١).

إذن هؤلاء الذين فى هذه الدائرة الأولى القريبة من الهاوية والتى لا تعتبر فى الجحيم أصحاب نفوس فاضلة لكن بعضهم عاش قبل المسيح مثل الشاعر فرجيل أو بعده دون أن يتم تعميدهم.

وقد وصفهم دانتى بأنهم أناس موقرون عُزلوا عن سواهم، وفى طليعتهم الشعراء الأربعة الكبار: هوميروس، وهوراس، وأوفيد، ولوكان وقد ناقشهم أستاذه فرجيل الذى يعد خامس الشعراء الأقدمين فى العصر الكلاسيكى، بينما يعتبر دانتى نفسه الشاعر الكلاسيكى السادس حيث يقول: «وكنت السادسَ بين هؤلاء الحكماء».

وقد رأى دانتى فى رحلته قصرا منيفا محاطا بأسوار سبعة عالية. أما هذا القصر فإنه يرمز للفلسفة التى تمثل العقل الإنسانى دون النور الإلهى، والأسوار السبعة هى العلوم الفلسفية السبعة أو الصناعات السبع الشريفة.

وقد رأى دانتى هؤلاء الذين وصفهم بأنهم أصحاب نفوس كبيرة ومنهم إليكترا التى انحدر من سلالتها الرومان، وكاميلا وهى عذراء محاربة من شخصيات فرجيل، كما رأى قيصر.

(١) الكوميديا الإلهية (الجحيم) الترجمة الفرنسية ص ٤٩ ، ٥١ .

وبعد ذلك يقول دانتي:

«وهناك وحيدا بمعزل عن غيره رأيت صلاح الدين»[1] .

ثم رفعت عينيَّ قليلاً

فرأيت أستاذ الذين يُعلِّمون

جالسا بين أسرة الفلاسفة

وكلهم ينظر إليه في توقير واحترام

ولقد رأيت أولاً سقراط وأفلاطون

الذين سبقوا الآخرين في الجلوس قريبًا منه».

وهو يتحدث هنا عن أرسطو الذي يعتبره أستاذ الفلاسفة، كما ذكر أسماء فلاسفة آخرين مثل ديوجين وطاليس وزينون.

وبعد ذلك قال إنه رأى بين هذه الجماعة من الحكماء والقادة والكبراء:

«أبقراط، وابن سينا، وجالينوس، وابن رشد الذي كان الشارح الأكبر».

وإنا لنرى هنا مدى تأثير الثقافة العربية الإسلامية وتغلغلها في أوروبا في ذلك العصر.. وهكذا وضع دانتي صلاح الدين بجوار أرسطو وطائفة من كبار الحكماء الذين كان منهم سقراط وأفلاطون وابن سينا وابن رشد.

ويدل ذلك على المكانة التي اكتسبها صلاح الدين في فترة وجيزة؛ حيث أن دانتي وُلد في القرن الثالث عشر، أي بعد عصر صلاح الدين بأقل من مائة عام.

* * *

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥ .

القدس
بين الملك الكامل والإمبراطور فريدريك الثانى

يمكن القول إن الحكم فى الدولة الأيوبية قد انتهى بعد رحيل صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل وأبنائه، وذلك بعد أن حكم أبناء صلاح الدين بضع سنوات فى مناطق متفرقة.

ودليل ذلك أن ابن الأثير حين تحدث عن الملك الأفضل على بن صلاح الدين فى سنة ٦٢٢هـ أشار إلى أنه كان قد ملك مدينة دمشق وبيت المقدس وغيرهما من الشام عند وفاة والده سنة ٥٨٩هـ ثم أخذ ذلك كله سنة ٥٩٢هـ. وكان ابن الأثير قد أشار عند حديثه عن وفاة الملك العادل سنة ٦١٥هـ إلى أن الأفضل لم يملك مملكة قط إلا أخذها منه عمه العادل، والأعجب من ذلك أن ابن الأثير ذكر أنه رأى فى بيت المقدس سارية من الرخام ملقاة فى بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذى فى البيعة: إن الملك الأفضل كان قد أخذها لينقلها إلى دمشق، ولكن العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل الذى اجتمع فيه من الفضائل والمناقب ما تفرق فى كثير من الملوك كما يقول صاحب «الكامل فى التاريخ»[1].

والمعروف أن الملك العادل قام بدور سياسى كبير فى عهد أخيه صلاح الدين؛ حيث كان يتردد بالرسائل بينه وبين ريتشارد قلب الأسد، وكان يوصف بأنه عاقل ذو رأى سديد ومكر شديد.

وكان الملك العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أبنائه حيث كان الملك الكامل محمد فى مصر، والملك المعظم عيسى فى دمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك، بينما كان ابنه الملك الأشرف موسى فى بعض ديار الجزيرة.

ولقد اتفقوا ولم يجر بينهم من الاختلاف ما كان يجرى بين أبناء الملوك، بل إنهم كانوا كالنفس الواحدة كما يقول ابن الأثير الذى أبدى إعجابه بهم بقوله :«ولعمرى إنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام»[2].

إن المعارك الخالدة التى خاضها صلاح الدين لم تستأصل شأفة الصليبيين فى بلاد

(١) الكامل : ج١٠ ص ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٤٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٤.

الشام، بل إنهم كانوا يلتقطون أنفاسهم ثم يجمعون جموعهم للهجوم على المسلمين هنا وهناك، وكان من أكبر تلك الحوادث تدفق جموع الصليبيين من أوروبا بأوامر من البابا إلى عكا حيث منعهم الملك المعظم عيسى فى حياة أبيه الملك العادل من الوصول إلى بيت المقدس، ثم ساروا فى البحر إلى دمياط التى سيطروا عليها فى سنة ٦١٥هـ، وفى تلك الأثناء توفى الملك العادل مما أشاع نوعا من الضعف فى نفوس المسلمين بالإضافة إلى مؤامرة ابن المشطوب الذى يقول ابن الأثير إنه كان أكبر أمير فى مصر، حيث اتفق مع غيره من الأمراء على خلع الملك الكامل، وفى تلك الظروف العصيبة خشى الملك المعظم صاحب دمشق أن يهجم الصليبيون على بيت المقدس فخرَّب حصونها حتى لا يحتموا فيها إن استطاعوا دخولها، واجتمعت كلمة الإخوة الثلاثة أبناء العادل على مواجهة الصليبيين فى دمياط، خاصة بعد أن جرت اتصالات بين الفريقين من أجل الصلح عرض فيها المسلمون تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين، ما عدا الكرك، ليسلموا دمياط، فلم يقبلوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار وقالوا لا بد من الكرك.

وعندئذ اضطر المسلمون إلى قتالهم فهُزموا هزيمة منكرة، وطلبوا الأمان ليسلموا دمياط فى سنة ٦١٨هـ مما يعنى أن المواجهة فى دمياط استمرت أربع سنوات.

إن ما حدث فى دمياط حيث رفض الصليبيون الانسحاب منها مقابل تسليم القدس ومدن هامة أخرى إليهم ليدل على أهمية مصر ودورها الحاسم فى هذه المنطقة، وهو دور إن جهله بعض أبنائها أحيانا فإن الأعداء لا يجهلونه.. وربما كان احتلال مصر فى القرن التاسع عشر تمهيدا لاحتلال فلسطين واغتصاب أرضها وتشريد شعبها الذى ما زال أبناؤه يعيشون لاجئين ويُمنعون من حق العودة إلى بلادهم التى مُنح اليهود - فى كل مكان وزمان - «حق العودة» إليها باسم أساطير واهية يدرك كثير من اليهود أنها مجرد أساطير.

ومن النقاط الهامة فى حوادث دمياط أن تلك الوقفة الموحدة لأبناء الملك العادل كانت السبب الأقوى فى هزيمة القوى الصليبية التى ارتدت على أعقابها. وما كانت لترتد لولا قوة الضربات التى تلقتها؛ لأن مثل هذه القوى لا تفهم إلا لغة القوة ولا يجدى معها أى حوار وإن وهمَ الواهمون.

وسوف نرى بعد حين أن التفرق بين الملوك والساسة العرب يكون سببا لتقديم

تنازلات لأعدائهم، رغم أنهم لا يتبادلون فيما بينهم وهم أبناء أمة واحدة مثل هذه التنازلات.

لقد كان الملك الكامل الذى سمح للإمبراطور فريدريك الثانى بدخول القدس فى موقف لا يشعر فيه بالأمن بسبب بعض الخلافات داخل البيت الأيوبى ثم بسبب غضب الخليفة فى بغداد لأن ابن الكامل الذى كان يحكم اليمن أساء معاملة أمير الحجاج القادمين من العراق فى مكة، حيث ذكر ابن الأثير أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله كان قد استوحش من الكامل فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما، ولهذا راسل الخليفة مظفر الدين كوكبرى صاحب اربل لعلمه بسوء علاقته مع الأشرف، واتفقا معًا على مراسلة الملك المعظم صاحب دمشق للوقيعة بينه وبين أخويه الكامل والأشرف[1].

يضاف إلى ذلك أن الأشرف شعر بالخوف من مجاورة جلال الدين خوارزمشهاه، فسار من مصر إلى دمشق حيث صالح أخاه المعظم، فكان ذلك سببا لخوف الكامل من اتفاقهما عليه، وكان ذلك فى سنة ٦٢٣هـ[2].

لقد حدث هذا والمسلمون محاصرون بين التتر الذين أقبلوا من المشرق وبين الصليبيين الذين أقبلوا من المغرب.

ولهذا فإن الملك الكامل كان يتعامل مع الإمبراطور فريدريك الثانى فى ظل هذه الخلافات والانقسامات المذهبية والسياسية بين المسلمين.

ويبدو أن اتفاق صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد على السماح للأوروبيين بزيارة الأماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس كان ماثلا فى ذهن الملك الكامل عندما توصل إلى اتفاقه مع فريدريك الثانى الذى كانت له مصلحة كبيرة فى ذلك الاتفاق بسبب غضب السلطة البابوية عليه وسعيها إلى إحراجه بكل سبيل.

ونظرا لأهمية ذلك الحدث حيث كان ذلك الامبراطور شخصية غير عادية فى ذلك العصر بسبب ميله للثقافة العربية وشغفه بالعلوم والبحوث الفلسفية، فإن تلك الوقائع تستحق الحديث عنها بشىء من التفصيل. وقد يحسن فى البداية ذكر شىء عن ثقافة الطرفين؛ لأن أولئك الملوك لم يكونوا مجرد قادة عسكريين، بل كانت الثقافة تحتل فى حياتهم مكانة هامة.

---

(١) الكامل : ج١٠ ص ٤٦٨. (٢) المرجع السابق ص ٤٦٩.

ثقافة ملوك الشرق:

نبدأ بالحديث عن اهتمام الأيوبيين بالثقافة رغم أعبائهم الجسام فى تلك الفترة التى لم يهدأ فيها الصراع بينهم وبين الصليبيين.

فقد ذكر بهاء الدين بن شداد مؤرخ صلاح الدين فى كتابه «النوادر السلطانية» أن صلاح الدين كان مطّلعا على أنساب العرب ووقائعهم، عارفًا بسيرهم وأحوالهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد جليسه منه ما لا يستفيده من غيره كما أنه كان حافظا لأنساب الخيل وهو أمر مناسب جدا للفارس المقاتل.

ويقول ابن شداد إنه كان يقرأ مع السلطان شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه وهو فى مرج عيون قبل هجوم الصليبيين على عكا.

كما قال ابن شداد إن الناس كانوا يتقربون إلى صلاح الدين بذكر الجهاد؛ حيث أُلفت عدة كتب فى ذلك، وكان ابن شداد ممن ألف له فيه كتابا جمع فيه آدابه وكل آية وردت فيه، وكل حديث روى فيه، وكان صلاح الدين كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل[1]. وكان صلاح الدين مواظبا على تلاوة القرآن الكريم عاملا به عالما بما فيه.

أما الملك الأفضل على بن الناصر صلاح الدين فقد وصفه المؤرخون بأنه كان فاضلا متأدبا حليما عادلا، لكنه كان قليل الحظ والسعادة جدا مثل كثير من أهل الفضل.

وذكر ابن واصل فى كتابه «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» أن الملك الأفضل لم تنتظم له حال منذ وفاة والده صلاح الدين وأنه مات كمدا. ويقول هذا المؤرخ الذى كان على صلة وثيقة بالأيوبيين إن الأفضل كان شاعرا وإن شعره حسن.

وكان الأفضل أكبر أولاد صلاح الدين، وقيل إن وزيره ضياء الدين بن الأثير صاحب «المثل السائر» هو الذى كان سببا فى اضطراب أحواله لأنه نصحه بالتخلص من كبار أمراء أبيه، فانفضوا من حوله لخدمة أخيه الملك العزيز فى مصر.

ومن أمراء الأيوبيين الذين اشتهروا بحب الأدب والعلوم الملك المنصور صاحب حماة، وهو ابن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب؛ فقد كان يحب العلماء والفضلاء وأهل الأدب والشعر، وقد بنى المنصور للآمدى الذى كان إماما فى علوم الكلام وأصول الفقه والمنطق مدرسة فى حماة وكان يحرص على حضور مجلسه.

(١) االنوادر السلطانية: ص٢٣.

بل إن الملك المنصور الذى جمع فى مكتبته كثيرا من الكتب التى كان يطالع فيها كثيرا لم يكتف بذلك حيث صنَّف عدداً من المؤلفات منها كتاب فى طبقات الشعراء وكتاب فى التاريخ عنوانه «مضمار الحقائق وسر الخلائق».. وكانت له أشعار جُمعت فى ديوان.

أما الملك الأمجد صاحب بعلبك الذى كان السلطان صلاح الدين عم أبيه، فقد كان فاضلا متأدبا، يقول الشعر الجيد وله ديوان شعر، ولم يكن فى بنى أيوب أشعر منه، وقد قتله مملوك له سنة ٦٢٧هـ.

أبناء العادل:

وكان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ملكا جليلا شجاعا مقداما شديد البأس مهيبا،كما يصفه ابن واصل، الذى ذكر أنه كان قليل التكلف، حيث رآه فى سنة ٦٢٣ فى بيت المقدس والناس يزاحمونه بالمسجد الأقصى ولا يردهم أحد عنه.

ويصف المؤرخون الملك المعظم بأنه كان عالما فاضلا متفننا فى النحو والفقه. ويقول ابن واصل إنه اطلع على نسخة من كتاب سيبويه وعليها خط الملك المعظم فى عدة مواضع يقول فى بعضها :«أتممت هذا الكتاب مطالعةً ومراجعة وأنا منازل مدينة أرسوف».

وكان ملوك بنى أيوب من الشافعية، بينما انتسب الملك المعظم إلى المذهب الحنفى، بل إنه كان شديد التعصب لمذهب أبى حنيفة حتى أنه عزل خطيب المسجد الأقصى وكان شافعيا وولى مكانه رجلا حنفيا. ولما قرأ الملك المعظم كتاب الخطيب صاحب تاريخ بغداد الذى أورد فيه مطاعن على أبى حنيفة صنف كتابا للدفاع عنه. وعنوانه «السهم المصيب فى الرد على الخطيب»[1].

ونود أن نشير هنا إلى أن هذا المستوى الثقافى الذى ارتقى إليه الأيوبيون كان سببا فيما عرف عنهم من رقى فى التعامل مع الأصدقاء والأعداء على السواء.

وهنا يمكن الإشارة سريعا إلى الملك الأشرف بن الملك العادل الذى عرف بالسخاء، وكان يميل إلى أهل الصلاح والعلم، ويمقت الفتن والتعصب، حيث وقعت فى دمشق فتنة بين الشافعية والحنابلة وقيل إن الشيخ عز الدين بن عبد السلام تعصب فيها على الحنابلة لميله إلى مذهب أبى الحسن الأشعرى، وحاول عز الدين إيذاء الحنابلة وإغراء

(١) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب: ج ٤ ص ٢١٢.

الملك الأشرف بهم، لكنه أبى ورد عليه قائلا: «يا عز الدين الفتنة نائمة فلعن الله مثيرها».

وقد بنى الملك الأشرف فى دمشق دار الحديث النبوى ووقف عليها وقفا جليلا، وكان يلقى دروسه فيها الشيخ العلامة تقى الدين بن الصلاح.

ثقافة الملك الكامل:

وحيث إن هذه الصفحات تتناول بصفة خاصة علاقة الملك الكامل بن الملك العادل بالامبراطور فريدريك الثانى امبراطور ألمانيا وصاحب صقلية، فإنه يحسن البدء بالحديث بشىء من التفصيل عن ثقافة الكامل قبل الانتقال إلى الحديث عن الامبراطور والاتفاق الذى توصل إليه الطرفان بشأن القدس.

ذكر ابن واصل فى كتابه «مفرج الكروب» أن الملك الكامل حكم مصر عشرين سنة نائبا عن أبيه، وحكمها مستقلا بعد موت العادل عشرين سنة؛ أى أنه حكمها أربعين سنة نائبا ومستقلا، وأشبه فى ذلك معاوية بن أبى سفيان الذى حكم الشام واليا نحو عشرين سنة وحكمها خليفة نحو عشرين سنة[١].

وكان الملك الكامل ملكا جليلا حازما مهيبا، وذكر ابن كثير أنه مات فى دمشق فى نفس البيت الذى مات فيه عمه الملك الناصر صلاح الدين وأن أحدا لم يكن يدخل عليه فى مرضه لهيبته حتى دخلوا عليه وقد مات ولم يكن أحد معه.

وكان الكامل جيد الفهم يحب العلماء ويسألهم أسئلة مشكلة، وكان شاعرا، وقد أورد ابن كثير أبياتا له يستحث فيها أخاه الأشرف على نجدته أثناء حصار دمياط، ويشرح له خطورة الموقف ويقول فيها:

يا مسعفى إن كنتَ حقا مسعفى ... فارحل بغير تَقَيُّد وتَوَقُّفِ
واطْوِ المنازل والديار ولا تُنِخْ ... إلا على باب المليك الأشرف
قَبِّلْ يديه لا عدمت وقل له ... عنى بحسن تعطف وتلطف:
إن مات صنوك عن قريب تلقَهُ ... ما بين حَدِّ مهنَّد ومثقَّف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه ... يوم القيامة فى عراص الموقف[٢]

بينما يقول ابن واصل الذى كان معاصرا للملك الكامل: إن الكامل كان محبا

(١) مفرج الكروب: ج ٥ ص ١٥٥.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ١٧٤.

للعلماء ومجالستهم وسماع مناظراتهم، وكان يلقى على الفقهاء والنحاة مسائل غريبة من الفقه والنحو يمتحن بها علومهم، فمن أجاب الجواب الصحيح حظى عنده وقرّبه.

وقد وفد إليه جماعة من العلماء فأكرمهم، ومنهم الشيخ تاج الدين الأرموى، وكان إمامًا فى الأصول، ومنهم أفضل الدين الخونجى الذى سأله الملك الكامل فى مسألتين فى الطب فأخطأ فيهما فانحطت منزلته عنده(١).

وكان الملك الكامل شغوفا بسماع الأحاديث النبوية ويعنى كثيرا بحملة الحديث ومنهم ابن دحية الذى بنى له دار الحديث فى مصر وجعله شيخها.

وكان الكامل يأنس فى لياليه ببعض الأدباء والفقهاء، وكان من هؤلاء الأمير صلاح الدين بن شعبان الإربلى الذى كان ينظم الشعر، وكان الكامل قد أوفده رسولا إلى الامبراطور فريدريك الثانى وهو فى عكا سنة ٦٢٦هـ لتقرير قواعد الصلح حيث حلف له الامبراطور، فكتب إلى الكامل يقول:

زعم اللعين الأنبرور بأنه ... سلمٌ يدومُ لنا على أقواله

شرب اليمينَ فإن تعرَّض ناكثا ... فلنأكلن لذاك لحم شماله(٢)

وذكر ابن واصل أن الملك الكامل كان يمتحن العلماء، وأن ابن دحية رغم معرفته وحفظه للكثير من الأحاديث كان متهما بالمجازفة فى النقل، وقد امتحنه الكامل بأن طلب منه أن يعلق شيئا على كتاب الشهاب المنسوب للقضاعى، فعلق عليه كتابا طعن على بعض الأحاديث التى فيه، وصحح البعض، ولما وقف الكامل على ذلك قال له بعد حين: «قد ضاع منى ذلك الكتاب فعلّق لى مثله» ففعل ولم يكن عنده مسودة الكتاب الأول، فجاء فى الكتاب الثانى بما يناقض ما جاء فى الأول فعلم الكامل صحة ما قيل عنه، فنزلت مكانته عنده وعزله من مشيخة دار الحديث(٣).

ثقافة الامبراطور فريدريك الثانى:

ولد فريدريك الثانى فى عام ١١٩٤ وهو من أسرة هوهونشتاوفن الجرمانية التى حكمت الامبراطورية الرومانية المقدسة منذ عام ١١٣٨ وكان أول حكامها كونراد الثالث ثم فريدريك بربروس الذى غرق فى الحملة الصليبية الثالثة، ثم هنرى الرابع

---

(١) مفرج الكروب ج ٥ ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦. وكلمة الانبرور empereur تعنى الامبراطور.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٧.

وجاء بعده ابنه فريدريك الثانى الذى ورث الامبراطورية الجرمانية عن أبيه، وورث حكم صقلية عن جده لأمه روجر الثانى الذى كان أول ملوك هذه الجزيرة بعد أن فتحها النورمانديون.

وكان العرب قد فتحوا صقلية فى القرن التاسع الميلادى، وظلوا فيها نحو ٢٥٠ عاما، ولما فتحها النورمانديون كان تأثير الإسلام فيها واضحا جليا بحيث تعايش معه فاتحوها الجدد.

وقيل إنه كان فى صقلية نحو ثلاثمائة مسجد. وروجر الثانى هو الذى طلب من الإدريسى رسم خريطة للعالم وقد أنجز عمله هذا فى سنة ١١٥٤م.

وفى بالرمو عاصمة صقلية شب فريدريك الثانى الذى تقول عنه الكاتبة الألمانية زيجريد هونكة فى كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» إنه كان يشبه الخلفاء العرب، وأشارت إلى أن المؤرخ السويسرى جاكوب بوركهاردت كان يعتبر فريدريك الثانى أول أمراء النهضة الأوروبية[1].

وقد نشأ فريدريك يتيما وعاش فى بيوت عربية وتعلم تسع لغات منها العربية التى أجادها،كما كان شغوفا بقراءة الفلسفة العربية، وظهر فيه ميل إلى كل ما هو عربى.

ولقد كانت صقلية مركزا لانتقال التأثير العربى الإسلامى إلى أوروبا، ودورها فى ذلك معروف إلى جانب دور الأندلس.

وقد نهل الامبراطور فريدريك الثانى من الثقافة العربية التى كانت من أهم المصادر الفكرية التى كونت ثقافته.

ومن المعروف فى تاريخ الفلسفة الإسلامية أن انتقال فلسفة ابن رشد إلى اللاتين بدأ أول مرة فى صقلية على يد المترجم الاسكتلندى ميخائيل سكوت الذى أقام سنوات فى الأندلس، حيث ترجم بعض شروح ابن رشد لأعمال أرسطو، ثم توجه إلى بلاط الامبراطور الذى تلقاه بالترحيب. وكان فى بلاط فريدريك الثانى شخصية أخرى من الذين فتنوا بابن رشد وهو الكونت توما الأكوينى وهو عم القديس توما الأكوينى صاحب التأثير المعروف فى المسيحية. وحرص الامبراطور على نقل ترجمات سكوت لبعض مؤلفات ابن رشد إلى الجامعات الأوروبية، وبذلك كان بلاطه رأس جسر انتقلت عليه الفلسفة العربية إلى الغرب.

---

(١) شمس الله تسطع على الغرب «الترجمة الفرنسية» ص ٢٧٢.

وقد أشار ارنست رينان فى حديثه عن تأثير فلسفة ابن رشد فى الفلسفة المدرسية إلى أن ميخائيل سكوت كان أول من قدم ابن رشد إلى اللاتين، حيث قام بهذه الترجمات فى مدينة طليطلة مما جعله يحظى بالاهتمام فى بلاط فريدريك الثانى[1].

كما تحدث رينان عن مترجم آخر للفلسفة الإسلامية وهو هرمان الألمانى الذى كان يعمل فى خدمة مانفريد الذى حكم صقلية بعد موت أبيه فريدريك الثانى[2].

ومن الطريف أن رينان خص الامبراطور فريدريك الثانى بعدة صفحات فى كتابه عن «فلسفة ابن رشد»، حيث تحدث عن ميله إلى العرب وقال إن فكرة الحضارة بأحدث معانيها سيطرت عليه، وكان يريد بها الرقى فى الطبيعة الإنسانية، ويرى رينان أن فريدريك الثانى كان أرفع شأنا من شارلمان لكنه اصطدم بعقبة يصعب اجتيازها وهى المؤسسات الدينية فى عصره.

وذكر رينان أن الامبراطور كان لديه شغف كبير بالمعرفة، كما كان له عقل تحليلى ومعارف كثيرة تثير الدهشة.

ويقول رينان إن بلاط فريدريك وابنه مانفريد كان مركزا نشطا للثقافة العربية والتسامح الدينى.. وكان فريدريك يجيد العربية، وقد تعلم فن الجدل من مسلم فى صقلية. ولقد وصل الأمر بسبب هذه العلاقات الوثيقة بين الامبراطور والعلماء المسلمين إلى انتشار شائعة عن حياة أبناء الفيلسوف ابن رشد فى بلاد فريدريك الثانى.. ولكن ذلك كان مجرد شائعة[3].

المسائل الصقلية:

وفى حياة فريدريك الثانى واقعة تذكر فى تاريخ الفلسفة الإسلامية؛ وهى تلك الأسئلة الأربعة التى بعث بها إلى أقطار إسلامية مختلفة فلم يتلق عنها جوابا يرضيه، فما كان منه إلا أن بعث بها إلى سلطان الموحدين الذى نقلها إلى المتصوف المتفلسف عبد الحق بن سبعين الذى رد عليها بإجابات نالت إعجاب الامبراطور فأرسل هدية إلى ابن سبعين، لكنه اعتذر عن قبولها لأنه رد على هذه الأسئلة انتصارا للملة الإسلامية حسبما قال.

وتتعلق الأسئلة الأربعة بِقدَم العالمَ، والمقولات العشر، وما وراء الطبيعة، وطبيعة

(١) ابن رشد والرشدية ص ١٦٧، ١٧٠ (٢) المرجع السابق ص ١٧١.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٣ حتى ص ٢٢٧.

النفس. وقد اكتشف المستشرق الإيطالى إمزى هذه المراسلات التى دارت بين فريدريك الثانى وابن سبعين فى مخطوطة فى أكسفورد عام ١٨٥٣م.

كما أشار إليها ابن سبعين فى بعض مؤلفاته تحت عنوان «جواب صاحب صقلية» وقد أشار هنرى كوربان فى الجزء الثانى من كتابه «تاريخ الفلسفة الإسلامية» إلى تلك المراسلات قائلا إنها كانت سببا فى اشتهار ابن سبعين فى الغرب. وأوضح كوربان أن الامبراطور ألحق بسؤاله عن طبيعة النفس سؤالا عن الخلافات بين أرسطو وشارحه الكسندر الأفروديسى حول هذه المسألة.

وقد ذكرت الكاتبة الألمانية هونكه أن فريدريك كان حريصا على إرسال أسئلة ومشكلات علمية إلى المسلمين طالبا حلها، وكان ذلك يبدو وكأنه نوع من الامتحان.. وقد بعث بمشكلة رياضية إلى الملك الكامل الذى بعث بها إلى عالم عصره كمال الدين بن يونس فى الموصل.. وتلخص سؤال الامبراطور فيما يلى:

«لنفرض أن هناك قوسا يُشد حبله وعلى امتداده يُرسم مربع يجب أن تكون مساحته مساوية لمساحة دائرة القوس».

وقد أورد عديدا من هذه الأسئلة شهاب الدين القرافى الذى كان من كبار فقهاء القاهرة فى بعض مؤلفاته(١).

* * *

(١) شمس الله تسطع علي الغرب: ص ٢٩٦.

فريدريك الثانى فى القدس

لقد سبقت الإشارة إلى بعض الخلافات التى ظهرت بين الملك الكامل وبعض إخوته، ولا شك أنه كان لذلك تأثير فى موقفه من الامبراطور حين وصوله إلى المنطقة، كما أن فريدريك الثانى كان يعانى الكثير من سخط السلطة البابوية عليه، ولم يكن يستطيع إرضاءها بسبب ضيق أفق تلك السلطة.. ويكفى أن نعلم بعد ذلك أن الشاعر الإيطالى دانتى عاش فى المنفى وطرد من بلده فلورنسا بسبب سخط البابا عليه، وقد تناول ذلك فى عمله الخالد «الكوميديا الإلهية».

أما فريدريك الثانى فكان يرى أنه مسيحى صادق الإيمان وأنه أفضل من البابوات «هؤلاء الذئاب المتنكرين فى صورة الحملان».

لقد تم توقيع الاتفاق بين الملك الكامل وفريدريك الثانى يوم ١٨ فبراير سنة ١٢٢٩م واعتبر ذلك بمثابة محاولة للمصالحة بين الشرق والغرب. وقد رفض فريدريك أن يخوض قتالا مع المسلمين، لكنه طلب من الملك الكامل أن ينقذ «مكانته فى الغرب».. وحيث أن الكامل كان على علم بأدق تفاصيل الخلافات بين الامبراطور والبابا فإنه تأثر بهذه الحجة، بالإضافة إلى سوء وضعه العسكرى فى سوريا (١).

وقد أقسم الملك الكامل على الوفاء بما تم الاتفاق عليه أمام هرمان فون سالزا رئيس فرسان التيوتون والكونت توما الأكوينى.. بينما كان فريدريك الثانى يقسم على ذلك الاتفاق فى معسكره فى يافا أمام الأمير فخر الدين مبعوث الملك الكامل. وقد أبلغ مبعوث الامبراطور البابا فى ليون بأن «صداقته مع الأمراء العرب حالت دون إراقة الدم المسيحى بغير جدوى» (٢). ولكن هيهات أن يرضى البابا وهو جريجورى التاسع الذى يقال إنه أمر رؤساء فرسان الهيكل والاسبتالية بإبلاغ رسالة سرية إلى الملك الكامل يخبرونه فيها بأن الامبراطور سيتوجه مع قليل من الحراس فى ساعة معلومة إلى مكان تعميد المسيح عند نهر الأردن، اعتقاداً منهم أن السلطان سوف يغتنم هذه الفرصة ويقتل الامبراطور.. ولكن الكامل بعث بهذه الرسالة السرية إلى فريدريك الثانى وعليها خاتم رئيس فرسان الهيكل (٣).. ولقن بذلك الصليبيين درساً فى الأخلاق كذلك الذى لقنه

---

(١) شمس الله تسطع على الغرب : ص ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٧٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٧١ .

لهم عمه صلاح الدين من قبل.

وتقول زيجريد هونكه إن الكنيسة اغتنمت كل فرصة لهدم نجاح الامبراطور، وذلك أنه عندما تسلم مفاتيح مدينة يافا من مندوب السلطان وشرع فى دخول المدينة مع رجاله فى الشوارع التى هجرها المسلمون، فرض رئيس أساقفة قيصرية الحرمان على يافا بحيث منع إقامة أى قداس فى كنائسها، كما حرض القساوسة فى الجيش على التمرد [(١)].

ويرجع ذلك إلى أن هذا التعايش الذى يعنى المساواة فى الحقوق بين المسيحيين والمسلمين فى القدس كان تحديا للروح الصليبية القديمة التى ترى الكنيسة أنها مطالبة بالدفاع عنها كما تقول هونكه.

وقد تحدث ابن الأثير عن خروج الامبراطور من صقلية ومعه جموع كثيرة إلى ساحل الشام، وأن الصليبيين طمعوا فى بيت المقدس بعد موت الملك المعظم بن العادل صاحب دمشق، وكان الملك الكامل صاحب مصر قد سار إلى الشام بعد موت أخيه المعظم، وهناك التقى معه أخوه الأشرف وترددت الرسل بينهما وبين الامبراطور، واستقر الرأى على تسليم بيت المقدس إليه صلحاً، وأوضح ابن الأثير أن المسلمين استعظموا ذلك ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه [(٢)].

أما ابن كثير فقد أورد حادثة تسليم بيت المقدس إلى الامبراطور فى حوادث سنة ٦٢٦هـ التى قال إنها بدأت وملوك بنى أيوب مفترقون مختلفون قد صاروا أحزاباً وفرقاً، وأن الصليبيين قد قويت نفوسهم بكثرة من وفَدَ إليهم من البحر وكذلك بموت الملك المعظم واختلاف من بعده من الملوك، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما أخذه صلاح الدين منهم، فتم الاتفاق على تسليم بيت المقدس إليهم، فعظم ذلك على المسلمين جداً [(٣)].

ولا شك أن ما ذكره ابن واصل الذى عاصر تلك الواقعة فى كتابه «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» يعتبر أدق مما ذكره غيره، بالإضافة إلى التفاصيل التى يوردها عن تلك الحوادث، فقد أشار فى حوادث سنة ٦٢٥هـ إلى قدوم الامبراطور إلى عكا فى

---

(١) شمس الله تسطع على الغرب: ص ٢٧١ .

(٢) الكامل جـ ١٠، ص ٤٨١ .

(٣) البداية والنهاية : جـ١٣ ، ص ١٤٤ .

جموع كثيرة وذلك بناء على طلب صريح من الملك الكامل الذى تخوف من اتفاق أخيه الملك المعظم مع سلطان العجم جلال الدين خوارزمشاه، فأرسل الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى الامبراطور فريدريك صاحب صقلية فى سنة ٦٢٤هـ يطلب منه القدوم إلى عكا ووعده أن يعطيه بيت المقدس، وقصد الكامل بذلك أن يشغل الملك المعظم حتى يرغمه على الدخول فى طاعته (١).

ولا شك أن هذا الموقف من الملك الكامل كان مخاطرة شديدة عرَّض بها كل فتوح صلاح الدين وأهمها فتح القدس للضياع، وكل ذلك بسبب الخلافات على السلطة وتوسيع رقعة الدولة.

ولكن الامبراطور وصل إلى عكا بعد موت الملك المعظم، وبذلك لم يعد الملك الكامل فى حاجة إليه، غير أنه لم يستطع دفعه لما تقدم بينهما من الاتفاق.

ويستفاد مما ذكره ابن واصل أن الملك الكامل أقام فى تل العجول، وأن الرسل ترددوا بينه وبين الامبراطور الذى أبى أن يرجع إلى بلاده إلا بعد تسليم القدس وبعض فتوح صلاح الدين إليه، لكن الملك الكامل امتنع أن يسلم إليه كل ذلك، ثم تقرر الاتفاق على تسليم القدس إليه بشرط أن تبقى خراباً، وألا تُجدَّد أسوارها، وأن تكون جميع قراها للمسلمين، وأن يكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين، وأن يكون شعار المسلمين فيه ظاهراً (٢).

ويقول ابن واصل إن الملك الكامل أراد بذلك أن يتجنب الحرب، ولهذا فإنه رأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خراباً، وأن يهادنهم مدة لاعتقاده أنه قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء.

ويبدو أن الكامل وضع ذلك فى اعتباره فعلاً حيث حرص على أن تكون المنطقة المحيطة بالقدس فى أيدى المسلمين، ولهذا فقد أصر الصليبيون على أن يكون فى أيديهم عدد محدود من القرى للعبور منها وهم قادمون من عكا إلى القدس خوفاً من تعرضهم للقتل على أيدى المسلمين (٣).

وأورد ابن واصل أن الامبراطور قال للأمير فخر الدين إنه لولا خوفه من زعزعة مكانته عند الفرنج لما كلف السلطان شيئاً لأنه لا غرض له فى القدس ولا فى غيرها.

---

(١) مفرج الكروب : جـ٤ ، ص ٢٣٣ .

(٢) المرجع السابق: ص ٢٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

ولما نودى فى القدس بخروج المسلمين وتسليمها إلى الفرنج كان هناك ضجيج وبكاء، وعظم ذلك على المسلمين وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل، حيث كان فتح بيت المقدس من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين، ويدافع ابن واصل عن الملك الكامل قائلاً : إنه علم أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسوارها وأنه إذا استتبت الأمور له كان قادراً على إخراجهم (١) .

ولما تقرر أمر الهدنة أراد الامبراطور زيارة القدس، فأذن له السلطان الذى أرسل معه القاضى شمس الدين قاضى نابلس، وقد روى شمس الدين لابن واصل ما حدث قائلاً: «لما قدم الامبراطور القدس لازمته كما أمرنى السلطان الملك الكامل، ودخلت معه إلى الحرم الشريف، فرأى ما فيه من المزارات، ثم دخل المسجد الأقصى فأعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة. ولما وصل إلى محراب الأقصى أعجبه حسنه وحسن المنبر، وصعد فى درجة إلى أعلاه ثم نزل وأخذ بيدى وخرجنا من الأقصى، فرأى قسيسا وبيده الإنجيل وهو يريد دخول الأقصى فصاح به صيحة منكرة وقال: «ما الذى أتى بك إلى ها هنا؟. نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده وإنما تصدّق علىّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه. ولا يتعدى أحد منكم طوره» (٢).

وذكر القاضى شمس الدين أنه أوصى المؤذنين فى القدس بألاّ يؤذنوا فى تلك الليلة احتراما للامبراطور الذى خالفه الرأى لأنه يحب أن يسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل..

وعاد الامبراطور إلى بلاده، وظلت علاقة المودة بينه وبين الملك الكامل، ثم مع ابنه الملك العادل وأخيه نجم الدين أيوب، الذى أرسل إلى فريدريك الثانى الشيخ العلامة سراج الدين الأرموى قاضى قونية حيث أقام عنده مدة وصنف له كتابا فى المنطق (٣).

وأورد ابن واصل واقعة هامة تدل على صدق العلاقة الودية بين الامبراطور والأيوبيين حيث بعث الامبراطور إلى لويس التاسع ملك فرنسا ينهاه عن شن حملته على مصر ولكنه لم يستجب لقوله، وعندئذ أرسل فريدريك الثانى واحداً من كبار موظفيه إلى نجم الدين أيوب سراً ليحذره من عزم ملك فرنسا على غزو مصر ويشير عليه بالاستعداد لذلك، وقد توجه هذا الموظف الكبير الذى روى هذه الواقعة بنفسه

(١) مفرج الكروب : جـ٤ ، ص ٢٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

لابن واصل إلى مصر فى زى تاجر حتى لا يلفت انتباه أحد من الأوروبيين فيعلموا ممالأة الامبراطور للمسلمين عليهم (١).

وقد عمل هذا الموظف بعد ذلك فى بلاط مانفريد بن فريدريك الثانى، وكان ابن واصل قد زار مملكة صقلية التى توجه إليها رسولا من قبل الظاهر بيبرس إلى مانفريد فى رمضان سنة ٦٥٩هـ حيث اجتمع معه مراراً ووجده محباً للعلوم العقلية (٢).

وأشار ابن واصل إلى عداء البابا لأسرة فريدريك الثانى، وأنه بعث جيشا لمحاربة مانفريد الذى هُزم، وأمره البابا بذبحه ، وكان البابا قد حرم ما نفريد لميله إلى المسلمين مثلما حرم أباه الامبراطور من قبل (٣) .

ولا شك فى أن بعض الغشاوات بدأت تتقشع عن أعين الأوروبيين فى القرن الثالث عشر بعد أن أيقنوا أن المسلمين ليسوا «وثنيين»، وأن الإسلام من أديان التوحيد، ولهذا لم يكن غريباً أن يكون الامبراطور فريدريك الثانى متفهما للإسلام على هذا النحو، وحريصاً على الاستفادة من الثقافة العربية الإسلامية، وعلى عدم خوض حرب لا طائل من ورائها مع المسلمين لمجرد إرضاء السلطة البابوية.. ومن هنا وصفت حملته «الصليبية» بأنها حملة دبلوماسية... ولا ريب فى أن تحذيره لنجم الدين أيوب من عزم لويس التاسع على غزو مصر دليل على صداقته الحقة للملك الكامل وابنه نجم الدين.

ومهما يكن من أمر فإن العلاقة بين الملك الكامل وفريدريك الثانى تعتبر أمراً غير مألوف فى ذلك العصر، ولهذا فإنها نموذج صالح لعلاقة ودية ممكنة بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوروبى المسيحى.. وهى علاقة تقوم على أساس فكرى وعلى احترام كل منهما لثقافة الطرف الثانى وعقيدته... ولا يمكن لأى علاقة بين الحضارات أو الثقافات المختلفة أن تكون علاقة وئام إلا إذا انطلقت من التفاهم على مستوى الفكر والثقافة قبل علاقات الاقتصاد وغير ذلك من الجوانب المادية.

والقدس جديرة بأن تكون داراً للسلام والوئام بين الأديان السماوية، وهى لا يمكن أن تكون قدسا بدون هذا السلام والوئام .

خوان دل إنسينا فى القدس :

ولد الشاعر الأسبانى خوان دل إنسينا فى سلامنكا عام ١٤٦٨م، ودرس فى جامعتها،

(١) مفرج الكروب : جـ٤ ، ص ٢٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٤٨ ، ص٢٥١ .

وكان شاعراً فى بلاط دوق ألبا، وبعد ذلك توجه إلى روما التى لم يغادرها إلا قليلاً حتى بلغ الخمسين من عمره؛ حيث قرر حينئذ أن يرسم نفسه كاهناً، وبعد رحلته إلى القدس عاد إلى ليون فى أسبانيا وظل فيها حتى وافته المنية فى ١٥٢٩م.

ويوصف خوان دل إنسينا بأنه أبو المسرح الأسبانى.. وقد تأثر فى شعره ومسرحه بتراث العصر الوسيط بجانبيه الدينى والشعبى، كما تأثر بالجو الذى ساد فى عصر النهضة الذى شاع فيه الإعجاب بالعصر الكلاسيكى اليونانى الرومانى (١).

ويذكرُ فى التاريخ أن عام ١٤٩٢ كان عاماً غريباً، فقد استولى فيه الملوك الكاثوليك على غرناطة واكتشف كولومبوس فيه أمريكا، الأمر الذى فتح الباب أمام أسبانيا لتكون امبراطورية قوية.. وفى ذلك العام صعد إلى الكرسى الرسولى فى روما البابا الأسبانى ألكسندر السادس، وفى عام ١٤٩٢ أيضاً أسس خوان دل إنسينا المسرح الأسبانى فى قلعة دوق ألبا.

ويقسِّم مؤرخو الأدب الأسبانى حياة خوان دل إنسينا إلى أربع مراحل :

١- المرحلة الأولى فى سلامنكا منذ ميلاده حتى بلوغه الرابعة والعشرين من عمره وقد درس فيها الموسيقى وكتب الشعر.

٢- المرحلة الثانية فى ألبا وقد استمرت حتى بلوغه الثلاثين حيث كان شاعراً فى بلاط دوق ألبا، وهناك أسس مسرح أسبانيا، وأراد أن يكون منشداً فى كاتدرائية سلامنكا لكنه أخفق فى مسعاه وعندئذ قرر الرحيل إلى روما.

٣- المرحلة الثالثة فى روما وقد استمرت حتى بلوغه الخمسين عاما، وكان البابا الأسبانى رودريجو بورخا وهو من أسرة معروفة قد صعد إلى الكرسى البابوى باسم أليخاندرو السادس أو ألكسندر السادس. وقد قضى خوان دل إنسينا عشر سنوات متتالية فى روما فى حماية ذلك البابا، بل إنه كان من ندمائه والمقربين إليه.

وقد شهدت تلك الفترة اضطرابات دينية وسياسية أثرت فى تفكير خوان دل إنسينا الذى عانى من أزمة فكرية وروحيَّة حيث كان البابا أليخاندرو السادس قد أمر بإحراق رجل الدين الإيطالى سافوناورلا عام ١٤٩٢.

وكان سافوناورلا قد حاول وضع دستور فى فلورنسا يجمع بين التيوقراطية

---

(١) تاريخ الأدب الأسبانى: خوسيه جارثيا لوبيث: ص ٩٨ .

والديمقراطية معا. لكن البابا غضب عليه واعتبره عدوا للمسيح وأمر بإحراقه حياً.
كما بدأ لوثر فى ذ لك العصر تمرده على البابوية، وتعرضت أسر شهيرة قدمت بابوات ورجال دين معروفين لعمليات اغتيال مثل أسرة أورسينى وأسرة كولونا.

٤- المرحلة الرابعة فى روما وليون وتستمر حتى نهاية حياته، وفيها رسم كاهنا ثم قرر الذهاب إلى القدس ليقيم هناك قداسه الأول.

وبعد عودته كتب قصيدة من ٢١٣ مقطعا عنوانها الرحلة المقدسة [La Trivagia] وقد كتب المؤرخ الأسبانى فرانسيسكو ماركيث بيانويبا بحثاً فى هذه القصيدة عنوانه «الرحلة المقدسة ومشكلة الضمير الدينى عند خوان دل إنسينا» (١).. ويعمل هذا المؤرخ فى جامعة هارفارد .

ويقول هذا المؤرخ إن القدس قدمت جوابا على تساؤلات حاصرت الضمير المسيحى للشاعر خوان دل إنسينا؛ حيث تتجلى فى هذه المدينة حقيقة التنوع الدينى الذى يبدو أمراً حتمياً لا مفر منه.. فهى مدينة إسلامية تكفل وتحمى حج العالم المسيحى إليها، كما أن فيها مقدسات عديدة تعتبر مزاراً مشتركاً لأتباع المسيحية والإسلام مما أثار دهشة الشاعر الأسبانى.

وهناك اليهود الذين لم يثيروا اهتمامه لعدم اكتراثهم بالمسيحية والإسلام ولهذا فهم حالة مختلفة فى نظره.

وشهد الشاعر فى القدس تعدد الطوائف المسيحية، حيث الروم، والأقباط، والموارنة، واللاتين، وقد اعتبر ذلك تجسيداً لعالمية الإنجيل... ولم يكن دل إنسينا يجهل الخلافات العقائدية العميقة بين هذه الطوائف لكنه اعتبر ذلك مجرد «خطأ طفيف».

وأشار المؤرخ الأسبانى إلى أن الزائر للقدس يخرج بانطباع غريب وهو التقارب والتباعد فى وقت واحد بين أديان التوحيد الثلاثة التى تلتقى معابدها هناك.

وأوضح الكاتب أن خوان دل إنسينا أدرك أن القدس مكان لا يمكن أن تتجاهل فيه الأديان الثلاثة بعضها البعض . ولقد آمن الإسلام بموسى وعيسى - عليهما السلام - وأقام علاقة بين الأديان الثلاثة، لكنه لم يلق من اليهود والمسيحيين أى معاملة بالمثل، ولهذا فإن خوان دل إنسينا تساءل أمام القدس العربية عما كان يمكن أن يحدث لو احتل

---

(١) القدس المتعددة: ص ٣٥٥ .

المسيحيون مكة؟ هل كانوا يحترمون مشاعر المسلمين فيها مثلما يحترم المسلمون مقدساتهم وهو أمر عاينه الشاعر الأسبانى؟

لقد تساءل قائلاً: «ماذا لو سقط بيت مكة تحت أيدينا فى زمن من الأزمان؟. إذن لامّحت ذكراه». وهى بالأسبانية :

La casa de Meca, si en nuestro poder viniera algin tienpo, mo uviera memoria.

ويرى المؤرخ الأسبانى أن مشكلة القدس اليوم لها بعدان دينى وقومى، وأن المواجهة تتركز بين اليهود والمسلمين، وتنطوى على تهديد كبير فى عصر يسيطر فيه السلاح النووى ويعتمد العالم على بترول الشرق الأوسط، ولكنه يرى أن دور المسيحية فى مواجهة الصراع فى الأرض المقدسة ثانوى ومحايدٌ إلى حد ما بالمقارنة مع عصر صلاح الدين. وحذر من عواقب الأحداث التى قد تقع فى هذه المنطقة من العالم بسبب قضية القدس التى تعتبر قضية النوع الإنسانى.

وتحدَّث عن المسئولية الكبيرة التى تقع على أديان التوحيد بحيث سيكون التوصل إلى حل لمشكلة القدس هدية للإنسانية إذا كان ذلك الحل روحيا يحمل فكرة سلام يسمو على السمات الخاصة لكل دين.

ثم أشار إلى نموذج أسبانيا الإسلامية فى العصر الوسيط قائلاً إن هذا النموذج يفرض نفسه لأنه الحالة الوحيدة التى تعايش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون حيث توصلوا إلى حل عملى فى مواجهة بديل الدمار والفوضى.

ولكن قوله هذا فى حاجة إلى تعليق؛ لأن نموذج أسبانيا الإسلامية كان الوحيد فى أوروبا ولكنه لم يكن النموذج الوحيد فى العالم الإسلامى الذى تعايش فى أرجائه أتباع الأديان الثلاثة بفضل تسامح الإسلام.

وانتقد المؤرخ الأسبانى تأجيل قضية القدس إلى المرحلة الأخيرة من المفاوضات؛ لأن ذلك أمر يثير المخاوف والتشاؤم؛ لأن هناك إمكانيات للانفجار بسبب المشاعر الدينية المتعلقة بالقدس، بل إنه يرى أن تفكيراً عميقاً فى هذه المسألة لا يؤدى إلى التفاؤل، وإنما يدعو إلى الاعتقاد بأن الوضع المتناقض لمدينة القدس لن يشهد أى تغيير قبل ظهور المسيح المنتظر.

ثم تساءل : «أين السائرون اليوم على خطى خوان دل إنسينا؟ وماذا هم فاعلون؟»

الملك العربي فيصل بن عبد العزيز والقدس

لا شك فى أن الملك فيصل بن عبد العزيز الذى ولد فى سنة ١٩٠٦ كان سياسيًا بارزًا، وقد قام بدور كبير فى المنطقة؛ حيث قيل إنه شارك فى صياغة سياسة عربية جديدة استهدفت الابتعاد عن الاعتماد على روسيا السوفيتية والتعاون مع الولايات المتحدة بشرط حماية المصالح العربية..

ومن هنا يمكن القول بأنه كان حريصًا على علاقات ودية مع أمريكا وعلى تحرير الأراضى العربية المحتلة ومنها القدس.. ولا شك أن الجمع بين هذين الهدفين معًا ليس بالأمر الهين بسبب التحيز الأمريكى للدولة اليهودية.

ويقول الكاتب الأوروبى بنوا ميشان فى كتابه عن الملك فيصل إن فيصل الذى كان شديد التدين كان يحرص على أداء واجباته الدينية وفى مقدمتها حماية الحرمين، وإنه كان يرى أن المدن التى يقع على عاتقه حمايتها ثلاث وهى: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقدس، فقد تلقى النبى عليه السلام الوحى فى مكة، وهاجر إلى المدينة حيث بنى أول مسجد فيها، بينما كان معراجه إلى السماء من القدس..

ولهذا فقد آلى فيصل على نفسه أن يعمل على تحرير القدس حتى يصلى فى المسجد الأقصى.

وتحدث الكاتب عن دور فيصل فى حرب ١٩٧٣ وتأييده لمصر وسوريا، بالإضافة إلى فرض الحظر البترولى الذى رأى فيه البعض محاولة لخنق الغرب، بل إن مسئولين أمريكيين هددوا صراحة باحتلال حقول البترول إذا حاول العرب مرة أخرى فرض حظر بترولى.

ولما قام الرئيس الأمريكى نيكسون بزيارة المملكة العربية السعودية فى يونيو ١٩٧٤ شرح له الملك فيصل موقفه؛ حيث دافع عن الفلسطينيين الذين تعرضوا لعدوان لم يشهد له التاريخ مثيلاً فى أحلك عصوره حيث طرد شعب من أرضه ليقيم فيها غرباء.

---

(١) الملك فيصل: ص ١٢٨.

وقال فيصل محذرًا إنه لن يكون هناك سلام دائم ما لم تتحرر القدس وما لم يتم الانسحاب الكامل من الأراضى العربية مع عودة اللاجئين إلى بلادهم وممارستهم حقهم الكامل فى تقرير مصيرهم[1].

ويبدو أن نيكسون الذى أخرج بلاده من مأزق فيتنام وبدأ سياسة الوفاق مع موسكو ونجح فى تحقيق مصالحة مع الصين كان يفكر فى تحقيق مصالحة مع العالم العربى ومن هنا كانت زيارته حينئذ للقاهرة وجدة.

لقد وصل نيكسون إلى ذروة الحرية السياسية فى فترة رئاسته الثانية، ولم يخضع لجماعات الضغط وفى مقدمتها اللوبى اليهودى الذى شعر بالقلق من احتمالات إقدام نيكسون على تقديم تنازلات إلى الدول العربية على حساب إسرائيل التى كانت تعتبر الملك فيصل ألد أعدائها[2]..

ولهذا فقد عمل الإسرائيليون على عزل نيكسون بعد عودته من القاهرة وجدة ونجحوا فى ذلك، ثم تولى الرئاسة جيرالد فورد الذى كان مواليًا للصهيونية.

وقد طالب الملك فيصل بالعمل على الانسحاب الكامل من الأراضى المحتلة وحل المشكلة حلاً جذريًا.. ومع التراخى فى الموقف الأمريكى حذر فيصل من تجاهل حقوق العرب قائلاً: «لست أريد أن أخفى على الحكومة الأمريكية أننا سوف نضطر للجوء إلى سلاح البترول مرة ثانية إذا لم تتخذ موقفًا أوضح تجاه المصالح العربية».

وقد رد كيسنجر على ذلك بالتهديد باستخدام القوة العسكرية للرد على التهديد باستخدام سلاح البترول الذى ينطوى على رغبة فى خنق العالم الصناعى[3].

ثم جاءت النهاية فى ٢٥ مارس ١٩٧٥ عندما أقدم فيصل بن مساعد على اغتيال الملك فيصل بخمس رصاصات أطلقها عليه فى مكتبه ولم تتضح دوافعه!:

هل ارتكب جريمته انتقامًا لمقتل أخيه عندما تدخلت قوات الأمن لمنع مجموعة من الطلبة من اقتحام مبنى الإذاعة احتجاجًا على بدء الإرسال التليفزيونى؟ أم أنه فعل ذلك لأنه مختل عقليًا كما قيل؟ ولكن التحقيقات تدل على أنه كان واعيًا تمام الوعى بما

---

(١) المرجع السابق: ص ١٨٣.
(٢) المرجع السابق: ص ١٨٧ و١٨٨.
(٣) المرجع السابق: ص ١٩١.

يفعل.. أم أنه فعل ذلك بالتواطؤ مع قوة أجنبية؟ وهل هى الولايات المتحدة؟ أم الأرجح أنها إسرائيل التى كانت ترى أن الملك فيصل أخطر أعدائها[1]..؟

وخلاصة القول أن رحيل الملك فيصل أدى إلى غياب شخصية كبيرة كانت تستطيع الضغط على الغرب بخطوات محسوبة وسياسة عاقلة، وقد تجلى ذلك فى مواقفة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ولهذا كان لزامًا أن نشير إلى موقفه فى هذه الصفحات إنصافًا لجهاده، ودعوةً للقادة والسياسيين أن يبذلوا كل طاقتهم للدفاع عن مصالح هذه الشعوب التى يراد لها أن تقدم كل شىء إلى الغرب دون الحصول على أى شىء.

***

(١) المرجع السابق: ص ٢٦٠.

ثغرات في السور العظيم

تحدث العلامة الفرنسي رينيه جينو المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى في باب عنوانه «ثغراتٌ في السور العظيم»[1] في بعض كتبه عن هجوم القوى الهدامة على الحضارات ذات الطابع الروحي، مستخدمًا في ذلك رمز السور العظيم الذي يحيط بالعالم ليحميه من شرور القوى السفلية الهدامة، وهذا السور غير مغلق من أعلى، وذلك ليتيح الاتصال بالقوى العلوية التي تتنزل منها النفحات الروحية.

لكن المادية المعاصرة أغلقت هذا السور من أعلى فقطعت بذلك الاتصال مع السماء ويتضح الخطر الناجم عن ذلك مع فتح ثغرات أسفل السور تنفذ منها القوى الهدامة لتهاجم الإنسانية التي تقطعت الصلات بينها وبين السماء، فكادت أن تقف وحدها أمام الأعداء. ولكن هذه الحال لن تدوم فلابد أن تستقيم الموازين ولو بعد حين.

وتفسير ما حدث أن هذه الثغرات هي التي تنفذ منها في نهاية دورة إنسانية شراذم يأجوج ومأجوج التي ستبذل جهودًا متواصلة لغزو عالمنا، وهذه المخلوقات التي تمثل القوى الشريرة والتي يقال إنها تعيش «في باطن الأرض» توصف في التراث الإسلامي بأنها عمالقة وأقزام في آنٍ واحد[2].

ويقول جينو إن محاولة هذه المخلوقات التسلل إلى عالمنا ليست حدثًا جديدًا ولكنها حدثت في عصور قديمة من قبل.

أما الجديد اليوم فهو أن الثغرات أكبر مما كانت قديمًا، ولهذا فهي أخطر أثرًا، كما أن إمكانيات الإصلاح محدودة لأن تأثير المراكز الروحية يتراجع، مما يجعل من الصعب إنشاء خط دفاعي فعال أمام «عصابات يأجوج ومأجوج».

❁❁❁

(١) دولة الكم وعلامات للزمان: ص ١٦٩.

(٢) دولة الكم وعلامات الزمان: ص ١٧٠.

دولة الخزر الجديدة

فى عام ١٩٦٧ صدر فى نيويورك كتاب عنوانه «تاريخ اليهود الخزر» بقلم البروفسور دنلوب أستاذ تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة كولومبيا.

والخزر شعب من أصل تركى وهم ينتمون كسلالة إلى النموذج البدوى أو شبه البدوى في وسط آسيا.. وكان الخزر شامانيين حتى اعتنق ملكهم اليهودية فى القرن الثامن.

وتقع أراضيهم بين المجرى الأدنى لنهر الفولجا والسهول الشمالية للقوقاز. وقد أشار جيبون فى تاريخه إلى ليون الخزرى، وهو ليون الرابع امبراطور بيزنطة الذى كانت أمه أميرة خزرية تزوجها قسطنطين الخامس.. وقد حارب لينون العرب فى سوريا والأناضول.

ويقول دنلوب إن بلاد الخزر كانت حاجزاً أمام الزحف العربى؛ حيث وصلت جيوش المسلمين إلى منطقة القوقاز الجبلية، ولو عبرتها لكان الطريق مفتوحًا أمامها إلى شرق أوروبا، وقد استمرت الحروب بين العرب والخزر أكثر من مائة عام.

وهكذا - كما يقول دنلوب - فإن الفرنجة بقيادة شارل مارتل صدوا الغزو العربى غربًا، بينما صده الخزر شرقًا، الأمر الذى يجعل هؤلاء الخزر من أبطال العالم المسيحى على حد قوله.

وقد أشار ا لمؤلف إلى رواية جورجية تربط بين الخزر وبين يأجوج ومأجوج(١).

وذكر المؤلف بعد ذلك نقلاً عن مصادر عربية أن الخليفة العباسى الواثق - من القرن الثالث الهجرى - شعر بالقلق لما وردت إليه أنباء عن ثغرة حدثت فى «سد يأجوج ومأجوج» الأمر الذى جعله يرسل سلام الترجمان إلى تلك المنطقة لمعرفة الحقيقة(٢).

وكانت هناك علاقات بين اليهود الخزر وبين يهود العراق، بل إن يهود العراق كانوا يأملون فى أن يتمكن الخزر من تدمير دولة الخلافة(٣).. وإن حادثة الأفشين الذى كان من قادة المعتصم لتكشف الكثير فى هذا الشأن؛ فقد قيل إن الأفشين كان قد وضع خطة قبل

---

(١) ص ١٨٢. (٢) ص ١٩٠. (٣) ص ١٨٩.

اعتقاله للهرب عن طريق الموصل إلى أرمينيا وبلاد الخزر ثم إلى تركستان ليعود بجيش كثيف لشن هجوم على أرض الخلافة[1].

وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير حيث قال إن الأفشين أراد أن يأخذ طريق الموصل ويعبر الزاب إلى أرمينية ثم إلى بلاد الخزر، ثم يدور فى بلاد الترك أو يستميل الخزر على المسلمين، فلم يمكنه ذلك.. فأراد أن يدعو المعتصم وقادته إلى طعام يجعل فيه سمًا، لكنه أخفق فى مؤامرته[2].

وذكر ابن كثير أيضًا أن الأفشين كان قد عزم على الذهاب إلى بلاد الخزر ليستعين بهم على المسلمين، فعاجله الخليفة المعتصم بالقبض عليه، وسئل عن أمور تدل على أنه باق على دين أجداده من الفرس منها أنه غير مختتن، ومنها أنه ضرب رجلين أحدهما إمامٌ والآخر مؤذن ألف سوط لأنهما هدما بيتًا للأصنام واتخذاه مسجدًا[3]..

وقد مات فى سجنه فى سنة ٢٢٦هـ فأمر المعتصم بصلبه وإحراقه وقد وجدوا فيما ترك أصنامًا مكللة بذهب وجواهر، وكتبًا فى فضل دين المجوس.

ويبدو أن دولة الخزر الجديدة قد أقيمت ها هنا لتهديد العرب ومحاولة المساس بمقدساتهم بعد أن انهار «سد يأجوج ومأجوج»، واندفعت القوى الهدامة فى هجوم شرس حولت فيه الحق إلى باطل والباطل إلى حق، ولكنها لن تنجح إن شاء الله فيما تريد؛ لأن قوى الحق لابد أن تنهض للدفاع عن الإسلام وعن الإنسانية كلها.. وعلى الصهيونية التى تتخبط فى مهامه الضلال أن تدرك أن أى مساس بالمسجد الأقصى سوف يؤدى إلى نهايه دولة الخزر الجديدة بقوة إنسانية أو بقوة فوق المستوى الإنسانى.. فحذار ثم حذارِ من الإقدام على مثل هذا الجنون.

ونقول للمسلمين: أما آن الأوان لترميم ذلك السور الذى نفذت من ثغراته ثم اجتاحته القوى الهدامة ومهدت كل سبيل أمام التأثيرت الشريرة وأغلقت كل باب أمام التأثيرات والنفحات العلوية؟..

أما آن الأوان لتوجيه ضربة إلى هذه القوى التى يوصف أصحابها بأنهم عمالقة وأقزام؛ عمالقةٌ لأننا غافلون، وأقزامٌ عندما يستقيظ المناضلون؟

(١) تاريخ اليهود الخزر: ص ١٨٩. (٢) الكامل: جـ٦، ص ٦١.
(٣) البداية والنهاية: جـ ١٠، ص ٣٢١.

أما آن الأوانُ لكشف أباطيل «المسيح الدجال» وألاعيبه وحيله وهزله وهُزاله أمام أعين العالم حتى يعود الحقُّ إلى نصابه ويطمئن كلُّ عابدٍ مُتبتلٍ فى محرابه؟

أما آن الأوان لكى تنهض هذه الأمة من جديد ثقافةً وعلومًا وقوة وعدلاً وشجاعة وإيمانًا حتى تكون حقاً خير أمة أخرجت للناس؟

أما آن الأوان لكى تستجيب هذه الأمة للآية القائلة:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وللآية القائلة:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؟

إنها رسالة النور فى عالم النور، ورسالة الحق فى عالم الحق، ورسالة الجهاد فى ساحة الجهاد..

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

والإسلام هو السلام.. والحرب المشروعة فيه إنما تكون للدفاع عن الأوطان ووضع أساس راسخٍ للسلام..

دعِموا على الحرب السلام وطالما

حَقَنَتْ دماءً فى الزمانِ دماءُ

ولكن الإسلام لا يعرف الهوان، ولا يقبل للمسلمين غير العزة..

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعندما تنتفضُ قطراتُ النور فإن الظلام المتكاثف سوف يتبدد؛ كالوهم الذى يزول أمام الحقيقة، والكذب أمام الصدق، والشك أمام اليقين.



المصادر والمراجع

مراجع عربية :

١- القرآن الكريم .

٢- تفسير الكشاف : للزمخشرى - دار الكتاب العربى - بيروت . د.ت.

٣- صحيح البخارى : دار الشعب . د.ت.

٤- الكتاب المقدس : دار المشرق - بيروت ١٩٩١.

٥- البداية والنهاية : ابن كثير - دار إحياء التراث العربى - بيروت ١٩٩٣ .

٦- الكامل فى التاريخ : ابن الأثير - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٥.

٧- الاختراق الصهيونى للمسيحية : إكرام لمعى - دار الشروق ١٩٩٣ .

٨- إفحام اليهود : السموآل المغربى - تحقيق محمد عبد الله الشرقاوى - دار الهداية ١٩٨٦ .

٩- النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية : لويس شيخو - دار المشرق - بيروت .

١٠- الفاروق عمر : محمد حسين هيكل - دار المعارف - ١٩٩٠ .

١١- النوادر السلطانية (نصوص مختارة) : ابن شداد - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٩.

١٢- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : ابن القيم - دار ابن زيدون - بيروت . د.ت.

١٣- المسيحية والحضارة العربية : جورج قنواتى - دار الثقافة ١٩٩٢ .

١٤- المسلمون والنظام العالمى الجديد : عبدالله الأشعل - دار المعارف ١٩٩٩.

١٥- دلالة الحائرين : موسى بن ميمون - مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٠.

١٦- تاريخ مختصر الدول : ابن العبرى .

١٧- تاريخ اليعقوبى : دار صادر - بيروت ١٩٩٢ .

١٨- تاريخ القدس : عارف باشا العارف - دار المعارف ١٩٩٤ .

١٩- تاريخ إسرائيل : الأب متى المسكين - دير القديس أنبا مقار ١٩٩٧ .

٢٠- تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم - مكتبة النهضة المصرية - ط ٤ .

٢١- فتوح الشام : الواقدى - دار الجيل - بيروت .

٢٢- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ابن واصل - مطبعة دار الكتب ١٩٧٢ .

٢٣- مقدمة ابن خلدون : دار الشعب .

٢٤- مالك بن أنس ، أمين الخولى : الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤ .

مراجع فرنسية :

1- AVERROÉS ET L'AVERROISME : RENAN - éd. CALMANN - LEVY.

2- LA BIBLE - OSTY, éd. SEUIL.

3- DICTIONNAIRE DES SYMBOLES: JEAN CHEVALIER, ALAIN GHEERBRANT, éd. ROBERT LAFFONT/ JUPITER.

4- LA DIVINE COMÉDIE, Traduction de Jacqueline Risset, éd. Flammarion- 1992 - PARIS .

5- L'ESOTÉRISME de DANTE, René GUÉNON, éd. GALLIMARD.

6- FAYCAL ROI d'ARABIE, Benoist - MÉCHIN, éd. ALBIN MICHEL.

7- L'ISLAM et La Fonction de René Guénon. Michel VALSSAN - éd. de L' oeuvre.

8- EPITRES : MAÏMONIDE, éd. Verdier.

9- Histoire des Juifs du Nil, Jacques Hassoun, éd. Minerve.

10- MULTIPLE JÉRUSALEM, éd. Dédale- printemps 1996.

11- Morale et Politique dans l'État Juif, dirigé par: Ilan Greilsammer, éd. Autrement, 1993.

12- Le Roi du MONDE, René Guénon, éd. Gallimard.

13- Le Règne de la Quantité et les signes des temps. René Guénon, éd. Gallimard.

14- Les Récits Hassidiques, Martin BUBER, éd. DU ROCHER .

15- LA REVANCHE DE DIEU, GILLES KEPEL, éd. SEUIL.

16- LE SOLEIL d' ALLAH, SIGRID HUNKE, éd. ALBIN MICHEL.

17- Le TALMUD DE JERUSALEM, tomeix, traduit par: MOÏSE SCHVVB .

مراجع بالإنجليزية :

1- DUNLOP : The History of the Jewish KHAZARS, Schocken Books, NEW YORK.

2- ISRAEL COHEN : Theodor HERTZL Founder of political Zionism, NEW YORK- Thomas Yoselopp. London.

3- ALFRED Liliental : What price Israel ?

مراجع بالأسبانية:

1- José Garcia LOPEZ : Historia de La Literatura Espanola.

الفهرس

الموضوع	الصفحة



رقم الإيداع : ١٦٥٧ لعام ٢٠٠١

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 241 - 340 - X

هذا الكتاب

- ظلَّ اليهود وهم مضطهدون يبحثون عن ملاذ لهم. وسنحت لهم الفرصة حين تحالفوا مع الاستعمار الذى مهد لهم احتلال فلسطين، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل يريدون السيطرة على القدس العربية وهى أقدم من الشعب اليهودى نفسه، بل إن كلمة «صهيون» التى يتمسكون بها كلمة كنعانية؛ مما يدل على أن مرور بنى إسرائيل فى فلسطين كان عابراً.
- ويفند هذا الكتاب المزاعم اليهودية فيما يتعلق بأرض فلسطين بصفة عامة؛ حيث استقصى جذور الصهيونية فى المزمور ١٣٧، وفى القدس بصفة خاصة؛ حيث يوضح أن إضفاء القداسة على القدس يرجع إلى عهد إبراهيم عليه السلام فى التاريخ المعروف، بل إلى عهد آدم عليه السلام..

كما يفند مطاعن بعض المؤرخين اليهود فى الأساس الدينى للمسجد الأقصى، ويثبت تهافت ادعائهم أن الأمويين أقاموه لأغراض سياسية.

- ويستعرض الكتاب تصورات الأديان السماوية الثلاثة بشأن المدينة المقدسة .. وحيث إن مسألة القدس تعتبر مشكلة عالمية؛ فإنه يسلط الضوء عليها معتمداً فى ذلك كله على أدق المراجع.
- إلى أن يصل إلى الحديث عن مستقبل القدس، والخطط اليهودية لنسف الأقصى، والحلول المقترحة لحل هذه الأزمة التى تهدد السلام

